Bibliotheca Alexandrina
0213321

الثمن ١٤ ل. ل.
او ما يعادلها

صنع الله ابراهيم

C.E. RENAULT - FLINS
1026226

نجمة أغسطس

رواية

صنع الله ابراهيم

الفارابي

C.E. RENAULT-FLINS
1026226

نجمة أغسطس

رواية

SAN - SANH ALLAH BRAHIM

NAJMAT AGHTS

27353 FAB

COMITE D'ETABLISSEMENT
R.N.U.R. - FLINS
MEDIATHEQUE
REFORME

Bibliotheca Alexandrina
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

27353

نجمة أغسطس

GIFTS OF 1996
BIBLIOTHEQUE
INTERUNIVERSITAIRE DES
LANGUES ORIENTALS
PARIS

جميع الحقوق محفوظة

دار الفارابي – بيروت ص.ب. ٣١٨١
الطبعة الثالثة ١٩٨٠

9623

صنع الله ابراهيم

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم العدد : 9623
رقم التسجيل :

نجمة أغسطس

رواية

COMITÉ D'ÉTABLISSEMENT
R.N.U.R. FLINS
Bibliothèque
78410 AUBERGENVILLE
N° Inventaire 27353.......
Cote .SAN...N............

الفارابي

١٩٨٠

نجْمَة أغسْطسْ

لا تخطر فكرة للفنان مهما كانت
عظمته.وليس لها وجود في قشرة
الصخر، وكل ما تستطيعه اليد
التي تخدم العقل هو ان تفك سحر
الرخام..

« ميكل انجلو »

الى ذكرى « شهدي عطية الشافعي

القسم الأول

(١)

وضعت حقيبتي فوق الرفّ ووقفت أتأمل الديوان الخالي. وخلفي في الممر الضيق كان الركاب يهرعون الى أماكنهم. وفي الخارج كان الناس يتزاحمون أمام نوافذ القطار.

تقدمت من النافذة فألفيت مصراعها الزجاجي محكم الأغلاق. ورأيت من خلاله زحام المودعين أمام نافذة الديوان التالي. كانت شفاههم تتحرك بسرعة وقد مالت رؤوسهم الى الأمام وانتفخت رقابهم. ولا بد أنهم كانوا يصيحون حتى يسمعهم المسافرون من أقارب وأصدقاء. لكن الزجاج كان سميكاً لا ينفذ منه الصوت. فقد كان القطار واحداً من تلك القطارات الحديثة المكيفة الهواء وهي لذلك محكمة الاغلاق.

جلست الى جوار النافذة. وبعد لحظة شعرت بوطأة الحر. وتجمع العرق على وجهي ففككت أزرار قميصي. وعندئذ تحرك القطار دون أن ينضم أحد الى قمرتي. وبدأ جهاز التكييف يعمل فتسللت الى الديوان برودة خفيفة.

مددت ساقي أمامي مستسلماً للمقعد. وكنا قد خلفنا شوارع القاهرة. ومرّ القطار بمجموعة من المساكن الشعبية بلونها الأصفر الباهت وزواياها البارزة المتجاورة وزحام الغسيل في شرفاتها وأكوام القاذورات أسفلها. وجاءت بعدها العشش ثم ظهرت بعض الحقول فجأة. وملت على النافذة لأرى محطة الجيزة. ومررنا بها في لمحة. ثم انطلقنا وسط خضرة كاملة على الجانبين.

أحسست بحركة على باب الديوان فالتفت لأرى رجلا في سترة صفراء. نهضت واقفاً. اقترب الرجل مني ثم انحنى على المقعد دون أن يفوه بكلمة. وفي ثانية تحول الى فراش من طابقين.

قال مشيراً الى باب صغير في الحائط: الغطاء هنا.

واعتدل باسطاً قامته ثم قال: لو عزت حاجة اندهلي.

قلت: حاضر يا فندم.

تطلع اليَّ مندهشاً قبل أن يغادر الديوان ويغلق الباب من خلفه.

اقتربت من الباب وأدرت مقبضه المعدني، ولدهشتي دار في يدي وتحرك مصراع الباب نحوي. أعدت اغلاقه وثبته بالسلسلة المعدنية المدلاة منه. وعدت الى مكاني بجوار النافذة.

كان هناك رف صغير الى جوارها فوقه كوب وتحته صنبور مياه ولوحة معدنية جذبتها نحوي فتحولت الى حوض. ملأت الكوب ورفعته الى فمي. كانت المياه ساخنة فاكتفيت برشفة واحدة. وتركت ماء الصنبور يتجمع في الحوض حتى امتلأ فدفعته الى مكانه. وسمعت صوت المياه وهي تنصرف الى الخارج.

أعدت الكوب الى مكانه وجلست على حافة الفراش. أشعلت سيجارة وأنا أتطلع من النافذة دون أن أتبين شيئاً محدداً. ربما لأن القطار كان يسير بسرعة فائقة.

نهضت واقفاً وغادرت الديوان. كان الممر هادئاً يضيئه نور الغروب في النوافذ. مررت بدواوين مغلقة وأخرى مفتوحة تنطلق منها ثرثرة رتيبة. وأمام احداها جلس شاب على مقعد صغير من القماش يتحدث الى الجالسين في الداخل. اختلست النظر الى السيدة التي كان يتحدث معها فرمقني بنظرة عدائية وأنا أمر من خلفه.

انتقلت الى العربة التالية التي تناثر ركابها أمام نوافذ ممرها. كان بينهم عدد من الأجانب. اصطدمت وأنا أمر بفتاة أوروبية شقراء ترتدي سروالاً أسود. أحسست على ساقي بملمس جسمها اللين. وظللت أحس به وأنا أتقدم الى نهاية العربة وأعبرها الى عربة الطعام.

اخترت مائدة الى جوار النافذة. وطلبت من الجرسون النوبي زجاجة بيرة

احتسيتها وأنا أتأمل الحقول الخضراء الخالية من أي انسان. أضيء نور العربة. وأصبحت النافذة مرآة سوداء لا تعكس غير وجهي.

احتل المائدة المجاورة لي عجوز من أوروبا وزوجته المزوقة في رصانة وولدان أحدهما بلحية طويلة. ثم دخلت فتاة البنطلون الأسود الشقراء في حركة مندفعة وتوقفت برهة تتلفت حولها. كان وجهها ضاحكاً. نظرت أنا الى المقعد الخالي في مواجهتي ولكنها أعطتني ظهرها. وانضمت الى مجموعة أوروبية أخرى تتألف من شابين وفتاة.

طلب شاب أسمر في الركن زجاجة بيرة جديدة. كان يبدو أنه من العاملين في السد العالي. وأوحت ملابسه بأنه عامل ترقى الى مرتبة ملاحظ..

طلبت زجاجة أخرى بدوري. لكن الجرسون اعتذر بأن البيرة نفذت. فغادرت العربة عائداً الى قمرتي. كان القطار يهتز بشدة فاعتمدت بيدي على جدران الممر دون أن أرفع عيني عن أبواب الدواوين. لكني لم أر غير جانب من فخذ امرأة كانت تغير من وضع ساقيها.

أضأت نور قمرتي. وأخرجت منامة ومنشفة. وأحسست بثقل مفاجيء في معدتي فغادرت الديوان الى التواليت.

أنزلت قاعدة الحمام الخشبية وجلست فوقها بعد أن رفعت ملابسي. وعندما انتهيت ضغطت رافعة معدنية صغيرة الى جوار يدي اليمنى فتسللت المياه تغسلني برفق. واعتدلت واقفاً أرتب ملابسي ثم استدرت أتأمل ما فعلت.

تذكرت شقة مصر الجديدة الرطبة التي أقمت فيها عدة شهور. لم تكن الشمس تدخلها الا لماماً. وكان حمامها معطوباً تعجز مياهه عن ازالة الافرازات مهما جذب السيفون. وكانت افرازاتي تظل في مكانها ساعات طويلة تطالعني كلما احتجت الى الحوض المجاور.

ضغطت رافعة معدنية بجوار المقعد فانفصل قاعه وسالت المياه على جوانبه. واختفت افرازاتي بثانية ثم عاد القاع الى وضعه نظيفاً لامعاً.

تحولت الى الحوض ففتحت الصنبور. ورأيت كرة معدنية بجواره لها طرف دقيق بارز في أسفلها. تحسسته بطرف أصبعي فانسابت منه دفقة خفيفة من الصابون السائل.

عدت الى ديواني فاستبدلت ملابسي بالمنامة. وشعرت بالبرد فأخرجت الغطاء.

وأخذت من حقيبتي كتاباً مصوراً عن « ميكل أنجلو ». ثم تمددت على الفراش.

أحسست بجفاف في حلقي. وتقت الى زجاجة كوكا كولا فضغطت الزر المخصص لاستدعاء الفراش. انتظرت مدة ولكن أحداً لم يأت. فضغطت الغطاء حول أطرافي وأطفأت النور. ثم أشعلت سيجارة جذبت أنفاسها بلذة في الظلام الذي رطبه جهاز التكييف.

كان الظلام شاملا يقتحمه أحياناً نور مصباح وحيد على الخط الحديدي أو أنوار بلدة صغيرة نمر بها بسرعة. وتخيلت أني أمر من جديد في الممر. وأن الزحام شديد. وعندما أصبحت خلف الشقراء ذات السروال الأسود لم أتمكن من الحركة. وانحنت هي الى الأمام تتأمل شيئاً في الطريق. فانحنيت فوقها لأرى ما جذب اهتمامها.

أشعلت سيجارة ثانية وأنا أحدق الى النافذة. ومررت بيدي على ساقي. وفجأة انغمر الديوان بالضوء. وألفيتني أحدق الى رجل يتأملني من النافذة. فجذبت يدي بسرعة من فوق ساقي. وأدركت بعد لحظة أن قطارنا توقف بجوار قطار آخر.

تحرك الرجل مبتعداً. وتبينت أن الحركة من قطارنا الذي استأنف سيره. فالتففت بالغطاء جيداً وتكومت على نفسي.

أيقظتني أشعة الشمس في الصباح. وظللت ممدداً أتطلع الى فضاء موحش تلون بلون الرمال. غادرت الديوان الى قاعة الطعام. وبحثت بعيني عن فتاة الأمس الشقراء فلم أجدها. ولم أرَ أيضاً العجوز الأوروبي وامرأته والولدين. ولا بدّ أن يكونوا قد غادروا القطار في الأقصر.

شربت الشاي وأنا أتطلع من النافذة. وبدأت المرتفعات المجاورة تصطبغ باللون الأحمر بتأثير مناجم الحديد ولا شك. ومن ملامح المسافرين وحركاتهم أدركت أننا أشرفنا على اسوان.

ذهبت الى ديواني وحملت حقيبتي الى باب العربة. كان القطار قد توقف في المحطة وفتحت أبوابه. وعند الباب شعرت لأول مرة منذ أربع عشرة ساعة بحرارة الصيف والجو الخانق المترب.

ساعدني شيال في انزال حقيبتي وحملها الى خارج المحطة حيث اصطف طابور من سيارات التاكسي يرتدي سائقوها الجلاليب. أعطيته أجره وحملت الحقيبة وعبرت الميدان الذي تجمعت في أنحائه سيارات ركاب كبيرة.

مشيت ببطء أنوء بحمل الحقيبة. وأجبرتني أشعة الشمس القوية على أن أطبق من جفوني بعض الشيء.

انحرفت الى اليسار في طريق ضيق محاذ للنيل ومزدحم بحركة المرور. بحثت عن تليفون حتى وجدت واحدا في دكان على الشارع تبين أنه مكتب محام. أعطاني المحامي رقم هيئة السد العالي. لكنهم قالوا لي أن لمعمل الأبحاث الجيولوجية رقما منفصلا.

طلبت الرقم الجديد فجاءني صوت صبري. وعندما اكتشف أني أكلمه من أسوان لم يصدق. وطلب مني أن أركب الأتوبيس على الفور الى منطقة تدعى « صحارى » وأسأل عن مسكنه الى جوار الجامع.

تركت حقيبتي في مكتب المحامي ومضيت الى ميدان المحطة. أرشدني الناظر الى سيارة « صحارى » التي تحركت بعد نصف ساعة. سرنا بمحاذاة النيل الذي برزت في منتصفه صخور سوداء ضخمة. وبعد قليل عبرنا خزان أسوان القديم. بعدها امتدت الصحراء أمامنا تعترضها بين الحين والآخر سيارات مثقلة بأحمال من الصخور والرمال.

أشرفنا فجأة على مجموعة من المجمعات السكنية الحديثة المتوازية تشقها شوارع فسيحة مرصوفة. ووقفت السيارة فغادرها الركاب وتبعتهم عندما أبصرت الجامع.

بحثت عن عنوان المنزل الذي وصفه لي صبري فوجدته في آخر صف من المجمعات. وفتح لي الباب نوبي قصير القامة عريضها باسم الوجه تنحى عن الباب بحركة عسكرية قائلاً: تفضل.

ولجت صالة صغيرة بها مائدة معدنية وعدة مقاعد تفتح عليها حجرتان احداها مغلقة استقر جهاز تكييف في حائطها فوق الباب. أما الثانية فكانت مفتوحة وقد بدا مكان جهاز التكييف فارغاً احتله لوح من الكرتون.

قال لي النوبي أنه يدعى « البرديسي » وان « الباشمهندس » يريد مني الذهاب الى النادي الروسي ومقابلة شخص يدعى سليم.

دلفت الى الحجرة المفتوحة ووقفت أتأمل وجهي في المرآة. وناديت على البرديسي قائلاً اني أريد ان أحلق ذقني. ثم تحولت أتأمل الحجرة، ورأيت أعداداً من مجلة « الكواكب » مصفوفة بعناية على طاولة الى جوار الفراش. وفوق الفراش استقرت احداها مفتوحة على صورة لسعاد حسني كشفت عن جانب كبير من ثدييها.

أحضر لي البرديسي ماكينة حلاقة وموسى وأنبوبة معجون. وضعت المعجون على وجهي فأحسست بلسعة غريبة. تأملت الأنبوبة فاكتشفت أنها تحتوي على معجون

أسنان. وناديت على البرديسي فأحضر لي واحدة أخرى ألفيتها للأسنان أيضاً.

ذهبت الى الحمام ودعكت الفرشاة في صابونة الحوض وحلقت ثم خلعت ملابسي ووقفت تحت الدش. واستحممت بماء يقرب من درجة الغليان. ثم وقفت حائراً لا أدري كيف أجفف جسمي. وأخيراً أخرجت منديلاً من ملابسي مسحت به جسمي. وبقيت برهة وسط الحمام وما لبث جسدي أن جف تماماً. فارتديت ملابسي وخرجت الى الصالة. شربت كوب الشاي الذي أعده لي البرديسي ثم غادرت المنزل.

بحثت عن النادي الروسي كما وصفه لي البرديسي فألفيته مبنى أنيقاً أقيم في مدخله كشك امتلأ بالكتب والمجلات الروسية. كان المطعم في الجزء الخلفي من المبنى. وكان واسعاً نظيفاً امتلأ بالآكلين وجلهم من المصريين. وتبين أن سليم هو مدير المطعم. وقال لي ان صبري حجز لي طعام الغداء.

جلست الى مائدة. وسرعان ما جاءني الطعام. وكان يتألف من ربع دجاجة بالخضار والأرز تبعتها شريحة من البطيخ المثلج.

أتيت على محتويات المائدة وغادرت المطعم الى مسكن صبري. فتح لي البرديسي بحركته العسكرية. وألفيت صبري في الصالة يتناول الطعام مع شخص آخر قدمه لي على أنه مهندس كبير وزميله في المسكن.

جلست في حجرة صبري انتظره حتى جاء بجسمه المترهل وشعره الذي امتلأ بالبياض.

قال: لم أتوقع أبداً أن تفعلها وتأتي.

قلت: ظننت أني أمزح.

قال وهو يجلس بجانبي على الفراش: لكن أين ستقيم؟

أشعلت سيجارة وأجبت: لم أقرر بعد. انا في انتظار نصيحتك.

قال إنه لا يستطيع أن يأخذني الى مسكنه لأن لزميله طباعاً صعبة مما جعله يدعوني الى المطعم. كما أنه من الممنوع استضافة أحد في مساكن الهيئة.

قلت اني سأجد طريقة ما.

مال عليَّ وهمس: أكل شيء على ما يرام؟

قلت: أجل. لماذا؟

قال: لا شيء. فقط هنا مكان حساس وأنا الآن في الخمسين ولا أريد متاعب. لست أدري ما تريده بالضبط.

قلت: لا أكثر من الفرجة.
قال: وماذا تنوي الآن؟
قلت: معي بعض النقود وعنوان شخص آخر ربما تمكنت من الاقامة معه.
قال: وان لم تتمكن؟
قلت: بحثت عن فندق رخيص.
قال ان أسعار الفنادق الآن رخيصة فلا أحد يفد الى أسوان في أغسطس.
أخرج علبة سجائره وقدَّم لي واحدة فاعتذرت بأني لا أشرب السجائر ذات الفلتر.
شعرت بحرارة الغرفة وجوّها الخانق. وقال صبري إنه رفع جهاز التكييف لأنه لا يحتمل برودته.
قلت: آن لك أن تتزوج يا صبري. ماذا تفعل؟
تنهد: كما يفعل الجميع.
وأشار الى صورة سعاد حسني.
- والروسيات؟
- هذا آخر ما يجب أن تفكر فيه والا وجدت نفسك في القاهرة ووضعت هي على الطائرة الذاهبة الى موسكو.

أحضر البرديسي أكواب الشاي. ورويت لصبري قصة المعجون فضحك قائلاً إنه بالرغم من ذلك يتميز بالأمانة الشديدة ككل النوبيين. وروى لي كيف عمل مرة في منزل كبير الخبراء السوفيات وعندما كسر هذا لوحاً من الزجاج في المنزل ذهب البرديسي الى الهيئة وقدم بلاغاً ضده.

استفسرت منه عن أسعار الطعام في النادي الروسي فقال ان سعر الوجبة الممتازة لا يتجاوز ثلاثة قروش. وقال ان المطعم مخصص للمهندسين فقط ولكنه يستطيع أن يدبر لي الأمر بحيث أتناول فيه بعض وجباتي. أما في أسوان نفسها فليس أمامي غير نادي التجديف.

فرغنا من الشاي فعرض علي أن أصحبه الى مكتبه. واستقبلنا الهواء قوياً ولطيفاً في ظل المبنى. لكن الحرارة ما لبثت أن حاصرتنا عندما تحولنا الى اليسار وعبرنا الطريق.
سألني ونحن نقف أمام شجرة في انتظار السيارة التي تقله عادة:
- كيف حال الناس في القاهرة؟

أجبت: كما هي.

ثم ضحكت وأردفت أني ذهبت أول أمس لزيارة الرحماني في منزله وجدته بمفرده وأمامه طبق به سمكة. وعندما أخبرته بسفري قال ان الأمور ستتحسن عند عودتي.

- وبماذا أجبته؟
- قلت اني لا أعتقد.
- وحسنين؟
- لا يجد اللقمة؟
- وسامي؟
- يكتب في الصحف.
- لا أقرأ مقالاته.

قلت: ولا أنا.

لمحت عدداً من النوبيين بالجلاليب والعمائم بينهم صعيدي في «أوفرول» الميكانيكيين الأزرق أسفل الشجرة التالية حيث محطة السيارات. كان أمامهم أتوبيس أنيق فارغ قال صبري انه مخصص للروس. وانهم في البداية كانوا يركبون مع المصريين ثم طلبوا أن تخصص لهم سيارات مستقلة.

سألته عن السبب فقال: ألا تعرف أبناء بلدنا؟ الواحد منهم يفقد السيطرة على نفسه اذا ما اصطدم باللحم الأبيض في الزحام.

راقبت سيدة روسية ممتلئة تقترب من الأتوبيس ثم ترفع قدمها وتضعها على درجه فينبعج ردفها. وأقبلت علينا سيارة ركاب مسرعة خلت بعض نوافذها من الزجاج. تمهلت أمامنا فجرى نحوها المنتظرون الذين تضاعف عددهم. لكن السائق تجاوزهم مواصلا السير. ثم توقف ودار بسيارته عائداً الى المحطة. فتدافعوا خلفه من جديد وتزاحموا على بابي العربة.

توقفت أمامنا جيب روسية تقل عدداً من المصريين. فركبنا الى جوار السائق وانطلقنا في طريق مرصوف حتى بلغنا شاطيء النيل. غادرنا العربة أمام مبنى قديم أبيض اللون تحيط به الخضرة من كل جانب. وقال صبري أن السائق سينزل أسوان بعد ساعة ويمكن أن يأخذني معه. فاتفقت معه على أن ينتظرني.

قادني صبري الى مكتب يطل على النيل. ووقفت في النافذة أتأمل المياه التي بدت ساكنة. أشار الى خط من التراب ناحية اليمين تنتهي عنده المياه وقال: هذا هو السد.

كان التراب تتخلله قطع من الصخور الرمادية والزرقاء المختلفة الأحجام. وكان يرتفع الى مستوى منبسط من الرمال تعمل فوقه عدة آلات متحركة وينتهي بخط من البراميل المتجاورة يبدأ خلفها مستوى جديد مرتفع من الصخور.

لحظ صبري دهشتي فقال: السد ليس أكثر من قطاعات من الصخور والرمال المختلفة الأحجام المرتبة بنظام خاص. والناحية التي نراها الآن هي الجزء الخلفي الذي يواجه القاهرة.

لم تكن ثمة حركة أمامي فوق السد فيما عدا الآلات المعدودة التي كانت تتحرك ببطء شديد فوق الرمال.

قلت: كنت أتصور أني سأجد السد يموج بآلاف العمال والمكن.

قال: هذا كان في المرحلة الأولى. أما الآن فالعمل كله مركز في قلب السد.

تحولنا عن النافذة وبدأنا جولة في أنحاء المعمل. ورأيت جهاز الجس الصوتي الذي يقيس أعماق النيل بالموجات الصوتية. ثم وقفنا أمام رف من الخشب صفت فوقه قطع من الصخور المختلفة الألوان تمثل عينات من صخور المنطقة ومعادنها.

سألته عن أنواع الصخور فقال: انها جميعاً من الجرانيت الذي يتكون دائماً من عدة معادن مختلفة الألوان ويتأثر لونه باختلاف نسبها. وقادني الى ميكرسكوب على مائدة مجاورة وقال وهو يضع شريحة رمادية اللون من الصخر أسفله: يمكنك أن ترى بنفسك.

انحنيت على المنظار فرأيت عدداً لا يحصى من المساحات الدقيقة المتداخلة المتباينة اللون. كان بعضها أسود اللون وبعضها الآخر ورديا. وكان لأغلبها شكل هندسي محدد. وبدت شريحة الصخر أشبه بلوحة تجريدية.

انتقلنا الى عدد من الصناديق الصغيرة صفت بجوار الحائط. كانت تضم أحجاما مختلفة من الرمال تبدأ من الزلط والحصى وتتدرج منتهية بالتراب. وقال صبري أن قطاعات كاملة من الرمال الخشنة تستخدم في بناء السد. وتستخدم الرمال الناعمة في تلبيس الصخور. أما التراب أو الطمي فيصنع منه قلب السد الذي يطلق عليه اسم النواة الصماء.

قلت ونحن نعود الى مكتبه: يبدو أنك وجدت أخيرا عملا مهما.

قال: انت تمزح لكن هذه هي الحقيقة. فأعمال الحفر والتفجير تجري في غابة من المكونات المتباينة وأي خطأ في التكو قد يؤدي الى كارثة.

وضرب مثلا بمستشفى شرق أسوان الذي أقيم خطأ فوق نوع خطير من الطين يمتص الماء بشراهة وينتفخ حجمه. ولم يلبث المبنى أن تشقق وانهار بعد أشهر قليلة من بنائه.

حان موعدي مع السائق فودعت صبري واعداً بالاتصال فيا بعد. نزلت الى حيث كان السائق في انتظاري فركبت الى جواره. سألني وهو يدير المحرك عما اذا كنت قد رأيت السد فأجبت بالنفي. قال اني سأراه الآن لأنه سيذهب الى أسوان عن طريقه.

انطلقنا في طريق مرصوف بين صفين من التلال الترابية والسفوح الجبلية. وبدأ الطريق يضيق ثم كشف عن إنحناءة الى اليسار. أدار السائق مقود السيارة في اتجاهها. وظهر أمامنا بغتة أحد جنود البوليس الحربي يشير لنا بالوقوف.

صاح فينا عندما توقفت السيارة ان المرور ممنوع الآن بسبب اجراء تفجير في المنطقة. فتحول السائق الى جانب مبتعداً عن الطريق الرئيسي الذي كانت شاحنات الصخور والرمال لا تكف عن عبوره. وأوقف محرك السيارة.

قدمت اليه سيجارة وأشعلت واحدة. ومضيت أرقب عدداً من العمال أحاطوا بحامل فوق عجلات تعلوها بكرة. كانت هناك ماسورة عمودية تتدلى من البكرة وتنتهي بعمود يعمل في حركة متتالية صعوداً وهبوطاً وهو يتقدم الى أسفل ينطلق منه صوت أشبه بالحشرجة. وما لبثت أن سرت في الآلة كلها عدة اهتزازات سريعة ثم ارتعش العمود وتوقف عن الحركة تماماً. وظهر شيء من البلل عند نقطة التقاء العمود بالماسورة.

سألت السائق عن الآلة فقال إنها من آلات التخريم التي تصنع خروماً عميقة في الصخور توضع فيها أصابع الديناميت.

أخرج العمال العمود. ورأيته ينتهي بقضيب كبير مدبب الطرف. واستبدلوا العمود بآخر أكثر سمكاً تنتهي فوهته السفلى بكرة. وأدلوا العمود الجديد في الحفرة. وما لبثت الآلة أن استأنفت العمل ثم توقفت. وارتفع العمود من باطن الأرض وما أن وصل الى السطح حتى ابتعد سريعاً عن الحفرة والمياه المشبعة بالطين تسيل من الكرة المثبتة في نهايته.

لحظت بين العمال وجهاً أجنبياً أدركت أنه لا بد وأن يكون روسياً. كان ضخم الجثة مثل الصورة المعهودة في السينما. ويبدو أنه كان يرأس المصريين. ورأيت هؤلاء يستعدون للانصراف. وسمعت أحدهم يطلب منهم البقاء. فرد الآخرون بأن موعد

ورديتهم قد انتهى. وانصرف الجميع فيما عدا الروسي الذي واصل العمل بمفرده.

ألقى السائق بعقب سيجارته من النافذة وأدار المحرك قائلاً انه لا يطيق الانتظار أكثر من ذلك وسيذهب من الطريق الآخر عبر الخزان القديم. وتراجع بالسيارة مستديراً بمؤخرتها ناحية اليمين حتى أصبحنا على الطريق الرئيسي فانطلقنا من حيث جئنا.

سألت السائق عما اذا كان يقيم في الموقع. فأجاب بالايجاب.

قلت: ومستريح هناك؟

هز كتفه: أهو أحسن من حتت تانية كتير. بس لو ما كنش الحر.. تصور يا بيه بنرش المراتب بالمية عشان نرطب الجو.

سألته كم يدفع ايجاراً لمسكنه فقال انهم يقيمون في عنابر مجانية.

وصلنا الخزان فعبرناه الى الضفة الشرقية. وبعد قليل أصبحنا في أسوان. كانت المدينة ما زالت تستمتع بقيلولة الظهر رغم أن الساعة أشرفت على السادسة. ولحظت لأول مرة الفنادق الفخمة الجديدة في كل مكان. وكانت كلها مغلقة بسبب الصيف.

انطلقنا في الشارع الذي يمتد موازياً للنيل حتى ظهر صف من المباني الحديثة تفصل بينه وبين النهر. وأنزلني السائق في ميدان المحطة. فوقفت أتأمل الميدان الواسع ومدخل المحطة الهادىء الذي تجمعت أمامه سيارات الأجرة وعربات الحنطور. وتقدمت من كشك صغير فاشتريت علبة سجائر. ثم اتجهت الى مقهى بجوار المحطة فجلست خارجه وطلبت من الجرسون فنجاناً من القهوة.

أشعلت سيجارة وبدأت أرتشف قهوتي عندما التقت عيناي بعيني رجل طويل القامة يجلس على مقربة. كان يرتدي قميصاً داكن اللون وبنطلونا رماديا. وخيل ا أنه يحدق الي بدقة. تطلعت اليه بعد برهة فالتقت عينانا مرة أخرى.

تناولت رشفة من قهوتي وأنا أتطلع الى السماء. ولمحته من ركن عيني يغادر مقعده ويقترب من مكاني. اهتز فنجان القهوة في يدي. وطارت منه نقطة استقرت على قميصي. ووضعت الفنجان على المائدة.

أصبح الرجل بجانبي وتجاوزني وواصل السير على الأفريز. جذبت نفسا عميقا من سيجارتي ثم انهيت قهوتي. ودفعت حسابي ثم سرت على مهل في اتجاه شارع النيل.

لمحت ممراً وسط صف من المباني الحديثة فاتجهت اليه. توقفت في مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفي. لكني لم أر أثراً لرفيق المقهى.

اجتزت الممر الى الشارع المطل على النيل. وجلست على مقعد في مواجهه النهر.

كانت الشمس قد غربت لكن الضوء كان ما يزال منتشراً. وتطلعت الى فندق حديث يجري بناؤه فوق جزيرة وسط النهر، ظهرت الى جواره مجموعة من الصخور السوداء الضخمة تتخللها فجوات واسعة.

اقترب مني شاب وفتاة أجنبيان حافيا القدمين. تهالكا بجواري. وجلسا بصمت يتطلعان الى النهر.

نهضت واقفاً وعدت الى الميدان. وفي هذه المرة التزمت الجانب الآخر البعيد عن المقهى حتى بلغت كشك السيارات. سألت الناظر عن مكان بيت الشباب واذا به في نهاية شارع صغير الى جوار المحطة مباشرة.

ألفيت البيت منزلاً صغيراً. قرعت جرس الباب عدة مرات قبل أن يفتح لي صبي صغير. ودون أن يوجه الي أية كلمة قادني الى صالة خافتة الضوء جلس بها رجل ذو عوينات أمام مائدة.

قدمت للرجل سيجارة وقلت إني أريد الاشتراك. فطلب مني أن أدفع جنيهاً.

قلت: والمبيت؟

قال: عشرة قروش في الليلة على ألا تزيد على ثلاث ليال.

قلت: ثلاث فقط؟ هل يمكن أن أبيت الليلة؟

مال الى الأمام محدقاً الي: هذا ليس فندقاً.

قلت: أعرف وأنا دائماً كنت أريد أن أشترك لكن الظروف لم تسنح لي.

سألني عن عملي فقلت إني أشتغل بالصحافة.

قال: لا يمكن أن تبيت قبل أن أعد لك بطاقة الاشتراك وهذا يستغرق وقتاً.

قلت إني أريد أن أبيت الليلة.

سألني: هل معك صورة؟

قلت: كلا. بوسعي أن أحصل عليها غداً.

هز رأسه وتأملني برهة ثم قال: بيوت الشباب لها رسالة وليست فندقاً.

تجاوزته ببصري الى باب بدت منه أسرة خالية متجاورة.

قلت: أعرف وأنا أطلب منك خدمة.

قال: أعطني قيمة الاشتراك الآن واترك لي بطاقتك ويمكنك أن تبيت.

وقام الى خزانة خشبية فأحضر منها مجموعة من النشرات وبدأ يحدثني عن رسالة بيوت الشباب. وأخرجت جنيهاً وبطاقتي وأعطيتها له.

تأمل صورتي بدقة وقارن بينها وبين وجهي. ثم قرأ البيانات المدونة في البطاقة. وتوقف عند خانة المهنة الخالية: أنت قلت إنك تعمل...؟

قلت: صحفي. لم أكن أعمل عند اخراج هذه البطاقة.

سألني عن المجلة التي أعمل بها فذكرت له اسم واحدة. فهز رأسه ببطء وهو يتأملني من جديد بنظرة فاحصة.

نهضت واقفاً وأنا أقول: اتفقنا اذن. سأذهب لاحضار حقيبتي.

- أين هي؟

قلت: تركتها في دكان.

سألني عن السبب فقلت انها كبيرة الحجم. ومددت اليه يدي مصافحاً وأنا أطلب منه بطاقتي.

قال: اتركها معي. ألست عائداً؟ ونظر الي نظرة غريبة.

قلت: أجل. وانطلقت الى الخارج.

كان الظلام قد حل أخيراً. سرت بضع خطوات ثم توقفت. واستدرت عائداً. ثم توقفت مرة أخرى وبعد لحظة تقدمت من باب المنزل وطرقته ففتح لي بنفسه.

قلت: لقد غيرت رأيي. سأبيت في مكان آخر عند أصدقاء وسأشترك فيما بعد.

قال: ولماذا لم تذهب الى أصدقائك منذ البداية. ما الذي جعلك تغير رأيك؟

قلت: لم أكن أريد أن أثقل عليهم.

أعطاني الجنيه والبطاقة وهو يضحك ثم أغلق الباب. وقطعت الطريق المظلم بخطوات سريعة وأنا أتطلع خلفي. وعندما بلغت الميدان اتجهت الى الطريق الذي قدمت منه متحاشياً المقهى. كان حلقي جافاً والعرق متجمداً على وجهي. وشعرت برغبة جارفة في حمام بارد وكوب من الشاي.

بحثت عن مكتب المحامي الذي تركت به حقيبتي فأخذتها. وسألته عن فندق رخيص. فدلني على واحد يحمل اسم «ماجستيك».

تركت شارع النيل وانحرفت في شارع جانبي الى اليسار. وتوقفت ريثما نقلت الحقيبة الى يدي الأخرى. ثم استأنفت السير وبعد خطوات ألفيت نفسي في سوق مزدحم.

تجاوزت سينما متواضعة من دور الدرجة الثالثة. وعثرت على الفندق الذي وصفه لي المحامي. قال لي صاحبه ان السرير في الليلة بثلاثين قرشاً. وضعت حقيبتي على الأرض وقلت إني لن أدفع سوى عشرين. واتفقنا في النهاية على خمسة وعشرين.

نادى صاحب الفندق شخصاً يدعى محموداً. فأقبل علينا شاب أسمر يرتدي جلباباً حمل حقيبتي. تبعته على درج متآكل عبر ثلاثة طوابق شبه خالية. وولجنا شقة في الطابق الرابع كان بابها مفتوحاً على مصراعيه.

عبرنا صالة بها مائدة وكنبة الى حجرة مفتوحة تضم سريرين ومائدة معدنية ودولاباً صغيراً بمرآة. كانت أغطية الفراش قذرة فطلبت من محمود تغييرها. وفتحت حقيبتي وأخرجت منها منامة وملابس داخلية نظيفة ومنشفة. ثم ذهبت الى الحمام. وعندما عدت الى الحجرة وجدت محموداً يغير الملاءات فطلبت منه أن يحضر لي شاياً.

جلست على حافة الفراش. كان جو الحجرة خانقاً. واكتشفت أن الدولاب وضع في مدخل شرفة صغيرة. فقمت اليها وفتحت بابها بصعوبة.

جاء محمود بالشاي فارتشفته على مهل. وأشعلت سيجارة ثم أطفأت النور واستلقيت على الفراش.

نهضت في الصباح ينتابني شعور قديم بعدم الرغبة في الاستيقاظ. اغتسلت وارتديت قميصاً وبنطلوناً. وانتعلت صندلاً ثم وضعت قبعة من القماش على رأسي. وغادرت الفندق حاملاً كتاب «ميكل انجلو» في يدي.

سرت في حذر بين أكوام التراب والقاذورات حتى بلغت شارع النيل. ابتعت الصحف واخترت مقهى ظهر به ركن للساندوتشات فجلست في مدخله.

أحضر لي جرسون غاضب ساندوتشاً رديئاً من الفول وكوباً من الشاي لا طعم له. أشعلت سيجارة وطلبت فنجاناً من القهوة. وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتي أحسست بعده بشيء من الدوار.

ناديت على الجرسون ليأخذ حسابه. أعطيته عشرة قروش فرد لي اثنين. سألته عن السبب فقال ان ثمن القهوة ثلاثة قروش. أعطيته قرشاً هبة فاحتفظ به في يده وهو يتطلع اليه في استهانة. ورفع بصره الي وقد ازداد وجهه غضباً. أعطيته قرشاً ثانياً وغادرت المقهى.

مشيت بتثاقل أبحث عن تليفون في مكان غير مكتب المحامي. وأرشدني أحد الباعة الى مكتب التلغراف. طلبت من الموظف أن يصلني بشركة المقاولات التي

تشترك في المشروع. وسألت عن نبيل فرد علي شخص قال انه صديقه وأن نبيلاً غير موجود الآن. قلت له اني أحمل اليه رسالة من أمه. وأعطيته عنوان فندقي ليتصل بي.

حاولت عبثاً عبور الطريق الى الرصيف الآخر المطل على النيل. فلم تكن حركة المرور تهدأ لحظة واحدة. وتتابعت أمامي السيارات المختلفة من عربات الركاب الضخمة الى الشاحنات وسيارات الركوب الخاصة. وكانت جميعاً تحمل لافتات القطاع العام أو السد العالي.

تمكنت أخيراً من العبور. وتمهلت بجوار فتاة أوروبية في بلوجين أزرق وبلوفر أخضر بلا أكمام أبرز استدارة كتفيها وضغط على صدرها البارز القوي. كانت قدماها متسختين في صندل أبيض تبرز منه أظافر مطلية في عناية بلون قرمزي لامع. وكانت تضع نظارة سوداء كبيرة أحاطت بها بشرة خوخية. والى جوارها وقف رجل بدين ملتح يرتدي شورتاً ويحمل كاميرا. وكانا مستغرقين في تأمل الشاطيء المقابل الذي لم يكن يبدو منه سوى الجبال والرمال.

لمحت الفتاة طابوراً من الجمال يتحرك بعيداً بين هضبتين فصاحت بالفرنسية: فوالا رينيه.. شامو!.

والتفت رينيه على الفور وقد استعد بالكاميرا ليصور المعجزة المصرية.

بحثت عن النادي الذي حدثني عنه صبري فوجدته بناء دائرياً من طابقين يمتد داخل النهر. اجتزت معبراً خشبياً أوصلني الى مدخل الطابق الأول. وصعدت درجاً حلزونياً الى الطابق الثاني الذي انتشرت به الموائد وأحاطت به أبواب زجاجية عريضة تؤدي الى شرفة دائرية.

وجدت جانباً من الظل في الشرفة تهب عليه نسمة خفيفة من الهواء. وأحضر لي صبي ممشوق القوام زجاجة بيرة. ملأت كوباً ارتشفته وأنا أتأمل قارباً يتقدم على مهل فوق المياه وقد انتصب شراعه ناصع البياض معترضاً الهواء بقوة.

أعدت ملء كوبي وأنا أتابع الصبي يتحرك بين الموائد الخالية يسوي أغطيتها ومقاعدها. لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة وبدا وجهه شاحب البياض تحمل عيناه نظرة متعبة سأمانة.

استرخيت في مقعدي الواطيء الذي صنع من القش. وأسندت قدمي الى الحاجز الحديدي المطل على النيل. وفتحت الكتاب الذي تجعد غلافه بتأثير العرق الناتج عن ضغط يدي.

الرغبة الملتهبة في رسم الجسم العاري. ألا يكون القديسون عراة عندما يصلبون؟ وقالوا ان أجسادنا قبيحة مليئة بالبثور والافرازات. وقال انه يجب أن يجسدها بالصورة التي خلق بها الرب آدم.

لم يكن الجانب المواجه لي يضم شيئاً آخر غير المرتفعات الصخرية التي غطتها الرمال. ولكني تبينت ما يشبه درجاً ضيقاً يصعد في الجبل الى فوهة مظلمة قرب القمة.

أشعلت سيجارة وطلبت من الصبي زجاجة أخرى من البيرة. واحتسيت كوبي وانا أصعد بعيني المرة بعد الأخرى فوق درجات السلم الرملي حتى الفوهة المظلمة.

شق بسكينة صدر الجثة التي التفت من رأسها الى قدمها في ملاءة الدفن. فلا غنى عن معرفة جسم الانسان من الداخل. والكائنات البشرية يجب ألا تخترع. وكل قطعة جديدة من النحت يجب أن تتخطى التقاليد القائمة. وأدرك أن الأمر سيكلفه حياته كلها.

تناولت طعام الغداء في الشرفة. وتلاشى الظل فانتقلت الى الداخل. وأحضر لي الصبي مزيداً من المياه المثلجة وفنجاناً من القهوة. ثم دفعت حسابي وغادرت النادي.

كانت أرض الطريق ملتهبة تسللت حرارتها الى قدمي من خلال الصندل. ومشيت بجوار الشاطيء. كان الرصيف الآخر يمتد بحذاء مسجد حديث ارتفعت شجرة في فنائه. وتطلع نحوي رجل في قميص وبنطلون وقف مرتكناً الى جدار المسجد. لم يكن هناك من انسان غيره على مرمى البصر. وبدت المدينة هاجعة.

مررت بربيع صغير من العشب الأخضر ارتمى فوقه فتى وفتاة أجنبيان وقد بسطا سواعدهما على مداها. وانحرفت في أحد الشوارع الجانبية المؤدية الى البلدة القديمة. تطلعت خلفي لكني لم أر أحداً.

مضيت من أمام عشرات المحلات الصغيرة التي تبيع كل شيء سوية من الورق الى الملاءات والطعمية. لمحت مبنى جمعية تعاونية بواجهته الخضراء التقليدية المؤلفة من عدة أبواب فولجته. ودفعت عند المدخل ثمن أربع قطع من الصابون وأخذت ايصالاً قدمته الى أحد الباعة. فأحضر كيساً رص فيه الصابون. ورأيته يسقط قطعة منه على الأرض في الفراغ الفاصل بينه وبين طاولة البيع. ظننتها زائدة. وعندما وصلت الفندق اكتشفت أني عدت بثلاث قطع فقط.

أخذت حماماً ثم تمددت على الفراش بملابسي الداخلية وأشعلت سيجارة. كان جو

الحجرة خانقاً رغم أني فتحت النافذة. ورحت في النوم ثم استيقظت على صوت محمود يناديني. فتحت عيني لأجد شاباً طويلاً أسمر ذا شارب كث يقف في وسط الحجرة.

اعتدلت جالساً. وقال الشاب ان اسمه عويس وانه صديق نبيل.

غادرت الفراش وأنا أشعر بدوار. وطلبت منه أن يجلس. فجلس على حافة الفراش دون أن يرفع بصره عن ساعدي وساقي العاريتين.

جذبت منشفتي وملابسي وانطلقت الى الحمام. والتقيت بمحمود في الصالة فطلبت منه أن يحضر لنا شاياً.

قال لي عويس عندما عدت الى الحجرة أنه حضر ليأخذني الى نبيل. سألته عن الوسيلة التي سنذهب بها فأجاب سيراً على الأقدام.

قلت: الى السد سيراً على الأقدام؟

قال: كلا. لن نذهب الى السد. المنزل قريب من هنا.

قلت: كنت أظن نبيلاً يسكن في موقع العمل.

قال: كان في الأول. ثم انتقل الى أسوان من شهرين.

شربنا الشاي ثم غادرنا الفندق. ومضينا في حواري ضيقة قذرة. ثم ولجنا منزلاً حديث البناء أقيم على طراز البيوت القديمة.

طرقنا باباً في الطابق الثاني والأخير. وفتح لنا شاب ممتلىء وسيم أبيض البشرة قدرت أنه نبيل.

قادنا نبيل الى صالون أنيق تزينه ديكورات خشبية وشلت شرقية. واستأذن منا عويس وغادر المسكن. وقال نبيل وهو يجلس أمامي ان عويس يسكن في المنزل المجاور وهو الذي أقنعه بالانتقال الى هنا لأن المسكن من أملاك عمه.

أعطيته خطاب أمه وقلت له إني التقيت بها عند جيران لها من أقاربي. سألني ان كنت التقيت بزوج أمه فأجبت بالنفي.

فض الخطاب واستغرق في قراءته. ورحت أتأمل رفاً مزدحماً بالكتب يحمل معظمها اسم عويس بحروف ذهبية. علق نبيل بعد أن فرغ من الخطاب بأن عويس سيأخذ الليسانس بعد سنتين. أما هو فقد فشل في الحصول على التوجيهية لكنه يذاكر الآن من جديد.

عاد عويس يحمل مروحة كهربائية. ولمحت ثلاث قطط صغيرة بيضاء تحاول

اقتحام ثلاجة وضعت بجوار الباب. فتح عويس الثلاجة وأخرج اناء من اللبن للقطط وهو يقول: عذبتنا هذه القطط فهي لا تتركنا عندما نريد أن ننام.

قال نبيل: في السد لا يمكن أن ترى قطة واحدة. وقد كدت أجن من الوحشة في البداية وهذا ما جعلني أترك عنابر الموظفين الى أسوان.

قال عويس ان السد ساعد الكثيرين على بناء حياتهم. وإن ابن عمه كان طالباً في الكلية الحربية وفصل فجاء للعمل هنا.

لم تصنع المروحة شيئاً للحرارة الشديدة. فاقترح نبيل أن نخرج الى مكان على النيل. واخترقنا الأزقة الى الشارع الرئيسي.

رأيت امرأة زنجية اقتعدت الأرض أمام كوم من الفول السوداني في اناء من الصاج الأبيض. كانت تحيط رأسها بطرحة بيضاء ويتدلى من أنفها حلق نحاسي. أعطيتها قرشاً فملأت كوزاً صغيراً من الصفيح أفرغته في كفي. فاشتريت منها بقرشين آخرين لنبيل وعويس.

صادفنا واحدة مثلها بعد خطوات وأمامها اناء الصاج الأبيض المليء بالفول. وقال نبيل انهن يهجرن نيجيريا سيراً على الأقدام ووجهتهن الكعبة. ثم يتساقطن في الطريق عاجزات عن الاستمرار.

مررنا بمحطة اتوبيس تجمع عندها عدد كبير من السيدات الروسيات.

قلت: حتى الآن لم أر مصرية واحدة.

قال نبيل: المصريات لا يظهرن الا في الشتاء عندما تأتي المدرسات.

قال عويس: هناك بنت أو بنتان في المحلات الجديدة.

تحولنا الى اليسار في طريق صاعد. وولجنا مكاناً مؤلفاً من عدة مدرجات من الخضرة. جلسنا الى مائدة على حافة احدى هذه المدرجات. وأصبحنا نشرف على المدينة. وكانت الشمس قد اختفت مخلفة غيمة حمراء فوق الجبل.

أحضر لنا الجرسون زجاجات البيرة. وولج المحل شابان انتحيا ركناً بعيداً. شممت رائحة الحشيش النفاذة تتصاعد من سيجارة في يد أحدهما. وقال عويس ان الشاب يعمل ملاحظاً بالشركة. وقال نبيل انه رأى الحشيش لأول مرة في حياته هنا.

قلت: والبنات؟

قال: لا توجد لأحد منا فرصة. هناك كلام عن زوجات بعض السائقين في حي اسمه السيل لكنه مجرد كلام.

قال عويس بفخر: نبيل ليس ممن يعبثون.

قال نبيل: الفراغ الآن مشكلة لم تكن موجودة في المرحلة الأولى من العمل.

قلت: لكنك تستطيع النزول الى القاهرة عندما تريد.

ظهرت في عينيه نظرة قاسية لم ألحها من قبل. وقال: في أول السنة نزلت الى القاهرة ووصلت المنزل في الثانية صباحاً. ولم يفتح لي أحد وفيما بعد قالت لي ماما انهم جميعاً كانوا قد تناولوا حبوباً منومة. ولم أنزل من يومها.

قلت: كانت والدتك تظن أني أستطيع الاقامة معك.

رد عويس على الفور: هذا صعب الآن. فالشقة ضيقة. وكان الأمر يختلف لو كان ما زال في الموقع.

قال نبيل: هناك استراحات في الموقع مخصصة للزوار والصحفيين فلماذا لا تجربها.

قلت اني سأحاول.

غادرنا المحل في منتصف الليل. وكان طريق النيل هادئاً خالياً من المارة. وفوق شريط من الخضرة يمتد بطوله في الوسط استلقى عشرات من عمال التراحيل الذين يعملون في بناء الكورنيش.

مشينا على حافة الافريز عند أقدامهم. كانت أجسادهم متلاصقة تعرى بعضها فتبدت أجزاؤها الحميمة للعيان.

افترقنا بالقرب من فندقي. وصعدت الى حجرتي فأخذت حماماً. ثم أخرجت قلماً وورقة وكتبت قليلاً. قرأت ما كتبته ثم مزقت الورقة.

مشى بين الصخور يطرقها بمطرقته بحثاً عن الشقوق والعيوب والفقاعات. كانت القطع الصلبة تعطي صوتاً كرنين الأجراس أما المعيبة فكان رجعها بارداً. وكانت هناك صخرة تعرضت للجو فترة طويلة فتكون لها جلد سميك. وبالمطرقة والأزميل أزال الغلاف ليصل الى المادة النقية من تحته.

شعرت بحركة عند باب الحجرة والتفت فرأيت محموداً يراقبني. سألني ان كنت أحتاج الى شيء فأجبت بالنفي. قمت فأغلقت الباب وأطفأت النور. واستلقيت على الفراش أدخن في الظلام.

استيقظت متأخراً في الصباح. ورأيت وجهي في المرآة ممتلئاً بالبثور من أثر

البعوض. وعندما جاءني محمود بالشاي سألته عن وسيلة لغسل ملابسي. فقال ان هناك غسالة تأتي الى الفندق كل يوم. جمعت ملابسي القذرة على الفراش وانطلقت الى الخارج.

سرت الى ميدان المحطة فلم أجد أتوبيساً واحداً. وقال لي الناظر في تجهم انه لا توجد سيارات الآن الى الموقع. سألته عن سيارات الشركة فقال انه مسؤول فقط عن التابعة للهيئة. أما الشركة فسياراتها تقف عند الجمعية.

عبرت الميدان الى شارع السوق وسرت حتى الجمعية. وجدت أمامها عدداً من السيارات الكبيرة الخالية بلا سائقين. وعثرت على أحدهم في مقهى قريب فقال لي انهم لا يتحركون قبل ثلاث ساعات. واقترح علي أن أذهب الى كشك الشركة في الناحية الأخرى من الميدان.

عدت أدراجي وأنا أمسح العرق عن وجهي. عبرت ميدان المحطة مرة أخرى. سرت مسافة بحذاء النيل حتى بلغت كشك الشركة المطلي باللون الأصفر. كان به موظف شاب يقرأ في أحد كتب الجامعة. وقال لي انه لا توجد أية سيارات ذاهبة الى الموقع الآن. ونصحني بالعودة الى موقف الميدان.

درت عائداً بتثاقل والعرق يسيل من مرفقي. وألفيت الميدان خالياً من السيارات تماماً. ومرت بي عربة حنطور اضطجعت فتاتان أوروبيتان في مقعدها الخلفي. كان وجهاها شديدي الاحمرار أو هكذا خيل لي. فقد كان كل شيء أمامي مصطبغاً بهذا اللون.

شعرت بدوار وجفاف في حلقي. ولجأت الى بقعة من الظل تكونت أمام محل حديث لبيع الملابس. ولمحت من الزجاج احدى البائعات فولجت المحل. وقفت أمام فتاة سمراء ذات عينين واسعتين. تأملت عينيها فابتسمت لي بحذر.

قالت: أي خدمة؟

تطلعت حولي فوجدتها تبيع قمصاناً. اشتريت واحداً وغادرت المحل. ثم ابتعت عدة ساندوتشات من الجبن والبسطرمة. وعدت الى الفندق بصداع حاد.

صعدت الدرج بجهد. وبدأت أخلع قميصي على باب الحجرة. ورأيت فوق المائدة ورقة مثبتة بكوب زجاجي سطر عليها بخط رديء: «الغسالة لم حضرَة اليوم».

تمددت على الفراش بالبنطلون وعيني على الشرفة.

ضربة الأزميل العشواء في الصخر تحطم بلوراته. والبلورة الميتة تدمر النحت. وتعلم كيف ينحت

قطعاً ضخمة دون أن يسحق البلورات. فالصخر هو السيد وليس الرجل. القوة والمتانة في المادة الصماء لا في الذراعين والأدوات. واذا ما ضرب بعنف وجهل فقدت المادة الغنية الدافئة توهجها وماتت. وأمام التعنيف والهرولة تلتف الصخرة بنقاب حجري صلب. من الممكن تحطيمها بالعنف ولكن يستحيل ارغامها على أن تعطي. فهي تستسلم للحنان وتزداد تحت تأثيره اشعاعاً ولمعاناً.

استيقظت على لدغات البعوض والعرق والصداع. تناولت الساندوتشات وبدأت آكل. وخلعت ساعتي التي بللها العرق ولم تكن قد تجاوزت الخامسة.

قمت الى الشرفة متلمساً شيئاً من الهواء. لكن رائحة خانقة عفنة كانت تهب من خارجها. انحنيت فوق السياج فرأيت فضلات المجاري تغطي فناء المنزل الخلفي.

خرجت الى بهو السلم وناديت على محمود ليحضر لي الشاي. ودخلت الحمام ووقفت عارياً تحت الدش عشر دقائق. ثم عدت الى الحجرة وتناولت مفكرتي. كان العرق قد بللها وأتلف بعض صفحاتها. فجلست في الصالة وبدأت انقل ما تلف في صفحة نظيفة.

أحضر لي صبي القهوة والشاي. وشعرت بدوار من أثر الحر فقمت أتمشى بين الصالة والغرفة. ثم عدت الى مقعدي وواصلت الكتابة. وطفق العرق يسيل على ساعدي فيبلل الورق. وأخيراً قمت فاستحممت مرة ثانية. وعندما عدت الى الصالة وجدت محموداً قد سكب كوباً من الماء على الصفحة الجديدة التي انتهيت من نسخها. فقررت الخروج.

انطلقت الى نادي التجديف. كان به بعض الشبان الذين تمددوا في خمول على مقاعد الشرفة. اخترت مقعداً في مواجهة الشاطيء المقابل واضطجعت فوقه مسند قدمي الى قضبان السياج.

أحضر لي الصبي زجاجة بيرة. وملأت كوباً ارتشفته وأنا أتأمل الفجوة المظلمة في الجبل والدرجات الضيقة المؤدية اليها وسط الرمال.

كانت محطة الجيزة قد أخليت لنا تماماً، وهبط عليها سكون شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التي تقيدنا جميعاً وفحيح القاطرة التي تنتظرنا، وفي مدخل البناء الذي تضيئه مصابيح باهتة كانت بضع رؤوس تتطلع بفضول ولا تجسر على الاقتراب، وعندما حانت اللحظة أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز في أيدينا، وصعدنا العربة المظلمة بلا مصابيح أو مقاعد، وظللنا وقوفاً طول الليل اذا أراد

أحدنا أن يجلس جر الآخرين معه ووقعوا على وجوههم، واذا أراد أن يتبول سحبهم معه الى الركن حيث يحفون به عن يمين وعن يسار، والقطار يترك القاهرة وينطلق الى الصعيد في خط مستقيم، ومصر تمتد من أدناها الى أقصاها من فتحات صغيرة تعترضها القضبان كما في عربات الكلاب، والشريط الأخضر يضيق باستمرار وتزحف عليه الرمال، وفي الفجر يرتفع قرص الشمس الأحمر كبيراً فوق خضرة نائمة، والمنظر يتكرر دائماً، المباني الطينية والأنوار الخافتة، ثم المحطة بمبان متقاربة حولها، ومقهى يحتسي الناس فيه الشاي بهدوء ودعة، يتابعون في غير مبالاة القطار المظلم الذي لا يتوقف، ثم السجن في كل مدينة، كتلة صفراء من الظلام بعيون متقاربة صغيرة، يقوم في نفس الاتجاه دائماً، وتدخله الشمس من نفس المكان في كل مدينة، وتقع على جدران الزنازين في نفس الموعد، دون أن تفلح في تبديد البرد الجاثم.

(٢)

بدلا من أن ينطلق الأتوبيس في الطريق المؤدي الى الخزان اتجه يساراً. مررنا بمجموعة من الجمعات الصفراء في حي ذي طابع شعبي. ثم انطلقنا في الصحراء بين صفين من أعمدة النور والتليفون.

ظهرت مجموعة من المساكن الحديثة في الأفق. وأبطأ السائق متسائلاً عما اذا كان أحد يريد النزول في «كيما». وعندما لم يرد أحد ضاعف من سرعة السيارة. ومررنا بين عشرات من الجمعات الأنيقة البنية اللون التي ظهرت أجهزة التكييف في واجهاتها. كانت مصفوفة جميعاً بصورة متوازية في زاوية مائلة بالنسبة للطريق.

تلاشت هذه العمارات فجأة كما ظهرت. وامتدت الصحراء أمامنا الى ما لا نهاية. وتتابعت هياكل الصلب العالية لأبراج الكهرباء على مسافات متقاربة.

أشرفنا بعد ربع ساعة على أفنية مسورة تضم صفوفاً من الشاحنات الجديدة. كان لونها الأخضر يلمع بقوة في الشمس. ودرنا برابية صغيرة عليها لافتة تعلن عن موقع للرمال الخشنة. كانت الرمال مكومة خلف اللافتة في تلال عالية.

برزت تلال من الصخور على جانبي الطريق. كانت متباعدة في البداية. وما لبثت أن تقاربت وازدادت ارتفاعاً. وأصبحنا نسير فيما يشبه الممر. وبدا أننا نجتاز منطقة صلبة صمدت لأعمال الحفر والتفجير.

أبطأت سيارتنا عندما انتهى الممر. فقد اعترضتنا شاحنة فارغة كانت تمضي ببطء. وانتقلت سيارتنا الى يسار الطريق لتتجاوزها. وعندما مررنا بجوارها رأيت جانبها محطماً ومقدمتها منزوعة الغطاء.

استوقفنا رجال البوليس الحربي ثم تركنا نمر. وبرزت أمامنا مئذنة جامع وتحتها جموع من البشر لا حصر لها. وأبصرت باللوحة الشهيرة التي كانت تحدد يوماً بيوم ما تبقى على التاريخ المحدد لانتهاء المرحلة الأولى. كانت اللوحة الآن تحمل عبارات الشكر للعاملين والدعاء لهم بالتوفيق في المرحلة الثانية. وكانت الكتابة باللغتين العربية والروسية بتوقيع كل من عبد الناصر وخروشوف.

الصحف تصل خلسة وتقرأ خلسة، والصورة تخاطب بناة السد، بقي ٣٧٥ يوماً على تحويل مجرى النيل، بقي ٣٠٠، بقي ٢٦٠، وخلف السور الحجري والأسلاك الشائكة كانت الصحراء محيطة من كل الجهات، لكن قامته الفارغة كانت تتراءى عندها كل صباح، ماداً البصر الى أقصاه، كأنما بوسعه أن يرى، وقال انه يتمنى أن يشهد ذلك اليوم، لكنه لم يتمكن، .

جاوزت سيارتنا مبنى حديثاً من طابق واحد أشبه بمستشفى. وانحنت في شارع جانبي. وتقدمت بين صفين من الأبنية الحجرية أقيمت على قاعدة من الصخور مرتفعة عن الأرض بمقدار قامة انسان. كانت جميعها تتألف من طابق واحد يغطيه سقف خشبي فبدت أشبه بالثكنات.

أوقف السائق السيارة وغادرها فتبعه الركاب. وضعت قبعتي على رأسي وانطلقت خلفهم.

عدت أدراجي الى الطريق الرئيسي الذي تراكم التراب على جانبيه. سرت على اليمين. ومررت بمبنى صغير من طابق واحد سويت الأرض أمامه ورشت بالمياه وزينت ببضع أصص من الزهور. كانت هناك لافتة تعلو المبنى تعلن عن مكتب المباحث العامة.

ابتعدت بقدمي الى وسط الطريق لأتجنب التراب المتراكم على الجانبين. لكن سيارة مسرعة خلفي أجبرتني على العودة وسط الأتربة.

توقفت عن المسير وتطلعت خلفي. كان هناك طابور من الشاحنات يقترب مني تتقدمه واحدة برتقالية اللون ترتفع مدخنتها من أمامها كالعلم. وعندما مرت بي ألفيت اطاراتها تتجاوز قامتي ارتفاعاً.

انتقلت الى الجانب الأيسر من الطريق لأسير في مواجهة السيارات. وسرت حذاء فناء مسور ازدحم بصناديق خشبية كبيرة تحمل حروفاً باللغة الروسية. انتهى ناء ببائع طعمية وباذنجان اقتعد الأرض. ووقف بجانبه بائع آخر أمام اناء يتصاعد البخار لمحت به حبات البليلة.

شعرت بجفاف شديد في حلقي. ولمحت منصة صغيرة من الخشب على بعد خطوات بها ألواح من الصفيح. وحولها تجمع عدد من العمال الذين يرتدون القمصان والسراويل وآخرون من الصعايدة في الجلاليب والعمائم. وكان بعضهم يشرب الشاي الأسود من أكواب صغيرة والآخرون يشدون أنفاس الجوزة وقد اتكأوا على ماسورة سوداء من الصلب.

انضممت اليهم. وأعطاني البائع كوباً من الشاي حملته الى الماسورة فاستندت الى جدارها. كان قطر الماسورة يرتفع الى مستوى خصري تصدر عنه خشخشة خافتة متصلة. واضطررت بعد لحظة الى الابتعاد عنها بسبب سخونتها.

انتهيت من كوب الشاي فأعدته الى البائع وأعطيته قرشاً. أشعلت سيجارة وجذبت منها أنفاساً بلا مذاق لأنها كانت شديدة الجفاف. وتتبعت الماسورة بعيني فرأيتها تمتد بعيداً وتختفي أحياناً وسط أكوام من التراب والصخور ثم تظهر من جديد في مكان آخر.

نفضت صندلي من التراب واستأنفت السير مقتفياً أثر الماسورة. وتوقفت لحظة حتى مرت سيارة جيب ذات طلاء أصفر. ثم اتجهت الى سياج حديدي تجمع عنده عدد من الناس يوحي شكلهم بأنهم زوار. كانت بينهم سائحة أجنبية وضعت على رأسها غطاء مضحكاً وأسندت الكاميرا الى عينيها. ومال عليها شاب نوبي يشرح لها شيئاً وهو يشير الى أسفل.

اقتربت من السياج فوجدته يطل على مساحة واسعة على عمق بعيد. وظهر في قاعها عدد من الهياكل الحديدية على شكل دوائر ترتفع منها سلالم حلزونية ضيقة الى مستوانا. وحول الهياكل وفوق السلالم كانت حبات كبيرة من الرمال دائبة الحركة. والى يمين هذه المساحة امتدت قناة هادئة المياه. والى اليسار كان هناك مبنى مرتفع في قمته هيكل أحمر اللون على شكل جواد مستقيم الخطوط.

انتبهت الى شخص أنيق ذي ملابس كاملة وقف الى جواري مباشرة. كان يغطي حذاءه بغطاء من الجلد يصعد الى ركبتيه فيحميه من التراب. والى جواره وقف شاب في قميص وبنطلون يتحدث مشيراً الى المعالم المختلفة حولنا وهو يردد كل برهة: «شوف سيادتك». وفهمت من حديثه أننا نطل على محطة الكهرباء وأن الدوائر الحديدية ستحتوي التوربينات. وكانت القناة هي المجرى الجديد للنيل أما المبنى المرتفع فهو بوابات الانفاق التي تعترضه.

أمسكت حافة السياج بيدي وانحنيت الى أسفل. كان هناك طريق مرصوف

يتلوى صاعداً من قاع المحطة ويختفي وراء مرتفع على يميني. وتحت قدمي مباشرة انحدر حائط من الأسمنت المستوي السطح الى قاع المحطة بصورة شبه عمودية.

شعرت بشخص يدنو مني. والتفت لأجد صعيدياً باللفافة التقليدية حول رأسه يرفع طرف جلبابه الأبيض ويدسه في سرواله. ثم مرق من تحت السياج واستدار يواجهني وقد أصبحت قدماه على حافة الهوة. تلمس بقدميه ماسورة عمودية تمتد مع الحائط الى القاع. ثم انحنى وأمسك بها بكلتا يديه وبدأ يهبط وهو يتطلع الي باسماً.

تابعته ببصري وهو يبتعد ويتضاءل. ولم أعد أتبين ملامح وجهه وان كنت ما زلت أرى جسمه حتى صار نقطة بيضاء نائية. واستقرت النقطة أخيراً في القاع وسرعان ما تلاشت بين مئات النقط الأخرى.

ابتعدت عن السياج وسرت بجواره حتى أصبحت هوة المحطة على يميني وبوابات الانفاق على يساري. وأشرفت فجأة على حافة منخفض امتلأ بالصخور المبعثرة وتجمعت فيه عدة شاحنات فارغة. كانت هناك حفارة ضخمة احتمى بظلها عدد من العمال. وكانت ذراعها الطويلة مدلاة واستقرت كباشتها الكبيرة على الأرض. وفوق الكباشة وقف أحد العمال يعالج شيئاً في طرف الذراع الذي ينتهي ببكرة.

كانت الناحية المواجهة لي من المنخفض مفتوحة تتجه اليها مقدمات الشاحنات. ووراءها امتدت سلسلة من التلال الصخرية التي لم يمسها أحد بعد. أما جوانب المنخفض الأخرى فكانت تحمل آثار المرحلة الأولى بوضوح.

بحثت عن الماسورة التي كنت أقتفي أثرها فوجدتها قد اختفت من جديد. تلفت حولي أتأمل الأرض بعناية. وسمعت صوتاً يقول:

- ماذا ضاع منك؟

التفت خلفي فرأيت سعيداً يصوب الي كاميرا ويضغط عليها باصبعه ثم ينحيها عن وجهه ويدير الفيلم. تقدم مني فاتحاً ذراعيه لنتعانق. وكنت قد مددت يدي اليه فتصافحنا.

هز يدي بقوة وهو يعجب للمصادفة التي جمعتنا بعد سنوات طوال. وسألني عما جاء بي فقلت:

- ما الذي جاء بك أنت؟

دفع صدره الى الوراء قائلاً: أنا أمري مفهوم. السد العالي يستقبل الفيضان.

تقرير مصور من مواقع العمل. قضى سعيد عبد الرحمن أياماً طويلة شارك فيها العاملين حرارة الصيف ومتاعبه. فهمت الآن؟

تطلع الي فجأة وقد بدا كأنه تذكر شيئاً. ثم صوب أصبعه الى صدري قائلاً: أنت كنت...

وأومأت برأسي.

هز رأسه في وجوم ثم استعاد مرحه وقال: أما أنا فقد أصبحت أصغر مدير تحرير في الصحافة المصرية. وتزوجت وأنجبت ولدين. وصار عندي سيارة نصر ١٣٠٠ سأدفع آخر أقساطها الشهر القادم.

دقق النظر الي مرة أخرى ثم قال: ما زلت كما أنت لم تتغير.

قلت: أما أنت فقد امتلأ وجهك وترهلت. وشبكت ساعدي في ساعده مضيفاً. تعال نبحث عن الماسورة.

- أي ماسورة؟

- ماسورة ضخمة هنا ممتدة في كل مكان لا أدري هل هي عدة مواسير أم ماسورة واحدة.

قال: آه هذه غالباً مواسير التجريف التي تنقل الرمال الى السد وهي عدة مواسير متصلة ببعضها. ولا تنقل سوى الرمال الناعمة.

سرنا ونحن نتبادل الذكريات. ومررنا بجندي بوليس حربي ذكرنا بحرس الجامعة.

قلت: هل تذكر الليلة التي قضيناها في قسم البوليس؟

انفجر ضاحكاً وقال: وجعلنا ندق الجدران ونصيح اننا محتجزون بلا قانون وأننا نريد النيابة. تصور.

تذكرنا أستاذ القانون الدستوري الذي كان مصراً على الاحتفاظ بطربوشه رغم أن الثورة ألغت الطرابيش. وكان يحاضر بلهجة فخمة ضاغطاً على مخارج الألفاظ ونهايات الجمل كأنه يتكلم في البرلمان.

قال سعيد: لقد رأيته أخيراً بلا طربوش ثملا مهدما.

بلغنا مساحة واسعة من الأرض تتدرج في مستويات على الجانبين. وكان بعض هذه المستويات يتألف من أكوام الصخور وبعضها الآخر من الرمال. وفوقها

انتشرت عشرات الشاحنات والآلات المتحركة الأخرى.

توقف سعيد بعد قليل ودق الأرض بقدمه قائلاً: نحن الآن فوق جسم السد. طوال آلاف السنين كان النيل يجري هنا.

سرنا مسافة على جسم السد. وكانت السيارات المحملة بالرمال والأتربة تأتي في اتجاهنا ثم تنحرف الى اليسار وتهبط الى أحد المستويات الجانبية. وأعلن سعيد بعد فترة من الوقت أننا أصبحنا على الشاطىء الغربي للنيل. وأشار الى مبنى بعيد من عدة طوابق قائلاً أنه مقر الهيئة حيث يوجد الوزير المصري وكبير الخبراء السوفيات.

كنا نشرف على طريق مرصوف يمتد أفقياً الى مبنى الهيئة. وأدركت أننا نقف في نفس المكان الذي بلغته بالسيارة منذ يومين وعاقني التفجير عن اجتيازه.

تحولنا يساراً وانطلقنا وسط الأتربة والصخور. وتكاثرت الأخيرة فجعلت المسير صعباً. لمحت الماسورة السوداء الضخمة فاعتليتها واقتدى بي سعيد. ومشينا فوقها يأتينا صوت ارتطام الرمال بجدرانها.

بدأت أشعر بدوار من شدة الشمس. وتوقفت أجفف عرقي. ومر بنا روسي يرتدي خوذة معدنية ويتدلى من كتفه ترموس كبير الحجم.

قلت: يا سلام لو كان لدينا الآن كوب من الشاي أو زجاجة كازوزة.

قال سعيد: كل شيء سيأتي في وقته. لا تتعجل. والقى نظرة على ساعته ثم أضاف: هناك تفجير بعد نصف ساعة وسألتقط بعض الصور.. هل تأتي معي؟

قلت: لا بأس. ما دمت سأشرب شيئاً.

قفزنا على الأرض عندما أوشكت الماسورة على الاختفاء خلف كوم من الأتربة. ومررنا بمجموعة من العمال انحنوا بأجهزة اللحام أمام شبكة من الأسلاك المعدنية. ثم اتجهنا صوب كشك خشبي يعلو مرتفعاً قريباً.

سألني سعيد عن المدة التي أزمع قضاءها في المنطقة.

أجبت: الى أن تنتهي نقودي.

قال انه لا يتكلف شيئاً لأنه يقيم في استراحة تابعة للشركة. ولكنه سيعود القاهرة فوراً بعد أن يسجل استقبال السد لمياه الفيضان.

رأينا علماً أحمر صغيراً يرتفع عن الأرض بشبر وقد ثبت اليها بعمود تسنده

ثلاثة قضبان مائلة ودائرة من الأحجار الصغيرة. كان العلم يحمل رسماً يتألف من جمجمة وعظمتين متقاطعتين. وكان ثمة أعلام مماثلة حولنا تمتد منها خراطيم زاهية الألوان.

بلغنا المستوى الذي يعلوه الكشك. وكان يقف خارجه شاب أسمر مدكوك البنية كشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر. كان يتطلع الى منخفض هائل في الناحية الأخرى بدت في قاعه شاحنات وحفارة وعدد من العمال.

أدار الشاب بصره فرآنا. وتأملنا في غير اهتمام حتى لمح الكاميرا المعلقة في كتف سعيد.

ابتدرنا عندما دنونا منه: الأساتذة صحفيون؟

أومأ سعيد بالايجاب. فقال ان اسمه فوزي وأنه مهندس تفجير. ورآني أتطلع الى داخل الكشك فدعانا الى الدخول.

بدا داخل الكشك الذي كان بمنأى عن الشمس مشبعاً بالرطوبة المنعشة. جلسنا على مقعدين يواجهان المكتب الذي استوى الشاب خلفه. وصاح منادياً على شخص يدعى حسين وهو يسألنا عما نحب أن نشرب.

نظر سعيد الي وابتسم. وقلت اني أفضل شيئاً مثلجاً.

جاءتنا الليمونادة على الفور. وقال فوزي ونحن نحتسيها: الصحافة لا تهتم بنا أبداً رغم أن عملية التفجير هي الأساس الذي قام عليه السد.

قال سعيد: ولهذا جئنا. وخلع كاميرته عن كتفه وأخرجها من علبتها ثم جعل يعبث بعدستها. وتابع فوزي باهتمام حركة أصابعه. ثم ألقى نظرة على ساعته ووقف قائلاً: حان الوقت.

تبعناه الى خارج الكشك. واعتمدنا على حاجز حديدي يطل على المنخفض. وهناك كان العمال ينزعون أعمدة النور بسرعة بينما الشاحنات تقوم بمناورات معقدة لتغادر المكان. وتبعتها الحفارة.

دوت صفارة انذار فجأة. وبدأ المنخفض يخلو من الناس. وجرى البعض وقفز غيرهم في سيارات مسرعة. دوت صفارة جديدة. واعتمد سعيد على الحاجز بمرفقيه ورفع الكاميرا الى عينيه. والتقط صورة الرجل الوحيد الذي ظل مكان التفجير. كان يلوح بيديه للآخرين ثم قفز في سيارة كبيرة مرت من أمامه دون أن

تتوقف. ولحقت السيارة بعدد من الرجال الذين كانوا يجرون فقفزوا اليها وتعلقوا بجانبيها. وما لبث الموقع أن خلا تماماً. ولم يعد به رجل واحد أو آلة واحدة. ثم دوت ثلاثة انفجارات صغيرة متعاقبة. وأخيراً انفجر الجبل.

ارتجت الأرض من حولنا. وأمسكت بالحاجز في قوة. طارت بضع صخور في الهواء. وتصاعد الغبار في سرعة فحجب المكان كله. وعندما طاولت السنته السماء شرع يزحف نحونا منتشراً في كل اتجاه.

التقط سعيد عدة صور متعاقبة للغبار وسفح الجبل الممتلىء بالشقوق والبروزات من أثر التفجيرات السابقة. وتابع فوزي حركة الكاميرا في يده. وعندما اتجهت نحوه اعتدل في مكانه وتحركت عيناه بسرعة وابتسم ابتسامة عريضة. ولكن سعيدا تجاوزه بالكاميرا والتقط صورة مبنى الهيئة الذي كان يبدو صندوقاً صغيراً على مبعدة. وتابع فوزي الكاميرا ببصره ويده تسوي حافة قميصه. واتجه الى الكشك يتبعه فوزي.

كانت سحابة الغبار التي أثارها التفجير قد بدأت تخف. وانقسمت أولاً الى عدة مساحات متفرقة ثم جعلت تتعدد وكثافتها تخف نتيجة لذلك حتى أوشكت أن تتلاشى. وتجلى الموقع من جديد وقد انتشرت في أرجائه فتات الصخور المختلفة الأحجام.

لمحت الحفارة تتقدم عائدة الى موقعها في قاع المنخفض. وخلفها جاء طابور من الشاحنات الفارغة وسيارة أخرى تحمل عدداً من العاملين.

رأيت شبه طريق على يميني يهبط الى أسفل. فانحدرت فوقه مسافة حتى انتهى بلسان مدبب من الصخر. جلست فوق اللسان فأصبحت أشرف مباشرة على موقع التفجير.

راقبت الجنزير الحديدي للحفارة وهو ينزلق على الأرض في صعوبة حتى توقفت أمام سفح المنخفض الذي تناثرت فوقه الصخور. وأحاط بها عدد من العمال بدت أحجامهم ضئيلة أسفل ذراعها. واختفى أحدهم داخل صندوقها. وما لبث هذا أن دار على محوره فوق الجنازير ودارت معه الذراع الطويلة التي تنتهي بكباشة كبيرة الحجم.

صدر عن الحفارة صوت أشبه بالزمجرة. وصرت تروسها. ثم توقف صندوقها عن الحركة. واحتكت الكباشة بالأرض فارتدت الى الوراء واهتزت الآلة كلها تبعاً لذلك.

تراجعت الكباشة الى الخلف حتى أوشك قاعها أن يلتصق بالصندوق بينما اتجهت حافة أسنانها الى الأرض. وهجمت الكباشة لكنها أخطأت الهدف. فارتدت الى الوراء لتعاود الهجوم. وفي هذه المرة أصابت كوم الصخور وصعدت فيه. واستقرت فيها بعض قطع من الصخور .بينما تدحرجت على جانبيها قطع أخرى كبيرة الحجم.

دار صندوق الحفارة فجأة الى اليسار دورة سريعة حملت الكباشة في الهواء حتى صارت تطل على مؤخرة شاحنة. وتبدت في الصندوق فتحة جلس خلفها السائق يحرك المقابض. وتقدمت الشاحنة بمؤخرتها في حذر حتى أصبحت في متناول الكباشة.

تحركت الكباشة حركة بسيطة حتى أصبحت فوق الشاحنة مباشرة. وتوقفت لحظة في الهواء تتأرجح قليلاً. ثم انفرج فكها السفلي وسقطت الصخور مرتطمة بقاع .السيارة في ضجة. واهتزت الشاحنة الروسية الضخمة في عنف.

رفع «أفاريوس» لوحاً من الصخر انتزع من جانب الجبل. بيت «أوفيد» الذي أثار انفعال «ميكل انجلو». معركة السنتور. الكائنات الاسطورية التي نصفها انسان ونصفها جواد. لكنه لم يكن يعبأ بالأساطير. كان الواقع هو الذي يجتذبه. أقصى ما يمكن ادراكه من الواقع. وعندما شرع ينحت كان قد ترك موضوع المعركة الأصلية. وأصبح الصخر هو موضوعه. لقد عاش الانسان ومات بالحجر. وتحول عشرون رجلاً وامرأة ورجلاً وسنتوراً الى جسم واحد يعبر عن الطبيعة البشرية المتعددة الجوانب. حيوانية وانسانية. أنثوية وذكرية. وكل جزء يحاول أن يدمر الأجزاء الأخرى.

سمعت صوت سعيد يناديني. التفت فرأيته يدنو مني بحذر فوق الصخور. وجلس بجواري فوق اللسان الصخري وبدأ يلتقط بعض الصور.

كانت الكباشة رائحة غادية بين كوم الصخور والشاحنات المتتابعة. كلما تم تحميل احداها صدرت زمارة قوية عن الحفارة دار صندوقها على أثره حول نفسه. وعادت الكباشة خفيفة سريعة الى مكانها وسط الصخور بينما تنطلق السيارة بتثاقل الى خارج المنخفض. وتأخذ شاحنة أخرى مكانها على الفور. كانت الكباشة تنفصل أحياناً عن الجبل دون أن تمتلىء جيداً أو بعد أن تسقط منها حمولتها. فتعود من جديد باصرار. وأحياناً أخرى كانت تعجز عن تفريغ حمولتها فوق السيارة فتعود الى الجبل وتسقطها هناك لتحمل غيرها.

توقفت الكباشة فجأة عن الحركة. وتدلى فكها يروح ويجيء في حركة متتابعة. ولمحت السائق يرفع زجاجة الى شفتيه. وشرع عدد من العمال يكومون الصخور بفؤوسهم المعدنية أمام الحفارة.

هبَّ سعيد واقفاً مقترحاً الذهاب. فقمت وراءه. وسألني ونحن نشق طريقنا بين الصخور: أين ستذهب الآن؟

قلت: سأعود الى فندقي.

- وتأتي هنا كل يوم؟ هذا مريع.

قلت: وما العمل؟

فكر قليلاً ثم قال: ربما أمكنني أن أخذك معي في الاستراحة.

قلت: أين؟

- هنا في الموقع. غرفتي واسعة بها ثلاثة أسرة. اسمع.. سأنزل معك الآن الى أسوان وبالليل نرتب كل شيء.

جعلنا نتلفت حولنا بحثاً عن وسيلة ركوب. وأقبلنا عند منحنى على أتوبيس كبير خال من الركاب. كان محركه دائراً وقد وقف السائق بجواره. وعندما أردنا الركوب منعنا قائلاً أن السيارة مخصصة لمهندسي الشركة.

لمح سعيد بوكس رمادي اللون من طراز فورد تغطيه خيمة من القماش كما هو شأن سيارات الشرطة. كانت السيارة تهم بالمسير فهتف بي وجرينا اليها. وعندما أردنا أن نقفز الى مؤخرتها منعنا ركابها وصاحوا بالسائق أن ينطلق. لكن الأمر التبس على السائق فأوقف المحرك. ودار بيننا وبينه جدل طويل انتهى بأن وافق على أن يأخذنا معه.

قفزنا فوق حافة السيارة. ولم نجد مكاناً شاغراً على المقعدين الطويلين المتقابلين اللذين احتلهما عدد من العمال فاقتعدنا الأرض.

أمرونا بأن نقتعد القرفصاء ونحني رؤوسنا حتى لا يرانا أحد في الطرقات، وفي بهيم الليل انطلق موكب اللوريات الى قلب القاهرة القديم، وهواء يناير القارص يضرب آذاننا، وبدأ الطريق يصعد الى أعلى، وفي الظلام ظهرت مباني القلعة شامخة تشرف علينا كما تشرف على المدينة كلها، وقال أحد ذوي التجربة ان في القلعة معتقلا أنشأه الانجليز ولم يستخدم من مها، ودخلنا واحداً بعد الآخر من فتحة صغيرة في بوابة خشبية ضخمة، ولأن المكان من

مخلفات الاستعمار كانت فيه أسرة مريحة، وأنبأ الهواء بأننا على ارتفاع كبير، وقال حسين انهم أخذوه من حفل زواجه، فقال آخر انه كان سيتزوج الأسبوع القادم، ورقدنا في صفين متقابلين نتطلع الى الجدران العالية والكوات المسورة في أعلاها، ولعلها كانت القاعة التي شهدت مذبحة المماليك، عندما أتوا بالملابس الرسمية لشرب القهوة، وعندما استعدوا للخروج ليسيروا في موكب ابن السلطان اغلقت الأبواب، وذبحوا جميعاً عن بكرة ابيهم، وفوق ممشى يشرف على ميدان المذبحة جلس محمد علي يدخن النارجيلة، وقبلها كان يتبادل الزيارات العائلية مع زعيمهم شاهين بك،

بلغنا أسوان فغادرنا السيارة أمام فندق «جراند أوتيل». وافترقنا على أن نلتقي بالليل. فولج سعيد الفندق بينما مضيت أنا الى السوق.

اشتريت عدة ساندويتشات واتجهت الى فندقي. ونادى علي صاحبه وأنا أصعد قائلاً ان شخصاً سأل عني.

توقفت عن الصعود متسائلاً: مين؟

قال: ما رضي يقول اسمه.

قلت: طب مقالش عاوز ايه؟

ـ هو سأل امتى جيت ونازل في أي أودة. وهل معاك حد.

سألت: طيب شكله ايه؟

قال: أفندي بقميص وبنطلون وله شنب تخين.

استأنفت الصعود حتى بلغت حجرتي. استحممت وأكلت الساندوتشات دون شهية حقيقية. ونمت على الفور.

استيقظت في السادسة واستحممت مرة أخرى. ناديت على محمود فأحضر لي الشاي. جمعت ملابسي المتناثرة ورتبتها في حقيبتي. ثم ارتديت القميص والبنطلون ومشطت شعري ثم وضعت المشط في الحقيبة. وأصبحت جاهزاً للانتقال الى الاستراحة فيما لو نجحت مساعي سعيد.

قال له أساتذة القصر ان موضوعه الأول يجب أن يكون أغريقياً من أساطير اليونان لكنه كان يعرف عن يقين أن موضوعه الأول لا يمكن أن يأتي من أثينا أو مصر أو روما أو حتى بلدته فلورنسا وانما من داخله هو. شيئاً ما يعرفه ويشعر به ويفهمه. واختار المادونا

والطفل. في كل اللوحات التي رآها من قبل كانت العذراء تبدي الدهشة التامة عندما أبلغها جبريل بنبأ الحمل، فهل يعقل أنها لم تكن تعرف، وأنها لم تكن تملك حرية الخيار لترفض؟ وقرر أن ينحتها وهي ترضع طفلها مدركة المصير الذي ينتظرها.

أشرفت الساعة على الثامنة عندما بلغت فندق «جراند أوتيل». دفعت بابه الدوار. وتجمدت في احدى الفجوات الفاصلة بين مصاريعه حتى قذف بي الى الداخل. ورأيت سعيداً على الفور مضطجعاً على مقعد في صدر البهو بالقرب من مروحة كهربائية مثبتة على عمود.

قال وأنا أستقر على مقعد بجواره: جاءك الفرج يا عم. يمكنك أن تنقل حاجياتك الآن الى قصري. فراش وغسيل وثلاث وجبات يومياً دون مقابل.

أحضر لي الجرسون زجاجة بيرة. وقال سعيد انه التقى في الظهر بوكيل الوزارة وحدثه عني فقام هذا الى التليفون واتصل بالشركة. ورحبت هذه باستضافتي لأنها تريد تحسين العلاقات مع الهيئة كما أنها تهتم بالدعاية لنفسها أكثر من بقية الشركات الأخرى المشتركة في المشروع.

سألته عن السبب فقال انها تدخل معركة حياتها ليستمر اعفاؤها من التأميم بعد انتهاء السد ولذلك تقوم ببناء فيلات فخمة لكبار رجال الحكومة بأسعار بخسة لا يتصورها عقل.

قلت ان الانتقال الى الاستراحة مشكلة لأن سيارات التاكسي تتقاضى أكثر من جنيهين في هذه الرحلة.

قال: صبرك. سنجد حلاً.

تأملت الجدران التي وشت بقدم المبنى. وكانت هناك بضع مراوح كهربائية تتدلى من السقف وأخرى فوق أعمدة من الصلب في الأركان.

قال سعيد: كان بودي أن أنزل في فندق كتاراكت الذي كان ينزل فيه الملك. لكنه للأسف مغلق الآن.

وتطلع حوله ثم أضاف: الجو اليوم هادىء فلا أثر لبنت.

لم يكن عدانا في البهو سوى عجوز أوروبي جلس في الركن. وكانت هناك قاعة مجاورة مضاءة بدت خالية. ومع ذلك كان صوت التلفيزيون يصدر عنها. وخيل الي

أنه يدور على الفراغ. لكني ما لبثت أن سمعت صوت تصفيق. وظهر مهندس التفجير على بابها. وجعل ينادي بغضب على الجرسون طالباً زجاجة بيرة.

لمحنا فتطلع برهة دون أن يبدو عليه أنه عرفنا. ثم حيانا. وهمس لي سعيد: أخشى أن يكون قد رأى الكاميرا.

اختفى فوزي في القاعة الداخلية. ثم ظهر من جديد حاملاً زجاجة بيرة في يد وكوباً في الأخرى. واقترب منا سائلاً ان كان يستطيع الجلوس معنا. قربت مقعداً تهالك فيه وهو يضع الزجاجة على مائدة مجاورة. وأدركت من حركاته أنها ليست أول زجاجة يشربها الليلة.

فرغ كوب البيرة في فمه وقال: لقد ضقت ببرامج المحطة السخيفة. أتعرفان أن شخصاً واحداً هو الذي يعمل فيها؟ ينزل من بيته كل ليلة بالقبقاب ليدير الأشرطة التي تأتيه من القاهرة.

وملأ كوباً جديداً: ولكن ماذا نفعل. ليس هناك من وسيلة أخرى لقضاء الوقت.

سمعنا دقات متلاحقة فوق الدرج فتحولنا نرقب فتاة أوروبية تهبط في رشاقة وفستانها الواسع القصير يحلق حولها في كل درجة فيكشف عن فخذيها. جعلت تنقل بصرها بين وجوهنا ودرجات السلم وهي تبتسم لنفسها حتى بلغت نهايته. وتهادت أمامنا تتبعها عيوننا حتى اختفت بين مصاريع الباب الخارجي.

قال سعيد وعيناه حائرتان بين مدخل الفندق والدرج المؤدي الى الطريق العليا: أروع شيء هو اكتشاف نفق جديد.

انفجر فوزي ضاحكاً ثم سألنا ان كانت هذه أول زيارة نقوم بها للسد. قال سعيد انها الرابعة. وقلت انها الأولى.

- لم تشهد المرحلة الأولى اذن؟

هززت رأسي نفياً.

الحارس الملول في سترته الصفراء يقرع القضبان الحديدية بمفتاحه، وننطلق في طابور ينوء بحمل جرادل البول لتفريغها ثم نعود بجرادل المياه لملئها، والتفتيش الدقيق بحثاً عن ورقة أو قلم أو جريدة، ثم يتتابع صوت المفتاح وهو يدور في أقفال الزنازين، يحبس في كل

زنزانة جانباً من ضجة العنبر حتى يسود الهدوء التام، ونجلس على الأرض مستندين بظهورنا الى الجدران المثلجة نتابع من قضبان الكوة الصغيرة ضوء الغروب وهو يتلاشى بسرعة، والليل طويل طويل لكنه مهرب من نهار مليء بالمفاجآت،

سمعت فوزي يقول: ليس ما يحدث الآن شيئاً. السد كان في المرحلة الأولى.

مسح آثاراً من رغوة البيرة البيضاء ظهرت على فمه وقال: كنا نخرج في الصباح دون أن نعرف اذا ما كنا سنعود في نهاية اليوم. فكثيراً ما كان الجبل ينهار فجأة ويدفن تحته العشرات. أما الآن فقد ألفنا الجبل ولم تعد هناك أخطار المرحلة الأولى.

ظهرت فتاة الدرج عند الباب. ودلفت الى البهو. ثم توقفت أمام طاولة قريبة. وجعلت تقلب ما عليها من مجلات مصورة. ثم اتجهت الى البار.

مال علي فوزي وهو يهز أصبعه في وجهي: لا تظن أننا لم نكن سعداء في المرحلة الأولى. لم نكن نملك وقتاً للتفكير لا في عائلاتنا أو في المستقبل أو النساء. كان لدينا عمل واضح محدد هو هدم الصخور ثم نقلها والقاؤها في النهر حتى تعترض مجراه. وكان هناك هدف محدد هو سد النيل وفتح القناة الجديدة في آن واحد. كان النهر يعج بالحركة والحماسة طول الوقت. الجميع يتسابقون للحاق بيوم ١٤ مايو ١٩٦٤ وجميعهم على استعداد للتضحية بحياتهم ببساطة.

ساعات الظلام الطويلة نلوك فيها حكايات معادة، ومحاولة ترداد نشيد قديم تثير الضحك لأن كل شيء تغير، وفي الماضي كانت الجدران تهتز من الايقاع، ويعتلي نزلاء الطوابق الأخرى أبواب زنازينهم ليوجهوا تحية المساء الى زهرة شباب الحركة الوطنية، أما اليوم فبلادنا اصبحت حرة، وليس هناك غير صيحات استنجاد بالحارس من احدى زنازين الطابق الأرضي التي حشد بها صغار النشالين واللصوص، ويأتي صوت الحارس من أقصى العنبر مطالباً بالهدوء وبأن يستسلم كل صبي لما يراد به، لكن الصيحات تستمر، وتدور معركة تنتهي بالنهاية المحتومة،

كان فوزي يواصل الحديث: يوم التحويل مثلاً كان يوماً هائلاً. كنا سنجن من الحماسة. وكان هناك سدان مؤقتان من الرمال في طرفي القناة الجديدة. كان لا بد من نسفهما أولا حتى تنطلق المياه في القناة وعندئذ تغلق آخر ثغرة في السد. وانفجر السد الأمامي ولكن الخلفي لم ينفجر. وأصبح كل شيء مهدداً في دقائق. فقد كان بوسع المياه أن تجتاح أساس محطة الكهرباء وتدمر السد الرئيسي.

ملأ كوباً جديداً من البيرة أفرغه عن آخره. ومسح فمه بظهر يده.

- كنت انا المسؤول عن تفجير السد الخلفي. وأدركت أنه لا بد من الغوص فوراً لمعرفة السبب بالرغم من أن الديناميت قد ينفجر في أية لحظة. فخلعت ملابسي وغصت. ووجدت الأسلاك مقطوعة فربطتها.

ظهرت قتاة الدرج من جديد عند مدخل البار وهي تثرثر مع مصري أنيق صحبها الى الخارج. ودار باب الفندق قاذفاً فتاة أخرى متوردة الوجه ترتدي شورتاً قصيراً. تهالكت على مقعد أمامنا مادة ساقيها. واستقرت نظراتنا على فخذيها المتلئتين. كان بياضها مشرباً بحمرة الشمس يبر بتلك المرحلة السابقة على السمرة.

لم يبد على فوزي أنه رأى شيئاً من هذا كله. وتركزت نظراته على زجاجات البيرة كأنما يعدها. وأوشك أن يغضب عندما جاء الجرسون يجمع الزجاجات الفارغة. وتبدت عيناه شديدتي الاحتقان.

قال: لا أظن أن في امكاني ان أفعل شيئاً كهذا الآن. لا أعرف لماذا. ربما لأن العمل تغير في المرحلة الثانية. أصبح في أماكن متباعدة. ولم نعد نتركز مجموعات كبيرة فنوقد حماسة بعضنا بعضاً.

ولج البهو أربعة شبان صاخبين انضم أحدهم الينا. وقدمه فوزي الينا على أنه من مهندسي الشركة الأخرى التي تتولى أعمال الخرسانة. ثم استطرد: ربما كان السبب اننا تبينا الكثير من أخطائنا في المرحلة الأولى وأدركنا أنه كان بوسعنا تلافيها وتلافي كثير من الضحايا والخسائر.

استفسر مهندس الخرسانة عن موضوع الحديث. وقلت اننا نعقد مقارنة بين المرحلتين.

قال: العمل الآن أصبح فنياً أكثر ويحتاج الى دقة متناهية. لم تعد المشكلة من هو أسرع في النقل أو من ينقل أكثر من غيره.

قال فوزي: هذا صحيح. نحن الآن نقوم بتوسيع مدخل القناة لتستقبل مياه الفيضان. وهذه العملية تستلزم تفجير الصخور على جانبي القناة بدقة متناهية حتى لا تسقط في المجرى وتسده فيرتفع الفيضان مرة واحدة.

قال مهندس الخرسانة: لكن العمل الآن فقد لذته.

قال فوزي: الآن لدينا وقت أكثر للتفكير.

سألته: في ماذا؟

أجاب: في أشياء كثيرة. مثلاً: هل كانت كل ضحايا المرحلة الأولى ضرورية؟ ألم تكن هناك من وسيلة لتلافيها؟

قال مهندس الخرسانة: اليوم أوشك محول المحطة أن يصعق عاملاً روسياً.

قال فوزي: العمال الروس مذهلون. رأيت مرة واحداً منهم عندما انهار النفق الثاني. كلنا جرينا وتركنا آلاتنا خلفنا. أما هو فرفض أن يتحرك بدون الحفارة التي كان يسوقها. وظل فوقها يعافر بجنون ليخرجها. تعرف ماذا فعل؟ دقّ الكباشة في الأرض وجعل يقفز الى الخلف بالحفارة حتى أخرجها من النفق.

وتحول الى سعيد وهو يهزّ أصبعه: هذا لمعلوماتك فقط وليس للنشر. فنحن لا نريد أن نعطي صورة سيئة لعمالنا ونبالغ في تقدير الروس.

قال سعيد: لا تخش شيئاً. فلست أريد أن يقال اني شيوعي أو أني مصاب بعقدة الأجنبي وعاجز عن رؤية المعجزة المصرية.

وضعت فتاة الشورت ساقاً على ساق فقال سعيد: كل شيء أصبح الآن ظاهراً للعيان.

قال مهندس الخرسانة: أتعرفون أن الوقت الذي يستغرقه تعليق امرأة في فنلندا أقل من ذلك الذي يتطلبه اخراج المنديل من الجيب.

سألته كيف عرف فأجاب بأنه كان هناك منذ شهرين في بعثة تدريبية.

قال له سعيد: عبيط. لماذا لم تبق هناك؟

هزّ رأسه: معك حق. الحياة هنا كالسجن. ولولا النقود ما بقيت لحظة واحدة.

اقترب منا أحد زملائه قائلاً ان السيارة التي ستقلهم الى الموقع قد وصلت. تطلعت الى ساعتي فوجدتها قد تجاوزت الحادية عشرة. وعرض علينا مهندس الخرسانة أن يوصلنا الى الموقع فقلت أني أريد أن أنقل حاجياتي الى الاستراحة. وأبدى استعداده لمعاونتي.

أقلتنا السيارة الجيب الى فندقي. وحمل محمود حقيبتي اليها فأعطيته عشرة قروش ودفعت حسابي. وأبدى سعيد تعجبه من ضخامة حقيبتي قائلاً انها تجعلني أبدو كالمهاجرين.

انطلقنا في طريق الكورنيش ثم انحرفنا الى اليسار. وتابعت الطريق المظلم الذي

مضينا فيه وسط الصحراء بينما كان مهندس الخرسانة يحكي عن زميل لهم كان يعمل مدرساً في مدرسة بنات ولم يكن يدَع بنتاً دون أن يقبّلها ويجعلها تلمسه بين ساقيه.

تردد فجأة غطيط مرتفع في المقعد الخلفي. وقال المهندس ان فوزي لن يستيقظ أبداً وعليهم أن يحملوه الى فراشه حملاً.

قال زميله: أو نستخدم معه احدى الصفائح.

ضحك مهندس الخرسانة وقال لنا أنا وسعيد: اذا جئتما في الصباح أريناكما مشهداً لا ينسى.

سأل سعيد: ما هي الحكاية؟

قال زميل المهندس: الحكاية حكاية ثأر.. على رأي عبد الحليم

قال سعيد: من اعتدى على شرف من؟

قال المهندس: ثأر ليس من أجل الشرف.. انه ثأر مياه.

قال زميله: عنابرنا ليست بها ثلاجات ولهذا نقوم بتبريد المياه في أزيار. وتتبادل العنابر سرقة المياه الباردة والثأر لمياهها المسروقة.

قال المهندس: ولكن ثأر الغد لم يقع مثله من قبل.

ضحك زميله وسألت: كيف؟

قال: في كل عنبر يوجد عمدة مسؤول عنه. وغداً صباحاً يصل عمدة العنبر المدين لنا بالثأر من اجازته بالطائرة. وسنذهب لاستقباله في المطار بخمس صفائح من المياه المثلجة ونسكبها على رأسه.

انحدر الطريق بعد ارتفاع وتجلت أمامنا مئات المصابيح الكهربائية المتناثرة. وبدا موقع العمل أشبه بحفل ساهر كبير. وبعد برهة ميزت مئذنة الجامع ومكتب المباحث. اتجهت السيارة يميناً وارتقت ما يشبه هضبة صغيرة ثم توقفت أمام مبنى صغير من طابق واحد.

عاونني سعيد في انزال حقيبتي. وسألنا مهندس الخرسانة ان كنا نحب أن نشهد عملية المياه في الغد. فاعتذر سعيد بأن لديه ارتباطات عدة. قال المهندس يعمل في الخلاطة ونستطيع أن نزوره هناك.

انصرفت السيارة وحملت حقيبتي وتبعت سعيداً الى الداخل. مررنا بب

انتشرت خلفه الموائد والمقاعد. ثم مضينا في ردهة الى باب في أقصاها فتحه سعيد وأضاء النور.

ظهرت أمامنا حجرة واسعة يتصدرها جهاز التكييف وبها ثلاثة أسرة متفرقة في أركانها. اتجه سعيد الى نافذة تغطيها شبكة من السلك فأغلقها وأدار جهاز التكييف فجعل يطن بصوت واضح. وما لبثت البرودة المنعشة أن بدأت تنتشر في الغرفة.

وضعت حقيبتي أمام أحد الأسرة وجلست على حافته ثم فتحتها وأخرجت كتاب «ميكل انجلو» فوضعته على مقعد بجوار الفراش. ورتبت حاجياتي الأخرى في أدراج صوان صغير مجاور.

كان سعيد قد انطلق الى الحمام. وعندما عاد ذهبت بدوري. وعدت الى الغرفة فأشعلت سيجارة واستلقيت على الفراش.

استلقى سعيد على فراشه يدخن. وقال انه سيجرب حظه غداً مع فتاة الشورت. سألته كيف يغلق جهاز التكييف فقال اننا سنتركه دائراً لأن الحر بدونه لا يطاق. وقام فأطفأ سيجارته في المنفضة وحملها الى جوار فراشه. ثم أغلق الباب بالمفتاح وأطفأ النور. والتجأ الى فراشه مشعلا سيجارة جديدة.

قال بعد لحظة أنه يريد أن يكتب شيئاً يعبر به عن الانسان الجديد الذي ولد مع السد العالي. وأنه فكر أمس في سيناريو للسينما. مهندس يأتي الى السد ويترك فتاته الثرية في القاهرة على مضض. ويوشك أن يعود اليها بعد أن عجز عن احتمال الحر والارهاق والوحشة. لكن العمل ما يلبث أن يغيره فيترك الفتاة ويستقر في أسوان السد.

قلت: ويتزوج ابنة رئيس العمال.

ضحك وقال: ويعيشان في التبات والنبات. كلا. اني اتكلم جاداً.

قلت: أذكر أنك كنت تتحدث دائماً عن الكتابة للمسرح.

قال: كلنا بدأنا بأحلام عريضة ثم ما لبث كل شيء أن جف. أقول لك الحق؟ لم أعد أرغب في كتابة شيء على الاطلاق. أصبح كل ما أكتبه ممسوخاً مائعاً بلا روح. مقالات تتوه في سراديبها ولا هدف لها الا تبرير كل شيء.

قلت: لا تقل لي أنك لم تكن مقتنعاً بكل ما تكتبه.

قال: كنت أقنع نفسي. لقد كانت هناك أشياء ضخمة. وكنا جميعاً نتجاهل الجوانب الأخرى عن عمد. ألم تكن السجون حاشدة؟ وكنا أيضاً نجني شيئاً من الثار.

قلت دون اقتناع قوي: المراحل الأولى دائماً هكذا.

قال: ولكن الأمر يصور وكأننا حققنا كل شيء. هل أقول لك شيئاً؟ ستسمع هنا بالتأكيد من يقول لك اننا نستطيع بناء السد بمفردنا دون مساعدة الروس.

رأيت شعلة سيجارته تتحرك في الظلام الى أسفل حيث وضع المنفضة على الأرض ثم ترتفع من جديد بعد أن ازدادت توهجاً.

استطرد: أنا آت الى هنا بأمل وحيد. أن أعيش بضعة أيام خارج كل ما ترمز اليه القاهرة. أظنك رأيت تلك النشوة المتشنجة التي تظهر على وجوه بعضهم عندما يرد ذكر السد العالي؟ كأنما جفت أرواحنا ولم تعد قادرة على الوقوف بمفردها ولا بد من تعليقها على شيء.

وجهه حليق منتعش كأنما استيقظ تواً من نوم عميق، أو كأنما كنا في عصر يوم من أيام الصيف بعد قيلولة طويلة، وكنا في الفجر، والشهر يناير،

- رأيك في الحكومة؟

كأنما يمكن أن تخاطب بالمنطق رأساً جنت بالسلطة،

- هل تنوي استخدام العنف؟

الكتب بيني وبينه هي الدليل الوحيد.

عادت السيجارة مرة أخرى الى أسفل. وفي هذه المرة ضغطها في المنفضة معلناً أنه يريد أن ينام.

قال: تصبح على خير.

قلت: وأنت من أهله.

(٣)

في الصباح ظهر على باب حجرتنا نوبي عجوز قال سعيد أنه المسؤول عن تنظيف الحجرة. ورحب بي العجوز قائلاً أنه يدعى فقير. سألته عن مصير الملابس المتسخة فطلب مني أن أتركها على الفراش ليأخذها الى المغسلة.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ولهذا ألفينا المطعم خالياً. وأحضر لنا نوبي آخر افطاراً قوياً من الزبد والمربى والفول المدمس.

أشعل سعيد سيجارة وقال: عندي موعد بعد ساعتين مع كبير الخبراء السوفيات. تأتي معي؟

هززت رأسي موافقاً فقال: اليوم هنا يبدأ بالبحث عن وسيلة ركوب.

قلت: كنت أتصور هذه المشكلة محلولة بالنسبة لك.

قال: في البداية أعطوني سيارة وسائقاً ثم سحبوهما لاحتياجات العمل. لم يبق الا أن نعتمد على أنفسنا.

قلت: نمشي؟

قال: لا بد لنا من سيارة. فالمسافة كبيرة فضلاً عن ان معالم المكان تتغير كل يوم.

دفع مقعده الى الوراء ونهض واقفاً وهو يقول: تعال نبذل محاولة.

أخذنا قبعتينا من الحجرة وغادرنا الاستراحة بعد أن علق سعيد كاميرته على

كتفه. مشيت بتثاقل من أثر الطعام والحرارة. وتوقفنا أمام كشك للصحف وابتعنا الجرائد التي وصلت من القاهرة تواً.

ألقيت نظرة على العناوين الرئيسية ثم طويت الصحيفة وتبعت سعيداً الى داخل مبنى مستطيل من طابق واحد. وقال سعيد ونحن نتقدم في ممر رطب اصطفت على جانبيه الأبواب المغلقة: سنجرب حظنا مع صديق من أيام المدرسة.

طرق سعيد أحد الأبواب وأدار مقبضه ثم دفعه. ودلفت وراءه الى الحجرة التي تصدرها مكتب خشبي كبير جلس خلفه شاب على شيء من الوسامة. ويبدو أنه كان على بينة من هذه الوسامة فقد مشط شعره بعناية وجعل في جانبه الأيسر فاصلا واضحاً.

عرفني سعيد بصديقه الذي كان يدعى عباس. وقال ونحن نجلس في مقعدين متقابلين أمام المكتب انهما كانا معاً في مدرسة القرية وغادراها الى القاهرة في يوم واحد.

سألني عباس عن موعد قدومي وعما اذا كان هناك جديد في السياسة. ثم قال انه سمع اليوم أنهم يعتقلون الاخوان المسلمين في القاهرة.

قال سعيد: نحن لم نأت للتحدث في السياسة. نريد سيارة.

قال عباس انه ترك سيارته الخاصة في أسوان مع زوجته. أما سيارة الشركة المخصصة له فهي معطوبة وبوسعه أن يرسلها الينا في الغد.

قال سعيد: اذن نذهب الآن ونلتقي فيما بعد.

قال ونحن نعود الى الطريق المشتعل من الحرارة: أراهن انه لن يستطيع النوم الليلة.

قلت: لماذا؟

قال: بسبب اشاعة الاعتقالات. فعندما كان في المدرسة كان متصلاً بالاخوان. ورغم أنه قطع صلته بهم منذ زمن بعيد الا أنه يرتجف من الرعب عندما تتردد أنباء اعتقالهم.

انطلقنا في التراب نحو الموقع. وعندما تجاوزنا الكاراج تحولنا الى اليسار وعبرنا خطاً حديدياً. وقال سعيد ان الخط ينقل الاسمنت الى خلاطة الخرسانة. وأشار الى مبنى حديدي ضخم من عدة طوابق يصطف أمامه طابور من القلابات الروسية الخضراء. كانت طوابق المبنى عارية بلا جدران وتتألف من شبكة من المواسير

والاقماع والمعدات. وحول المبنى انتشرت عدة خزانات وقواديس وأكوام من الرمال أمامها شريط طويل من المطاط فوق قوائم حديدية تجري عليه الأحجار الصغيرة.

كنا نمر بجوار كوم من الرمال عندما برز فجأة من فجوة في وسطه عدة أشخاص يرتدون الكمامات. أشار الينا أحدهم ان نتوقف. ونزع الكمامة فألفيناه مهندس الخرسانة الذي تعرفنا به بالأمس.

أصر أن يرينا الخلاطة فصحبناه اليها. وصعدنا خلفه الى طابقها العلوي. قال انها تعمل بالادارة من بعيد. وأنها كانت تستقبل يومياً في المرحلة الأولى كمية من الأسمنت تكفي لبناء عشرة منازل في خمسة طوابق. أما الآن فهي تستقبل ثلث هذه الكمية فقط تستخدم بعد خلطها بالرمال والصخور في أساسات محطة الكهرباء وقلب السد.

اعتمدت على سياج حديدي يطل على طابور القلابات الفارغة. وتأملت واحدة منها تتقدم لتقف تحت قمع ضخم من المطاط في طرف الخلاطة. وبدت القلابات ضئيلة للغاية أسفل القمع الضخم.

انفرج فاه القمع فجأة وانهمرت منه كتلة الخرسانة مرة واحدة. اهتزت القلابة وهبط جسمها قليلاً نحو الأرض ثم عاد الى وضعه. وانغلق القمع كما انفتح. واهتزت القلابة مرة أخرى وهي تنتزع نفسها من الأرض وتتحرك مبتعدة ببطء. وانسابت العربة التالية مكانها.

تابعت القلابات وهي تنساب واحدة وراء الأخرى أسفل القمع. كان بعضها يتجه بعد ذلك الى اليمين ويختفي خلف أحد المنحنيات. وكان بعضها الآخر يتجه الى اليسار ثم يتوقف بعد مسافة. وترتفع ظهورها لتلقي بحمولتها في وعاء ضخم على الأرض. وما لبث الوعاء أن ارتفع في الهواء. ودار دورة واسعة في اتجاه محطة الكهرباء. وملت الى الأمام لأرى المكان الذي سيستقر فيه ولكني لم أستطع.

ظهر الوعاء بعد قليل عائداً الى مكانه السابق فوق سطح الأرض. وتبينت سلكاً يربطه ببرج حديدي بالغ الارتفاع ينتصب خلف الخلاطة. كان ارتفاعه يتجاوز ارتفاعها بمراحل وبدت في قمته حجرة ذات جدران زجاجية. وقال لي المهندس ان البرج عبارة عن رافعة هوائية.

وقف سعيد الى جواري معتمداً بمرفقيه على السياج. وسمعته يغمغم لنفسه: رائع. عظيم.

والتفت اليه فرأيته يدير عينيه حوله وهو يحرك شفتيه.

قال انه يريد أن يلتقط بعض الصور للموقع من قمة الرافعة. فتركنا الخلاطة واتجهنا الى الآلة التي استقرت فوق أربع عجلات تجري على قضبان.

ارتقينا سلماً عمودياً حتى وصلنا القمة ونحن نلهث. ووقفنا في مدخل الحجرة الزجاجية التي كان بابها موارباً تنبعث منه برودة جهاز التكييف. ورأيت من خلاله ميكانيكياً مصرياً أبيض شعر الرأس يجلس أمام عدة مقابض.

تحول الينا العامل ببصره فطالعني وجه شاب في مقتبل العمر. وعاد يتطلع الى المقابض أمامه مباشرة متجاهلاً ايانا كلية. لكنه ظل يتابعنا بطرف عينه. وعندما شعر بسعيد يرفع الكاميرا بسط قامته ومضى يحرك المقابض في اعتداد.

شعرت بالرافعة تتحرك بينما دق جرس قوي. وتطلعت من الحائط الزجاجي فرأيت ذراع الرافعة تتجه في الهواء الى محطة الكهرباء.

ظلت يدا الميكانيكي تعملان فوق المقابض. وتحرك ذراع الرافعة من جديد واستدار سعيد يلتقط بعض الصور للموقع.

توقف الميكانيكي عن العمل لحظة وتحول الينا مبتسماً. ولم تبد عليه الدهشة عندما سأله سعيد عن اسمه وعن الدافع الذي جاء به للعمل في السد. فقد حدد هوية سعيد بالخبرة.

قال بصوت من يتحدث أمام ميكرفون الاذاعة ويعرف بالضبط المطلوب منه: جئت لأخدم وطني. وابتسم.

بدا سعيد راضياً وهو يدون اسم العامل وكلماته في مفكرته. وقال هذا انه تدرب مدة أولاً على ادارة الونش على يد عامل روسي. ومنذ شهرين أصبح يديره بمفرده. وكان يعمل قبل ذلك في احدى ورش السيارات في طنطا.

كنت أنقل بصري بين وجهه الشاب وشعر رأسه الأبيض عندما لمح سؤالاً في عيني. فرفع يده الى شعره قائلاً: الونش هو السبب. أول ما جيت هنا ما كانش فيه شعرة واحدة بيضة في رأسي.

قلب سعيد صفحة جديدة في مفكرته طالباً من العامل ان يحكي ما حدث. وقال هذا انه كان يدير الرافعة عندما احتكت بكابل كهربائي يجره عدد من العمال يسيرون في بعض المياه. وأدى الاحتكاك الى نزع جزء من قشرة الكابل الخارجية فتكهرب على الفور وصعق جميع العمال.

أغلق سعيد مفكرته. وشدّ يد الميكانيكي شاكراً. وصافحته بدوري. ثم هبطنا السلم العمودي في حذر ونحن نتجنب التطلع الى أسفل.

سرنا بين العربات المختلفة حتى بلغنا سوراً يقف أمامه جندي. ومن فوق السور كان جسم السد يمتد أمامنا بأكمله. فالى اليسار كان الجزء الأمامي المواجه لمنابع النيل تغطيه الرمال وتتحرك فوقه البلدوزرات. والى اليمين كان الجزء الخلفي المواجه للقاهرة يرتفع عالياً بكميات هائلة من الصخور الضخمة ثم ينحدر نحو صف من البراميل التي أقيمت بصورة عمودية على حافة المياه. وفي الوسط امتد شبه طريق يتدفق فيه الناس والعربات.

كان ثمة مجموعة من المباني الخشبية على مقربة. اتجه سعيد نحوها قائلاً: لنجرب حظنا مرة أخرى.

وَلَجْنا باباً علقت فوقه لافتة تعلن عن ادارة المركبات. سرنا في ردهة ضيقة ثم طرق سعيد باباً في أقصاها وهو يهمس: هذا هو المدير. وهو من رجال الجيش.

كان هناك شخص في الداخل يصيح بصوت غاضب. وتوقف الصياح فجأة. ثم ارتفع الصوت الغاضب قائلاً: ادخل.

دفع سعيد الباب وأنا خلفه. ورأيت مجموعة من العمال تقف واجمة أمام مكتب جلس خلفه رجل طويل القامة يرتدي قميصاً كاكياً ويخفي عينيه وراء نظارات شمسية داكنة.

قال بنفس الصوت الغاضب: أفندم؟

أوضح سعيد هويتنا فلانت قسمات الغاضب على الفور. وأشار الينا بالجلوس ثم تحول الى العمال الواقفين قائلاً: زي ما قلت. روحوا دلوقت وبعدين أبعتلكم.

قال بعد أن انصرفوا: هؤلاء هم المصريون. يخافون ولا يختشون.

وتأمل سعيداً لحظة ثم أضاف: أظن أننا التقينا من قبل؟

قال سعيد وهو يبتسم في رقة شديدة: أجل أخذت من سيادتك حديثاً منذ ستة أشهر. وأشار الي واستطرد: زميلي يزور السد لأول مرة وقد أصر على مقابلتك ليعد مقالاً عن دور العسكريين في بناء السد من واقع تجربتك الشخصية.

تحول اليّ قائلاً: أنا تحت أمرك.

فكرت بسرعة ثم سألته: ما هو في رأيك سر النجاح الذي سجله العمل في السد حتى الآن؟

أجاب على الفور: السر هو النظام والطاعة المبنيان على الخوف. لا تظن أني ضد الديمقراطية. خذ هؤلاء العمال مثلاً. انهم يستطيعون دخول مكتبي في أي وقت.

أخرجت مفكرتي وتظاهرت بتدوين أقواله. اعترضني بيده قائلاً: لا داعي لكلمة الخوف هذه. الأفضل أن تقول النظام والطاعة المبنيان على الاقناع. حتى لا يسيء أحد الفهم.

قلت: مفهوم.

قال ان السوفيات أعطوه وساماً. ومد يده الى درج مكتبه فأخرج مجلة روسية قائلاً ان بها مقالاً بهذه المناسبة.

نهضنا واقفين وانحنينا على مكتبه لنرى المقال. كان قد بسط المجلة على صفحة تحمل صورته. وجعل يقرأ لنا الترجمة العربية التي دونت بالقلم الرصاص على هامش الصفحة وأنا أدونها في مفكرتي.

تطلع سعيد فجأة الى ساعته ثم قال ان الحديث يحتاج الى وقت أكبر لأهميته. واننا للأسف لا نملك وقتاً كافياً فلدينا موعد في الهيئة. وكتم مضيفنا شعوراً بالاستياء ظهر على وجهه وقال اننا نستطيع الاتصال به في أي وقت نحب.

اعتدلنا واقفين ووجه سعيد حديثه الي وهو ما زال يتطلع الى ساعته: لقد تأخرنا بالفعل ولن تنقذنا الا سيارة. وحول بصره الى الرجل متسائلاً.

قال هذا على الفور: أعطيكما ورقة تأخذان بها سيارة من الكاراج.

قال سعيد في ضيق: ولكن كاراج الهيئة على ما أذكر يبعد عنا مسافة. لو أمكن أن تعطينا سيارة الآن يكون أفضل.

هز رأسه قائلاً: ليس هناك غير سيارتي. لكن السائق غير موجود الآن للأسف.

حزم سعيد أمره أخيراً: ليس أمامنا الا أن نمشي ونعتمد على الحظ.

صافحناه واعدين بالاتصال به خلال يومين ثم انطلقنا الى الخارج.

وعندما أصبحنا في الطريق تبادلنا النظرات وانفجرنا ضاحكين.

مضينا نضرب في الأتربة. ودرنا بعدة منحنيات ونحن نتطلع خلفنا كل لحظة أملاً في سيارة عابرة. أقبلت علينا شاحنة ثبتت في مقدمتها ماسورة بالعرض. وقال سعيد ان الشاحنة تدعى بأبي شنب. وقد أطلق عليها الصعايدة هذا الاسم عندما رأوها لأول مرة.

وجدنا أنفسنا على الطريق الدائري المؤدي الى محطة الكهرباء. فبدى لنا النيل يجري هادئاً في قناته الجديدة. وفي كل مكان انتشر الصعايدة حاملين مقاطف الأتربة. تجاوزنا محطة الكهرباء. وواصلنا السير حتى أشرفنا على جسم السد.

رأيت وسط الشريط العريض من الصخور والرمال بنائين طويلين متجاورين يصلان بين الضفتين. كانا مقوسي السطحين تعترضهما ثغرات ضيقة على مسافات متساوية. وقال سعيد: انهما ممرا التفتيش وان ثالثاً سيعلوهما ثم يغطّى الثلاثة بالطمي الى الأبد.

بلغت حرارة الشمس أوجها وثقلت حركتي. شعرت بالرغبة في العودة الى الاستراحة ولكني استأنفت السير الى جوار سعيد في صمت.

بلغنا أحد المنحنيات فتوقفنا حتى مرت سيارة لرش المياه تلتها حفارة صغيرة استقر صندوق سائقها في مقدمتها بدلاً من مكانه المعهود في الخلف فبدت كأنما تسير بظهرها. ثم ظهرت سيارة جيب أشار سعيد لسائقها فتوقف الى جانبنا. ولكنه قال انه ذاهب حتى الكشك القريب وحسب.

مشينا بضع خطوات ثم وقفنا ننتظر. سألت سعيداً عن سر اهتمامه بمقابلة كبير الخبراء الروس. قال انه كان يتحاشاهم دائماً حتى لا يثير الشكوك من حوله. لكن رئيس التحرير طلب منه هذه المرة موضوعاً عنهم. ويبدو أن أحد مسؤوليهم اشتكى من تجاهل الصحافة لهم.

مرت بنا سيارة فيات تابعة للشركة استقر رجل بدين في مقعدها الخلفي. قال سعيد انها ذاهبة الى الهيئة ولا شك وان راكبها يبدو شخصاً مهماً ولن يقف السائق لنا. ومرّت دقائق طويلة لم يظهر فيها سوى سيارة تبريد تبعتها سيارة من طراز « فولجا » يعلو هيكلها عن الأرض أكثر من المعتاد. وكان سائقها الروسي يقودها بسرعة أثارت عاصفة من الغبار.

أوشكنا أن نستأنف السير عندما ظهرت سيارة جيب روسية أوقفها سائقها المصري عندما رآنا وسألنا اذا ما كنا ذاهبين الى الهيئة. تطلع سعيد اليَّ ثم قال للسائق اننا لا نمانع في الذهاب.

مضت السيارة تتدحرج بنا فوق جسم السد غير الممهد. وجعلت تهتز وترجنا رجاً. مد سعيد يده الى مقبض الباب على أهبة القفز في أية لحظة. وظل في هذا الوضع وعيناه على الطريق حتى أصبحنا على الضفة الغربية.

قلت له: أظنك وجدت بداية المقال؟

سأل: كيف؟

قلت: تبدأ هكذا: كدت أفقد حياتي على جسم السد.

لم يضحك فالتزمت الصمت. وانطلقت السيارة في الطريق المرصوف الذي يؤدي مباشرة الى أسوان. وعند مفترق طرق تحولت الى اليسار حتى أشرفنا على مبنى

الهيئة فصعدت طريقاً دائرياً وتوقفت أمامه.

سأل سعيد السائق عن موعد عودته. فقال انه سيأخذ أحد المهندسين وينصرف تواً.

قفز سعيد الى الطريق. وعندما أردت أن أتبعه وجدت سروالي قد التصق بجلد المقعد وابتل من العرق في أكثر من مكان.

ألقى سعيد نظرة على ساعته وقال: لقد وصلنا بمعجزة في الموعد.

تقدمني الى باب على يسار المبنى. ووقفت في المدخل حتى تعودت عيناي اختفاء ضوء الشمس. ثم سرنا في ردهة هادئة تنبعث منها رطوبة خفيفة منعشة.

خلعت قبعتي ومسحت عرقي بمنديلي. بلغنا باباً جلس أمامه فراش نوبي أشار لنا الى باب آخر دون أن يفوه بكلمة. فطرقناه ودخلنا.

التقت عيناي بعينين زرقاوين واسعتين تحيط بهما هالة من الشعر الأحمر تدلت أطرافه فوق آلة كاتبة. كانت صاحبتها قد رفعتها الى الباب عند دخولنا ثم خفضتها على الفور.

تحولت ببصري الى صورة كبيرة للينين على الحائط. ثم شقراء ممتلئة لوحت الشمس بشرتها جلست أمام عدة تليفونات. تطلعت الينا متسائلة فقال سعيد بالانجليزية اننا صحفيان ولدينا موعد مع أبراسيموف.

ابتسمت وقالت: باجلستا، وأشارت الى مقعدين بجوار مكتب جلس اليه شاب ذو ملامح آسيوية يدق على الآلة الكاتبة في استغراق.

قال سعيد في صوت خافت ونحن نجلس: ها هنا نفق تتوه فيه أعظم القضبان.

تأملتنا الشقراء باسمة وهي تسوي خصلة من الشعر وزعتها في خطوط رأسية متوازية فوق جبهتها. وقدرت أنها في الأربعين من عمرها.

أخرجت علبة سجائري وقدمت لها سيجارة فتناولتها قائلة: سباسيبا.

تحولت الى زميلتها فرفعت عينيها الي وابتسمت قائلة بالانجليزية انها تفضل البلمونت. وأخرجت علبة من حقيبتها تناولت منها سيجارة أشعلتها لها.

كان فمها واسعاً في وجه مستطيل تحيط به خطوط تنم عن الارهاق. وبدت شفتاها جافتين توشكان على التشقق.

اعتذر الشاب بأنه لا يدخن فعدت الى مقعدي. وكان سعيد منهمكاً مع الشقراء في حديث متقطع بكل اللغات. وسمعتها تقول في انجليزية ركيكة انها تدعى اليونا وأنها ستعود الى موسكو بعد شهرين. وقالت ان زميلتها تدعى تانيا وأنها وصلت منذ شهر فقط.

قال سعيد: كم نود الذهاب الى موسكو.

هتفت الشقراء ضاحكة وهي تلوح بيدها في الهواء: من فضلكم تعالوا.

واختلست النظر الى صاحبتها في خجل مفاجيء فضحكنا.

وجمت فجأة وأشارت بيدها مرة أخرى ثم تناولت سماعة التليفون. تكلمت بالروسية وسمعنا اسم أبراسيموف يتكرر ثم كلمة جورناليست. ثم نحت السماعة عن فمها وسألتنا:

- باروسكي نيبيت؟

فهمت انها تقصد اللغة الروسية فقلت: نيبيت.

عادت تتكلم في السماعة وهي تحتد حيناً وتبتسم حيناً آخر. واعتمدت ثانيا بمرفقيها على الآلة تتأمل زميلتها باسمة. وأخيراً وضعت الشقراء السماعة مكانها وتنهدت. ثم أشارت بيدها الى باب بجوارها وقالت وهي تنهض واقفة: مستر أبراسيموف خراشو. باجلستا.

نهضنا بدورنا. وتقدمتنا الى الحجرة الداخلية وعينا سعيد على عجزها الممتليء. وتبعناها الى قاعة طويلة بها مائدة اجتماعات وحولها عدد كبير من المقاعد. وفي نهاية القاعة جلس رجل قصير القامة مدكوكها أبيض شعر الرأس الى مكتب صغير.

كنت قد رأيت صورة ابراسيموف عدة مرات في الصحف. وتعرفت فوراً على الوجه المربع القوي الذي انتشرت فوقه شبكة هائلة غير عادية من التجاعيد.

وقف ابراسيموف عندما رآنا. وأحسست بشخص خلفي. التفت فرأيت شاباً نحيلاً محتقن الوجه أنيق الملابس قدم نفسه الينا على أنه مترجم واسمه فكتور.

انسحبت إليونا وتحدث أبراسيموف بالروسية وهو يشير الى المقاعد المحيطة بمكتبه فجلسنا. تكلم سعيد وفكتور يترجم من الانجليزية الى الروسية. قال اننا نريد اعداد بعض المقالات عن حياة الروس في السد. لكننا عاجزون عن التفاهم مع أحد بسبب اللغة. وكلما حاولنا أخذ بعض المعلومات المحددة قيل لنا أنه لا بد من أمر من ابراسيموف شخصياً.

قال أبراسيموف من خلال فكتور انه سيعين لنا واحداً يقدم لنا كل ما نحتاجه من معلومات ويساعدنا في مقابلة من نشاء.

التفت سعيد ناحيتي وقال بالعربية: آه لو عينوا النفق.

رفع أبراسيموف سماعة التليفون وتحدث قليلاً ثم اعادها مكانها. كانت كل

حركاته تنم عن ثقة شديدة بالنفس.

تحول الينا مبتسماً وقال اننا أحسنا صنعاً بالجيء في أغسطس فهم يستعدون الآن للفيضان. كما أن العمل يمر بأهم مرحلة وهي تشييد النواة الصماء في قلب السد.

خاطبه سعيد: مستر أبراسيموف. لقد عاصرت بناء السد منذ بدايته. فماذا كانت أخطر لحظة مرت بك في تلك المدة؟

فكر الروسي لحظة ثم ابتسم: اللحظات الخطيرة كثيرة. أثناء بناء الأنفاق كان كل يوم يمثل لحظة خطر بسبب الانهيارات التي كانت تحدث فيها. وفي بداية سنة ٦٣ عندما أوشك السد المؤقت الذي أقمناه أمام قناة التحويل أن ينهار.

قال سعيد: وأخطر هذه اللحظات؟

قال أبراسيموف: ربما كان فيضان العام الماضي هو أخطر لحظة مرت بي هنا. فقد جاء الفيضان عالياً وارتفع الماء بسرعة وفي لحظة رأيت كل عملنا مهدداً بالغرق. لكن تعرف؟ لولا السد لكانت بلادكم قد تعرضت لمخاطر جسيمة. فقد تمكن من احتجاز الجزء الأكبر من المياه.

سألت: هل يمكن أن يتكرر الخطر هذا العام؟

أجاب: التقديرات الأولية تقول ان فيضان هذا العام لن يكون عالياً.

عدت أسأل: ولو كان فماذا يكون العمل؟

قال: الأمر بسيط. نفتح كل الأنفاق في وجه المياه وبذلك نحول دون وقوع شيء للسد نفسه أو للوادي.

سأله سعيد عن تاريخ تخرجه فقال: سنة ٢٧ أي بعد الثورة بعشرة أعوام.

- وما هو أهم ما تذكره عن تلك الفترة؟

فكر الروسي لحظة ثم قال: الحماسة التي كنا نعمل بها في أول مشروع للري في آسيا الوسطى. كان هذا هو أول مشروع أشترك فيه. وجاءت بعده مشروعات أخرى في أماكن متفرقة من البلاد ثم نشبت الحرب واشتركت بها في سلاح المهندسين.

- وبعد الحرب؟

- عملت في اعادة انشاء الجسور ومحطات الكهرباء التي دمرتها الحرب. والمؤلم أنها كانت هي ذاتها التي اشتركت في انشائها قبل الحرب.

- وبعد ذلك؟.

- في سنة ٥٥ توليت مسؤولية عدة مشروعات كبرى وعملت في عدة بلاد في الخارج.

تدخلت في الحديث قائلاً: تعني بعد انتقاد عبادة الفرد؟

بدا وجهه جامداً لا يعبر عن شيء وأجابني في صوت بارد: لا أعني شيئاً.

سأله سعيد عن رأيه في الجيل الجديد من الشباب السوفياتي.

قال: الجيل الجديد يريد تلافي الأخطاء التي وقع فيها الجيل الذي سبقه. وهذا شيء طبيعي في كل مكان.

وجه اليه سعيد عدة أسئلة عن اهتماماته الشخصية وهواياته. وجلست استمع الى اجابته وأنا أفكر في المراحل المختلفة التي مرت بها حياته والأخطار التي تعرض لها وأفلت منها.

أحضر لنا فراش نوبي زجاجتين من الصودا المثلجة. ثم طرق الباب ودخل رجل ضئيل الجسم شرقي الملامح يرتدي ملابس كاملة. اتجه الرجل الى ابراسيموف مباشرة وانحنى أمامه في احترام شديد. وهمس لنا فكتور أنه كبير المصممين وهو أرمني يدعى أوجنسيان.

تحدث أبراسيموف الى الأرمني ثم قدمه لنا على أنه الذي سيتولى مساعدتنا. ونهض واقفاً معلناً انتهاء المقابلة.

غادرنا الغرفة برفقة أوجنسيان من باب غير الذي دخلنا منه. وتبعناه الى غرفته. وبدأ يتحدث بالروسية فور جلوسنا فقاطعه سعيد قائلاً: باروسكي نيبيت.

تطلع الينا في وجوم ثم غادر الغرفة. وعاد بعد ربع ساعة بصحبة رجل طويل القامة أصلع الرأس مشمئنط الوجه. خاطبنا القادم الجديد بالانجليزية كالتي يتكلمها الأمريكان. وقال انه يدعى زولوجدين.

أفسحنا مكاناً لمقعده بيننا. وتحدث اليه أوجانسيان. ثم تحول هذا الينا وطلب منا أن نوضح ما نريده.

قال سعيد اننا صحفيان ونريد كتابة بعض المقالات عن حياة الروس في السد ومشاكلهم.

ترجم زولوجدين كلمات سعيد فقال الأرمني على الفور: لا توجد لدينا أية مشاكل.

كانت لهجة زولوجدين عندما نقل الينا هذه الاجابة توحي بأنه ضيق بنا وبالأرمني وبكل شيء.

قال سعيد في صبر اننا نريد مقابلة عدد من المهندسين والعمال الروس والاطلاع على حياتهم الثقافية والاجتماعية والحصول على بعض الأرقام والبيانات الخاصة بذلك.

فكر أوجانسيان برهة ثم نهض واستأذن منا مغادراً الغرفة. وجلسنا في صمت حتى عاد برفقة رجل باسم الوجه رمادي الرأس. ودار حديث سريع بالروسية بين الثلاثة. ثم تحول الينا زولوجدين وقال في لهجته الجافة مشيراً الى القادم الجديد:

- مستر بيوتر ياكونوف سيتولى الاجابة على كافة أسئلتكما. وهو يتكلم الانجليزية.

رفع ياكونوف يده معترضاً: قليل منها فقط. وابتسم كاشفاً عن سن ذهبية.

اقترح أن ننتقل الى مكتبه. فأحنينا رأسينا لأوجنسيان وقلنا له: سباسيبا. وصعدنا خلف ياكونوف الى الطابق الثاني يتبعنا المترجم.

ولجنا غرفة تضم ثلاث طاولات عالية للرسم جلس الى إحداها رجل نحيل متقدم في السن. ووقف خلف الثانية شاب ضخم البنية. جمع ياكونوف ثلاثة مقاعد حول المائدة الثالثة واحتل مكانه خلفها.

وضع مرفقيه على المائدة وتحدث في لهجة شبه رسمية وإن ظل محتفظاً بابتسامته. وتطلعنا الى زولوجدين فقال انه يريد منا أن نكتب له اسمينا. كتبت له الاسمين فقرأهما بامعان ثم قال:

- مستر سعيد. ماذا تريدان بالضبط؟

كرر سعيد ما سبق أن قاله للأرمني.

قال ياكونوف: مستر سعيد. أنا موجود هنا منذ بدأ العمل في ١٩٥٩. ولهذا أعرف كل شيء وسأزودكما بكل ما تريدان من معلومات.

قلنا في نفس واحد: سباسيبا.

قال: مستر سعيد. لا بد أن نضع برنامجاً دقيقاً لكل شيء.

قال سعيد: أوكي.

استأذن منا وغادر الغرفة. ثم عاد بعد دقائق ودار خلف مائدته وهو يتطلع الينا بابتسامة سعيدة: مستر سعيد. رئيسي وافق على خطتنا.

تبادلت وسعيد نظرة متسائلة. وواصل ياكونوف: غداً نضع البرنامج. ثم نهض واقفاً.

اضطررنا للوقوف بدورنا ونحن نقول في نفس الوقت: سباسيبا.

تبادل ياكونوف وزولوجدين حديثاً طويلاً بالروسية. ثم تحول الينا الأخير قائلاً ان ياكونوف سيكون غداً في ادارة التركيبات بالموقع. وهو يقترح أن نلتقي هناك. وصف لنا المكان وغادرنا الغرفة.

مشينا في ردهة طويلة في اتجاه الجانب الآخر من المبنى. وقال سعيد انه من الضروري أن نمر على وكيل الوزارة والا غضب اذا عرف أننا كنا هنا ولم نزره. صعدنا الى الطابق الثالث. استمهلنا مدير مكتبه بعض الوقت ثم أشار لنا بالدخول.

كان الدكتور فريد سلامة رجلا طويل القامة تخلل المشيب رأسه وبدا قريباً من الستين. وكان يجلس أسفل خريطة كبيرة للسد تعلوها صورة لعبد الناصر.

وقف يرحب بنا كأنما يعرفنا جيداً. وقال له سعيد عندما جلسنا أنه تلفن له منذ يومين فلم يجده. قال انه كان مشغولاً في أحد الاجتماعات التي لا تنتهي هذه الأيام استعداداً للفيضان. وفتح درج مكتبه وأخرج منه ملفاً قدمه لسعيد قائلاً انه كتاب فرغ من وضعه عن تاريخ مشروع السد. وأنه أثبت فيه أن مهندساً مصرياً هو أول من فكر في هذا المشروع في الأربعينيات.

تناول سعيد الملف وعندما فتحه سقطت منه صور فوتوغرافية على الأرض. انحنيت فتناولتها ورأيتها لعدد من المصريين والأجانب يرتدون الطرابيش. وأشار فريد ضاحكاً الى أطول المصريين قائلاً: هكذا كنت أبدو منذ عشرين عاماً.

ملنا على الصورة نتأمل الأجانب الذين غطوا رؤوسهم بالطرابيش. وقال فريد انه يعمل في الري منذ كان وزراؤه وكبار موظفيه من الانجليز.

قلب سعيد صفحات الكتاب في اهتمام مصطنع. ورفعت عيني الى الخريطة كانت تمثل قطاعاً عرضياً في السد مقسماً بالألوان الى قطاعات متعددة متباينة الأحجا تشير الى المواد المختلفة التي يتكون منها السد. كان بعضها يمثل الصخور وبعضها

الآخر الصخور الملبسة بالرمال الناعمة والثالث الرمال الخشنة. وفي الوسط حيث يرتفع السد في شكل هرمي مثلث رمادي اللون يشير الى النواة الصماء التي تتكون من الطمي. كان هذا المثلث يمتد في شبه عمود أسفل مستوى السد الى قاع النهر. وكان يمتد منه خط أفقي الى الجزء الأمامي من جسم السد المواجه لمنابع النيل.

حولت عيني الى وجه وكيل الوزارة. لحظت عينيه الضيقتين وآثار الجدري التي انتشرت على صفحته. وبدا وجهه مجرداً من الحيوية كما كان صوته.

سمعته يقول لسعيد ان البيجوم آغاخان تتصل به دائماً عندما تأتي الى أسوان. وقال انه يفكر في جمع المحاضرات التي يلقيها عن الاشتراكية في أعضاء الاتحاد الاشتراكي بصفته رئيساً له واصدارها في كتاب ليستفيد منها بقية المواطنين في القطر.

آثار الجدري والجسد الفارع الضخم يذكران به، ومحاضرات الاشتراكية أيضاً، سوى أن الوجه كان يفيض حيوية، وانه تمرد على عبودية الانجليز، وخير بين أوروبا والجحيم فارتضى الجحيم، واستقبل الليمان أول نزيل من نوعه قيدت السلاسل الحديدية قدميه بأمر الملك، وانحنى بين عتاة القتلة والمجرمين يكسر الصخر، الفك صلب عريض والأنف تصنع معه خطين حادين، وقامت الثورة وذهب الملك لكن مجرمي الأمس هم أيضاً مجرمو اليوم، وعندما خرج فرضوا عليه أن يبقى حبيس منزله من غروب الشمس حتى شروقها، ثم جاؤوه في الفجر، اليوم أول، والشهر يناير، والعام تسع وخمسون، وانطلقت السيارة السوداء في شوارع المدينة النائمة التي نسي كيف تبدو بالليل، واقتادوه حائراً واجماً من سجن الى آخر، وتفجر العنف من الفرات الى النيل بمثل ما لم يتفجر من قبل، فسحلوا الأجسام العارية في الموصل، وأذابوا اللحم والعظام بالأحماض في دمشق، ومن فوق مآذن القاهرة طالبوا بالدماء،

طرق الباب ودخل أبراسيموف برفقة عدد من الروس والمصريين. فغادرنا الحجرة. وقال سعيد ان دخولهم أضاع علينا فرصة طلب سيارة من الدكتور فريد.

هبطنا الى الطابق الأرضي. واقترح سعيد أن نمر على السكرتيرتين قبل انصرافنا. فمضينا الى حجرتها. طرقنا الباب ثم أدرنا مقبضه. لكننا لم نجد غير الشاب ذي الملامح الأسيوية فانسحبنا على الفور.

غادرنا المبنى ووقفنا في ظله نبحث عن سيارة تقلنا. لمح سعيد سيارة جيب تستعد للمسير فجرى نحوها وتبعته متشككاً. انحنى على سائقها ثم ما لبث أن ابتعد عنه مفسحاً له الطريق.

اتجهنا الى الطريق الدائري في بطء. وتسللت حرارة الأرض المرصوفة الى قدمي. مرت بنا سيارة جيب فلوحنا لسائقها دون جدوى. وعندما انتهى الطريق الدائري استدرنا الى اليمين في الطريق المؤدي الى السد.

قال سعيد ونحن ننقل أقدامنا في بطء على الأسفلت الملتهب: كنت أفضل أن أكون في الاسكندرية الآن.

قلت: الشتاء بها أروع.

قال: لم أرها في الشتاء.

قلت: أما أنا فرأيتها.

الشوارع أنيقة هادئة، والجو رمادي، ومن خروم السلك الذي يغلف السيارة كلها لاح البحر على مبعدة، وتطلع اليه في لهفة قائلاً انه يعشق هذه المدينة ففيها ولد وقضى أيام صباه قبل أن يبدأ هذا كله، وارتفع البحر أمامنا حتى غطى صفحة الأفق بأمواج خضراء يغلفها زبد أبيض، ولانت قسمات الوجه الذي يبدو أحياناً كأنه قد من الجرانيت وابتسمت عيناه في عبث الأطفال وأشواقهم، وتلاشت آثار الجدري كأنما بفعل السحر، عندما رفع رأسه يستنشق بلهفة الهواء الذي أتت نسماته مشبعة برائحة الأسماك، وأراح يده المقيدة على السلك قائلاً انه أشرف على الخمسين لكن ما زال أمامه الكثير، ورغم الهواجس لم يحدس أنه لم تتبق سوى أشهر قليلة،

سمعنا هدير قلابة خلفنا. فتنحينا جانباً حتى تمر. وأقبلت في بطء تنوء بحملها من الصخور وقد ارتفع الشاكمان أمامها في الهواء والتمع طلاؤها البرتقالي في الشمس.

حاذتنا القلابة فلوحت للسائق الذي كان يجلس في مستوى رؤوسنا. وقال سعيد انه لا يعقل أن يقف لنا. واصلت السيارة مسيرها لكن سرعتها بدأت تتناقص حتى وقفت أخيراً على مبعدة ربع كيلو.

جرينا حتى بلغناها ونحن نلهث. ووقفنا الى جوار اطارها الذي تجاوز ارتفاعه قامتينا. تطلعنا الى السائق الذي بدا عالياً للغاية. وهتف قائلاً انه ذاهب حتى ممرات التفتيش فقط.

ارتقيت سلماً حديدياً صغيراً من عدة درجات وعالجت الباب فلم ينفتح. فكرت بالدخول من النافذة كدت أفعل. لكن السائق مال نحوي ومد ذراعاً قوية مغبرة ففتح الباب.

ترنحت موشكاً على السقوط ثم تهاويت فوق صندوق حديدي صغير بجوار قدمي السائق. انكمشت في مكاني مفسحاً مكاناً لسعيد. وواصلت العربة سيرها وهي ترتج بصورة متواصلة.

راقبت يدي السائق اللتين قبضتا على المقود الكبير في قوة. كانت عروقها نافرة من أثر الجهد الذي يبذله للسيطرة على القلابة.

قال سعيد متودداً اليه: الله يكون في عونك. كأنك بتحرك جبل.

لم يرد السائق بشيء وضغط البوق الذي كاد صوته يصيبنا بالصمم.

عاد سعيد يقول: هو كل حاجة الروس كده. تطهق.

قال السائق: دي رولز انجليزي مش روسي.

قال سعيد: وايه اللي جابها هنا؟

قال السائق: أهوه فيه ناس تحب تشتري من بره بالعملة الصعبة.

قال سعيد: يمكن تكون أحسن من العربيات الروسي.

هز السائق كتفه: مفيش فرق كبير.

قال سعيد بعد لحظة صمت: أظن الحكاية دي ما هي مزعلة الروس؟

- أكيد. تعرف عملنا ايه لما جه خروشوف؟ دهنا كل العربيات الانجليزي باللون الأخضر بتاع العربيات الروسي.

تساءل سعيد في دهشة: ليه؟ عشان ما يزعلش لو شافها؟ يعني هو مش عارف؟

- تلاقي الروس اللي هنا مخبيين عليه.

وصلنا النقطة التي يبدأ عندها جسم السد. فدار السائق الى اليسار. ومضى بصعوبة فوق الطريق الترابي. وبعد قليل أوقف القلابة قائلاً انه سيهبط الى جوار ممرات التفتيش ومن الأفضل أن نغادره هنا.

غادرنا السيارة ووقفنا نرقبه يدير المقود في جهد وقد مال فوقه بكل جسده. واستدارت القلابة الى اليمين ثم هبطت الى مستوى آخر من جسم السد في الطريق الى ممري التفتيش.

واصلنا السير حتى نهاية جسم السد. واتجهنا الى محطة الكهرباء ونحن نتطلع حولنا في كل خطوة. عبرنا جسراً يطل على قطار تزاحم العمال من حوله. واعتلوا

سطحه حتى كاد يختفي أسفل القمصان الملونة والجلاليب والعمائم واللبد والقبعات والبيريهات.

توقفنا بجوار أحد رجال البوليس الحربي. وأراه سعيد بطاقته الصحفية طالباً معونته في ايجاد سيارة لنا. فأوقف الجندي عدة سيارات لكن واحدة منها لم تكن ذاهبة في طريق الاستراحة.

مرت بضع دقائق لم تظهر فيها سيارة واحدة. اعتمدت بظهري على عمود خشبي شاعراً بانهاك شديد. ولمحت طرف ورقة بيضاء لصقت بجوار رأسي على العمود. قرأت عليها بياناً بتوقيع الوزير يحذر من قراءة مجلة الصداقة التي توزعها السفارة الأميركية.

أقبلت علينا شاحنة انجليزية خفيفة من طراز تايز ذات مقدمة ضيقة للغاية. أشار لها الجندي فأوقفها سائقها على مبعدة عدة خطوات. وتقدم الجندي من الشاحنة وانحنى على نافذتها. ثم أشار لنا بالاقتراب قائلاً ان الشاحنة ستذهب الى أحد مراكز التجريف أولاً وبعد ذلك تذهب في اتجاه الاستراحة.

تكومنا أنا وسعيد في الحيز الضيق الذي ترك بجوار السائق. وانطلقت الشاحنة في سرعة وخفة. ودارت في عدة منحنيات واذا بنا نتجه الى جسم السد من جديد. وعندما أشرفنا عليه اتجه السائق الى اليسار في طريق شبه مهجور. ومضى في سرعة شديدة حتى بلغنا حوضاً واسعاً من المياه احتلت أكوام الرمال جانباً منه. فتوقف وغادرنا الشاحنة.

قال سعيد: هنا تبدأ تلك المواسير التي كنت تبحث عن سرها.

تطلعت الى ساعتي فوجدتها أوشكت على الرابعة. قلت: أخشى أن يكون طعام الغداء قد ضاع علينا.

قال: لا تقلق. ليس هناك وقت محدد للوجبات بسبب الورديات المختلفة.

حولت بصري الى الحوض. كانت هناك رشاشات قوية من المياه مسلطة على الرمال بحيث تجرفها الى أسفل. وكان خليط المياه والرمال ينحدر الى فتحتي ماسورتين ضخمتين وقف أمامها عدد من الصعايدة مشمري الجلاليب ينتقون الأحجار الصغيرة من الخليط ويقذفون بها بعيداً.

عاد السائق بصحبة عدد من العمال يحملون صناديق خشبية. وعندما فرغوا من

وضعها في مؤخرة الشاحنة قفز الى مقعده فتبعناه. وانطلقت الشاحنة في الطريق الذي جئنا منه.

أرحت رأسي على مسند المقعد. ونقلت ثقل جسدي من فخذ الى آخر بعد أن تصلب الأول. وأوشك الثاني أن يتصلب أيضاً عندما توقف السائق على مقربة من الاستراحة.

مشينا في تثاقل حتى الباب. ومضينا في الممر الرطب المؤدي الى حجرتنا ففتحناها. واتجهت على الفور الى جهاز التكييف فأدرته. ثم تناولت ملابس نظيفة من حقيبتي وذهبت الى الحمام. كان ماء الدش شديد السخونة. وتجمع تحت قدمي في لون الطين.

أحضر لنا فقير ليموناً مثلجاً في الترموس. وسمعته ينعي لسعيد أخلاق هذه الأيام. قال انه رأى بنفسه الفستان القصير في أسوان.

مضى سعيد الى الحمام فتناولت منشفتي وطردت بها الذباب. ثم أغلقت مصراعي النافذة وصببت لنفسي كوباً من الليمون. جلست أرتشفه على حافة الفراش بعد أن أشعلت سيجارة.

عندما جاء سعيد غادرنا الحجرة الى صالة الطعام. وكان بها عدد من المهندسين الشبان يأكلون في صمت.

اخترنا مائدة بالقرب من الباب أملاً في نسمة هواء. وأقبلنا على الطعام في شهية. ولحظت أن أحد الجالسين يرقبنا في اهتمام. كان أصلع الرأس ذا شارب كث. وعندما التقت عيناه بعيني أبعدهما واستغرق في الأكل. لكني شعرت بعينيه بعد لحظة مسلطتين علينا.

فرغنا من الأكل فأسرعنا الى الغرفة. واستبدلنا ملابسنا بالمنامات. واستلقى كل منا في فراشه يدخن. وسرعان ما غفونا.

استيقظنا بعد ساعة. ونادى سعيد على فقير. وأعطاه الترموس ليحضر لنا قهوة من النادي. قلت اني أفضل الشاي. فقال سعيد ان شاي النادي كالماء ولا بد أن نشتري شاياً ونعده بأنفسنا. قال فقير ان نوع الشاي الذي نريده غير متوفر في الموقع وربما وجدناه في كيما أو أسوان.

كانت سجائرنا قد فرغت فاقترح سعيد أن ننزل الى كيما لشراء الشاي والسجائر. ثم نذهب الى السينما.

شربنا القهوة وارتدينا ملابسنا في اعتناء ووجدنا فقيراً واقفاً على باب الاستراحة. تطلع الى ملابسنا ثم قال اننا تأخرنا. ولو كنا بكرنا قليلاً للحقنا بالسيارة المخصصة للمهندسين التي تقلهم كل مساء ليسهروا في أسوان وتعود بهم في منتصف الليل.

انطلقنا الى الطريق العام ووقفنا على جانبه ننتظر. كان هناك غيرنا من المنتظرين ميزت بينهم الأصلع الذي راقبنا باهتمام في المطعم. وكان يقف مع شابين متأنقي الملابس.

مرت بنا عدة سيارات دون أن تقف كالعادة. ومرت سيارة جيب من أمامنا ثم توقفت على مبعدة. وتحفز الواقفون للحاق بها. لكن أحدهم كان أسبقهم للحركة. وبدا أنه على معرفة بسائق السيارة. وتابعه الباقون في حسد وهو يقفز الى السيارة التي استأنفت سيرها.

لمح سعيد أحد جنود البوليس الحربي فتقدم منه وأراه بطاقته. وشعر بعض العمال الواقفين بما سيحدث فدنوا منا. لكن الجندي نهرهم فابتعدوا في بطء.

تطلع الجندي في بطاقة سعيد ثم طلب منا في أدب أن ننتظر على جانب. وتحول يرقب الطريق. وعندما لمح سيارة مقبلة تحمل شارة القطاع العام تراجع خطوة ومد أصبعه السبابة الى الأمام في مستوى السيارة وحركة الى أسفل في هدوء وحزم.

توقفت السيارة قبل أصبعه بنصف متر. فتقدم في بطء من نافذتها. وتبادل مع السائق بضع كلمات. ثم طلب منه ان يفتح باب السيارة. وتطلع داخلها ثم تراجع مبتعداً وأشار له بالانصراف.

اقترب الجندي منا وقال لسعيد أنه لا بد من تفتيش كل سيارة تغادر الموقع فمحاولات السرقة لا تتوقف. وأضاف: لا تقلقا. سأجد لكما مكاناً حالا.

ظهرت احدى السيارات التشيكوسلوفاكية الضخمة التابعة للشركة. وبدا سائقها واضحاً خلف واجهتها الزجاجية العريضة.

كرر الجندي الاشارة الموجزة من أصبعه فتوقفت السيارة.

تطلعت خلفي بحثاً عن الأصلع فرأيته يقترب مع زميليه من السيارة. خاطب الجندي السائق ملقباً اياه بالحاج. وقال اننا صحفيان ونريد الذهاب الى كيما. فهتف بنا السائق بصوت جهوري أن نصعد. ومد يده الى باب السيارة المغلق وفتحه لنا.

صعدت يتبعني سعيد. وجاء في أعقابنا عامل صعيدي ذو شارب ضخم يرتدي جلباباً ملوناً. وعندما حاول أن يصعد خلفنا جذبه الجندي من ذراعه وسأله عما اذا كان قد سمح له بالصعود.

توقف الصعيدي واجماً. ورفع الجندي يده وهوى بها على قفاه. ثم سأله عن بلده فقال وقد انحنى رأسه تحت كف الجندي أنه من قوص.

تقدم الشاب الأصلع من باب السيارة يتبعه زميلاه. وأفسح الجندي لهم الطريق وهو يصيح في الصعيدي ان أهالي قوص جميعاً لصوص.

هتف بنا السائق: تفضلوا جوه. مد يده فأغلق الباب. وانتقل الأصلع وزميلاه الى داخل العربة المزدحم. وبقيت أنا وسعيد خلف السائق.

أشار الجندي للسائق بالانطلاق دون أن يلتفت نحوه. تحركت السيارة فتطلعت الى الخلف. رأيت الجندي يمد يده محاولاً جذب شارب الصعيدي.

سألنا السائق عن الصحيفة التي نعمل بها قائلاً أنه يراسل صحيفة يومية. وأضاف أنه يرأس نقابة العمال في الشركة ولجنة الاتحاد الاشتراكي فيها. وأنه حصل على ستة آلاف صوت في انتخابات الاتحاد الاشتراكي.

سأله سعيد عما اذا كان أجره يكفي لتغطية كل هذه النشاطات. فقال أنه لا يشكو من شيء وأنه يملك قطعة أرض في قرية أبي الريش المجاورة.

قلت لسعيد على مسمع من السائق: الحاج نموذج مشرف للعاملين في السد ولا بد ان نكتب شيئاً عنه.

أمن سعيد على قولي وقال انه يفكر بالفعل في ريبورتاج كبير. ثم تحول للسائق وسأله عما اذا كان سيعود الليلة الى الموقع. أجاب الحاج في حماسة أنه سيعود بورديا منتصف الليل. وقال انه على استعداد لأن ينتظرنا في أي مكان نحب. فاتفقنا على أن نلتقي أمام كيما. أشرفت السيارة على عمارات كيما المتوازية. ومررنا بمبنى من طابقين تجمع بعض الناس على سطحه. وقال السائق أنه النادي الروسي.

غادرنا السيارة بعد النادي بقليل. ورأيت أحد زميلي الشاب الأصلع يغادره خلفنا ثم يعبر الطريق الى الناحية الأخرى ويختفي خلف احدى العمارات.

تابعت السيارة ببصري عندما استأنفت سيرها. والتقت عيناي بعيني الأصلع الذي بقي فيها.

مشينا في اتجاه السيارة بحذاء صفوف من العمارات الأنيقة. كانت الحدائق الواسعة تفصل بينها. وعلى أبوابها تجمعت حلقات من السيدات الروسيات. كان بوسعي أن أتبين في ضوء المغيب بشرة سواعدهن وسيقانهن التي لوحتها الشمس.

شعرت بملمس ملابسي الداخلية النظيفة على جسدي الجاف. ولفح الهواء الساخن بشرة وجهي.

مرقت بجوارنا سيارة جيب مكشوفة مستطيلة الجسم عن المألوف. كان يقودها رجل بدين يرتدي جلباباً جلست بجواره امرأة في مثل حجمه. كانت تكتسي جلباباً بلدياً وتغطي ساعديها حتى المرفقين بالأساور الذهبية.

قال سعيد ان الرجل هو المتعهد الذي يمد السد بآلاف الأنفار. وأنه يأخذ على كل نفر منهم خمسة قروش في اليوم.

عبرنا خطاً حديدياً الى الجانب الآخر الذي يسكنه موظفو شركة كيما. وتطلعت خلفي الى النادي الروسي. كانت الأضواء قد سطعت على سطحه. وترامت الى مسامعنا أصداء موسيقى راقصة تنبعث منه.

اشترينا الشاي والسجائر من مجمع تعاوني كبير. واتجهنا الى السينما. وعندما وجدنا الفيلم مصرياً اقترح سعيد أن نزور صديقاً له يعمل في مصنع السماد.

مشينا في الظلام بين المجمعات السكنية. كانت أغلب نوافذها مظلمة. وبين الحين والآخر كانت نسمة هواء تحمل الينا صوت الموسيقى. ثم تمتد ثغرة بين صفين من المباني. ومن خلالها يتبدى النادي الروسي شعلة من الضوء.

تطلعت خلفي الى الشارع الذي جئنا منه. ودققت النظر. لكني لم أتبين أحداً يقتفي أثرنا.

طرقنا باب المسكن الأرضي في احدى العمارات. وفتح لنا رجل في ملابسه الداخلية يتصبب العرق من وجهه. قال اننا أخطأنا العنوان.

سرنا حتى نهاية الصف. ودخلنا العمارة المماثلة في الصف التالي. وجدنا الاسم الذي نبحث عنه مسجلاً بالقلم الرصاص على الباب. لكن أحداً لم يستجب لطرقنا.

عدنا أدراجنا في الشارع نفسه الذي جئنا منه. والتقينا بالرجل الذي فتح لنا أول الأمر. كان يؤدي بعض التمارين الرياضية في الظلام أمام المنزل. واصلنا المشي في اتجاه الشارع العام. وعندما بلغناه تحولنا الى اليمين. وسرنا الى جوار الخط الحديدي

في اتجاه بقعة الضوء المنبعثة من النادي الروسي.

عبرنا الخط الحديدي أمام النادي واقتربنا من مدخله. كانت له حديقة واسعة صفت بها الموائد التي التف حولها الشبان والفتيات الروس.

التقينا عند الباب بياكونوف في طريقه الى الخارج. كان يحمل عدة كتب في يده اليسرى ويضع اليمنى على ورم ظاهر في فمه.

قال باللغة العربية مشيراً الى فمه: واحد كسورة. ثم أضاف بالانجليزية أنه متعب وسيذهب الى منزله. وأشار الى الداخل قائلاً:

ـ موجنا.. باجلستا.

سأله سعيد عن موعد الغد. فقال انه سيكون أحسن حالاً وسينتظرنا. ودعنا وانصرف فاجتزنا الحديقة الى باب زجاجي. ودلفنا الى قاعة واسعة ازدحمت بالجالسين. وأقيمت في جانب منها منصة صفت خلفها صناديق المياه الغازية والبيرة. وفي الجانب الآخر كان هناك درج يؤدي الى الطابق الأعلى الذي انبعث منه صوت الموسيقى.

اتجهنا الى منصة المشروبات فابتعنا من شاب نوبي زجاجتي بيرة. حمل كل منا زجاجة وكوباً ووقفنا نتلفت حولنا بحثاً عن مكان. ولمح سعيد مائدة جلست اليها سيدتان روسيتان وبجوارها مقعدان خاليان فهمس.

ـ تعال.

تقدمنا من المائدة. وانحنى سعيد لهما مستأذناً بالانجليزية في الجلوس. فهزت احداها كتفيها وأشارت بيدها الى المقعدين كأنما الأمر لا يعنيها. فوضعنا الزجاجتين والكوبين على المائدة وجلسنا.

كانت المرأة في مقتبل العمر ذات شفاه ممتلئة وشعر ذهبي. وكان رداؤها أحمر اللون من طراز قديم. أما زميلتها فكانت ذات ملامح آسيوية مجردة من الجمال.

شعرت بالأنظار تتجه الينا فملأت كوبي ورفعته الى فمي. خاطب سعيد ذات الرداء الأحمر. فضحكت برقة وقالت وهي تهز كتفيها:

ـ انجليسكي نييت.

وتحولت تستأنف الحديث مع زميلتها.

قال لي سعيد: ماذا نفعل الآن؟

قلت: لا شيء.

أخذت أرتشف كوبي وأنا أتأمل شفتي ذات الرداء الأحمر. كانت منطلقة في الحديث مع زميلتها دون أن يتلاشى الابتسام من وجهها الذي تتابعت على صفحته عشرات الانفعالات.

نقلت بصري الى ساعديها العاريين من أول الكتف. تأملت شعر ابطيها الذهبي. ومضيت أنصت الى صوتها. ولأول مرة لاحظت ما في مخارج الألفاظ ونهايات الجمل الروسية من ايقاع موسيقي. وكنت في البداية أشعر بها كقطع الصخر.

كفت عن الحديث ووقفت. ترددت لحظة ثم تحولت الينا وقالت: داازفدانيا. وابتعدت تتبعها زميلتها.

تابعناها بأعيننا حتى غادرت القاعة. لحظت أن المكان شرع يخلو من الجالسين. ولم تعد الموسيقى تصدح في الطابق الأعلى بينما ازدحم الدرج بالمنصرفين.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف فأفرغنا زجاجتينا وغادرنا النادي. مشينا في بطء باتجاه السينما. ورأينا زحاماً أمامها. كان العرض قد انتهى. وما لبث الزحام أن تلاشى. ولمحت نبيل يتحدث مع شاب أسمر يقف مستنداً الى دراجة. ثم امتطى الشاب دراجته وجلس نبيل أمامه. ودار بالدراجة في الطريق الى أسوان. وعندما مر من أمامنا تبينت أن الشاب لم يكن عويس.

مضينا عائدين الى مكان موعدنا مع الحاج. وقفنا ننتظر صامتين. وما لبثت السيارة الصفراء الطويلة أن أقبلت علينا وتوقفت أمامنا.

كانت السيارة ممتلئة بالعمال. لكنه كان قد حجز لنا مقعدين خلفه. وقال بعد أن استأنف السير أنه أحضر صورة له في أحد اجتماعات الاتحاد الاشتراكي ليستخدمها سعيد في مقاله.

تناول سعيد الصورة ووضعها في مفكرته. وأخرج قلمه وسطر بضع كلمات في احدى صفحاتها. ازدادت حماسة الحاج عندما رأى سعيداً يكتب فجعل يصف تأييد العمال له وهو يراقب سعيداً في المرآة المجاورة له ليتأكد أنه يكتب ما يقوله.

كانت العربة صامتة تنصت لصوت الحاج الجهوري. وكان يتحدث الآن عن الشركة وجهودها في خدمة العمال. ولمحت في المرآة جانباً منهم يتطلعون الينا.

ظهرت أنوار الموقع أخيراً. واجتزنا الجامع فاستعددنا للنزول. لكن الحاج أصر

على أن يأخذنا الى باب الاستراحة. وقاد سيارته الضخمة صاعداً في الطريق المؤدي اليها.

دخلنا المطعم لنتناول العشاء. وتوقعت أن أجده فارغاً. لكننا وجدنا عدداً من الآكلين. كان أغلبهم ما زال في ملابس بعد الظهر الأنيقة وقد تجعدت الآن وفقدت طزاجتها. وعادت وجوههم التي بدت منتعشة مترقبة في العصر الى سابق تجهمها.

اغتسلنا والتجأنا الى حجرتنا. وأدار سعيد جهاز التكييف بينما استبدلت ملابسي. استبدل هو الآخر ملابسه. وارتمى كل منا على فراشه.

مد يده الى حقيبته أسفل الفراش وتناول منها احدى المجلات. سألته عنها فقال انها « بلاي بوي ».

أشعلت سيجارة بينما كان يقلب صفحات المجلة. قال بعد لحظة انه يتمنى أن يحصل مرة على واحدة من هاته النسوة اللاتي تظهر صورهن في المجلة.

وضع المجلة على ساقيه وسألني عن علبة الثقاب. قذفت بها اليه وأشعل سيجارة.

قال: أتعرف ما هو أروع شيء بالنسبة للرجل المتزوج؟

قلت: أن يقضي ليلة واحدة مع امرأة أخرى.

قال أبداً.. أن ينام ليلة بمفرده.

قلت: لم أجرب.

قال: لا أدري لماذا لم تتزوج حتى الآن.. لعلك ما زلت تنتظر الفتاة التي يخفق لها قلبك من أول نظرة؟

قلت: ربما.. أنت تعرف أنه لم تتح لي فرصة.

قال: غلطتك. قل ماذا كسبت؟

قلت: أشياء كثيرة.

قال: يبدو لي أن الناس تقدم على الزواج عندما لا تجد شيئاً آخر تفعله.

طلبت منه أن يرمي لي بعلبة الثقاب. وأشعلت سيجارة بينما عاد يتصفح صور المجلة العارية.

قلت بعد أن انتهت سيجارتي اني أريد أن أنام. ولا أستطيع النوم في الضوء. قال انه سينتهي بعد قليل. فانقلبت على وجهي ودفنت رأسي في الوسادة.

كان النور يطفأ دائماً في ساعة محددة كل ليلة. وأحياناً يكون الحرمان منه تاماً، وعندما تسمح الظروف يجري البحث عن وقود، وبالسجائر تشتري بضع قطرات من السائل الزيتي الذي يطفو على سطح جرادل الطعام، وتصنع من أطراف الملابس شرائط تغمس فيه ليتوهج الضوء بعض الوقت في الزنازين، ثم يسود الظلام الحالك، ويتفتت الجسد الى ألف قطعة، أو هي الرأس التي تتفتت، وما كان يبدو مستحيلاً وبعيداً عن التصديق في ضوء النهار يصبح من الممكنات، ثم المحاولة المستميتة لجمع شتات من العالم الآخر البعيد كي تستوي في النهاية امرأة حانية سمراء حيناً وبيضاء حيناً آخر لكنها ذات جسد حار لا يرتوي أبداً، ولكن فتات الجسد تتوق لأن تتجمع من جديد بين ذراعي جسد آخر ملموس، والأقرب الى الحواس أحد هؤلاء الذين تتردد أنفاسهم في هدأة الليل، ذلك الصبي الوسيم في عنبر النشالين الذي كان اللومانجي المسجون الى الأبد يقرصه من شفتيه، أو الآخر الذي اتضحت تفاصيل فخذيه عندما انحنى ينظف الأرض، أو ثالث اقتربت ساقه عفواً عندما تقلب على جانبه، والأفضل أن يكون المرء حشاشاً أو قاتلاً ليستطيع أن يفعل مثل اللومانجي المسجون الى الأبد، ولم يبق غير جز الاسنان في ظلام الليل حتى يحل سلطان النوم الرحيم أو يبزغ الفجر قبل موعده،

اعتدلت على ظهري. كان النور ما زال مضاء وسعيد ما زال يقلب صفحات المجلة.

أغلقت عيني وغفلت برهة. ثم خيل الي أن النور انطفأ ففتحتها. لكن سعيداً كان ما يزال يقرأ. أغلقت عيني من جديد وحلمت أني مع صوفيا لورين. كان صدرها عارياً. وفهمت من نظرتها لي أننا كنا في الفراش منذ قليل. ثم استيقظت على صوت فقير. ورأيته واقفاً في وسط الحجرة وقد سطعت الشمس في أنحائها.

قال ان هناك سيارة تنتظرنا في الخارج. فقال سعيد وهو يقفز من فراشه انها سيارة عباس ولا شك. أسرعنا نغتسل ونرتدي ملابسنا ثم تناولنا افطارنا وخرجنا الى الطريق.

كانت السيارة صغيرة من طراز فيات/ نصر ١١٠٠. وكان السائق في مكانه يقرأ احدى الصحف. ودون أن يتحرك مد ذراعه خلف مقعده وأزال رتاج الباب الخلفي. جلست في المقعد الخلفي بينما استقر سعيد الى جواره.

عين له سعيد وجهتنا. وأخرج مفكرته وجعل يكتب قائمة بالأسئلة التي سيوجهها الى ياكونوف. وسألت السائق أن يعطيني الصحيفة فناولها لي.

كانت الصحيفة مطوية على صفحة تتصدرها صورة كبيرة لجسم السد كتب تحتها: «السد الانسان صنع كل هذه القصص الانسانية». قلبت الصفحات بحثاً عن العمود الخاص بدرجات الحرارة. ووجدتها في القاهرة ٣٤ وفي أسوان ٤٢.

عدت الى موضوع القصص الانسانية. كان كاتبه يقول ان كل من يعمل في السد يستطيع أن يقوم باجازة حينما يشاء لكن أحداً لا يرغب في ذلك. وكل سائق أعطى ترمساً للشاي كما زود بوسادة من المطاط تمتص العرق وتجنبه الاصابة بالروماتزم وبنظارة أنيقة تحمي عينيه من وهج الشمس.

سألني السائق بغتة وهو يتطلع الي في مرآته اذا كنت قرأت موضوع القصص الانسانية فأجبت بالايجاب.

قال: انت شفت سيادتك سواق لابس نظارة شمس وشايل ترموس؟

قلت اني لم أنتبه الى شيء من ذلك.

قال: وحكاية الاجازات دي.. تعرف ان الوزير مانع الاجازات كلها؟

تصفحت بقية العناوين. توقفت عند صورة أسد ضخم وقرأت أسفلها أنه بكى من التأثر في مطار القاهرة عندما وضعوه في طائرة مغادرة.

توقف السائق أمام مبنى حجري من طابق واحد. وقال انه سينتظرنا في منطقة الظل المجاورة. ووجدنا ياكونوف ينتظرنا في أول مكتب دخلناه.

كان ورم خده قد اختفى. رحب بنا في ود وهو يبتسم. ثم استأذن منا وانطلق يبحث عن مترجم. وعاد بعد لحظة قائلاً ان زولوجودين سيلحق بنا.

تبادلنا بضع عبارات. كان ينتقل من الروسية الى الانجليزية والعربية ونحن نبتسم لما لا نفهمه من كلام فيبتسم بدوره. وعندما لا يفهم شيئاً مما نقوله يضحك في خجل.

ظهر المترجم المشمئنط زولوجودين على الباب. واعتدل ياكونوف في مقعده معلناً استعداده للأسئلة. فقرأ له سعيد قائمة طويلة.

ظل ياكونوف صامتاً حتى النهاية ثم سأل لماذا لا يشمل برنامج سعيد القسم الذي يعمل به. قلت اننا لم نر داعياً لذلك ما دام هو معنا ونستطيع أن نسأله عن أي شيء.

قال سعيد انه تذكر شيئاً آخر وأنه يريد أن يعرف العدد الاجمالي للروس في المنطقة.

صمت ياكونوف برهة ثم قال في صوت رسمي: مستر سعيد. بالنسبة للعدد سأكون بعد دقائق في وضع يسمح لي باخبارك.

وغادر الغرفة ليصبح في وضع يسمح له باخبارنا بالعدد.

سألنا زولوجدين فجأة عن عمرينا. وعندما علم أننا لم نبلغ الثلاثين بعد هز رأسه وقال بمرارة: لا يعرف أحد مزية هذه السن الا عندما يصبح في الأربعين مثلي.

استفسرت عن حياته العائلية فقال انه كان متزوجاً. وقال ان لديه ابنة في السادسة عشرة وان له في مصر ثلاثة شهور فقط.

سألت: والى متى تبقى؟

قال: لا أعتقد أني سأتحمل الوحدة هنا أكثر من عام.

شعرت بدوار مفاجيء وجفاف شديد في حلقي. سألت زولوجدين عما اذا كان في امكاني أن أشرب شاياً. قال انه لا يعرف واننا سنتحرك على أية حال عندما يعود ياكونوف.

جاء ياكونوف بعد دقائق يحمل بعض الأوراق. وبدا سعيداً لأنه استطاع أن يفعل لنا شيئاً. شرع يقرأ عن طريق المترجم بعض البيانات ثم قدم لسعيد بقية الأوراق التي كانت بالانجليزية. وقال انه سيأخذنا الآن في جولة بالسيارة لنرى بعض أنحاء الموقع.

قال سعيد: كنا نود أن نزور أولاً مركز التدريب الذي تديره مهندسة روسية.

قال ياكونوف: سنفعل لكن ليس اليوم. فلا بد أولاً من الاتصال بالمركز وتحديد موعد وهذا يستغرق يوماً أو يومين.

قلت اني أشعر بالتعب وأفضل العودة الى الاستراحة. غادرنا المبنى وتركتهم ينتظرون سيارة ياكونوف وصعدت الى سيارة عباس.

استدار السائق عائداً في الطريق المؤدي للاستراحة. سألني بعد قليل عن اسم سعيد الكامل فذكرته له. عاد يسألني بعد برهة: هو ده اسمه الحقيقي؟

قلت: قصدك ايه؟

قال: أنا عرفته من صورته في المجلة اللي بيكتب فيها باسم فتحي قراع.

قلت: فتحي قراع واحد تاني وان كانوا يشبهون لبعض.

قال باصرار ان فتحي قراع يتنكر دائماً عندما يكتب تحقيقاته وانه تنكر مرة ليدخل السجن.

قلت ان دخول السجن لا يحتاج الى تنكر.

قال: انه ينشر الآن حلقات عن الطفل الذي يتلاشى. سيادتك تصدق الحكاية دي؟

أجبت: مش عارف.

قال: مرة قريت موضوع عن سواق زميلنا اسمه عبد الفتاح. زميلناوصاحبنا وكل يوم احنا في بيته. تبص تلقى المجلة ناشرة صورة شقة فخمة فيها بوتاجاز وتلاجة وقال دي شقة الأخ عبد الفتاح.

أسندت رأسي الى مسند السيارة وأغمضت عيني. لكن الدوار الذي كنت أشعر به لم يتوقف. واضطرتني المطبات المتتابعة الى أن أبتعد برأسي عن المسند.

استمر السائق يروي لي ذكرياته بلهجة ساخرة. حكى عن ماجدة عندما جاءت تصور فيلماً عن السد. وقامت بدور مضيفة سياحية في لنش قادم من أبي سنبل.

قال: تعرف ليه؟ عشان تقابل على اللنش ايهاب نافع وتحبه لأنه بيبني السد.

وصلنا الاستراحة فاتجهت الى غرفتي على الفور. طاردت الذباب وأظلمت الغرفة. ثم أدرت جهاز التكييف ووضعت ملعقتين من الشاي في الترموس وناديت على فقير.

طلبت منه أن يحضر لي ماء مغلياً في الترموس فتناوله واتجه الى الباب. وعندما بلغه تحول الي وقال ان شخصاً سأل عنا في الصباح.

سألت: مين؟

قال: واحد بيشتغل في الشركة اسمه صبحي.

قلت: كان عاوز ايه؟

قال: الأسامي بس. قلت له اني معرفش أساميكم الكاملة فقال انه حيرجع بعدين.

سألته عما اذا كان الرجل أصلع الرأس ذا شارب كث فأجاب بالنفي.

غادر الغرفة وبقيت ممدداً أتطلع الى الباب. ثم انحنيت على حافة الفراش

وأخرجت من حقيبتي قرصين من الاسبرين. وعندما عاد فقير بالشاي أفرغت لنفسي كوباً وابتلعت القرصين ثم أتبعتها بقرص نوفالجين.

تناولت الترانزستور وبحثت عبثاً عن برنامج موسيقي فأعدته الى مكانه بجوار كتاب « ميكل انجلو » وأشعلت سيجارة. كان مذاق الدخان مراً فأطفأت السيجارة في المنفضة.

تناولت الكتاب ولبثت برهة أحدق الى السقف. شعرت بمفاصلي مفككة وبالارهاق التام فاستسلمت للفراش.

خيم شبح « سافونارولا » القاتم على المدينة المترفة التي يتحلق حكماؤها حول لورنزو العظيم يستشفون بعقولهم أسرار الكون ويستمعون الى كلماته. دون ذهن حر ونشيط وخلاق ليس الانسان غير حيوان. ولا بد أن يبقى مستقلاً في تفكيره ولا يربط الى نظرية جامدة كالعبد فيتعفن في قيودها. لكن عيني الراهب تلمعان بشهوة السلطة وتنظيم العالم. وها هو يرتقي المنصة بجهد من أثر الصوم المتصل ويصيح في الآلاف الذين تدافعوا ليسمعوه انه يتكلم بلسان الله وانه صوت الرب على الأرض. وتسري في الجموع رعدة ويقشعر جسد النحات. الدعوة الجديدة تنتشر كالنار والناس ينضمون الى الراهب أفواجاً وبوتشيلي يستنكر رسوماته العارية ويلقي بلوحاته الى النار التي أقامها جيش القمصان البيضاء. لكن النحات رأى خلاص روحه في فنه. وظل يردد لنفسه قول « لورنزو » أن قوى التدمير تسير في أعقاب الابداع والخلق واذا بـ « لورنزو » نفسه يستسلم على فراش الموت ويطلب غفران الراهب. وبعد سنوات معدودة أجبروا الراهب على الاعتراف قبل اعدامه بأنه اختلق تلقين الوحي الالهي. واهتز النحات من الأعماق ثم عاد الى عمله. فقد أصبح الصخر هو الشيء الوحيد اليقيني في عالم تسوده الفوضى.

اشتد بي الدوار فأغمضت عيني وغفوت. استيقظت بعد ساعتين فوجدت أن سعيداً لم يعد بعد. كان حلقي شديد الجفاف فتناولت كوباً من الشاي واستأنفت النوم.

استيقظت مرة أخرى على ضجة شديدة. كان الظلام يسود الغرفة. لكن شعاعاً من الضوء كان يتسلل من بابها المفتوح. ورأيت في فرجته شخصاً يتحسس الجدار بيده بحثاً عن مفتاح النور. سمعته يسب فتبينت أنه سعيد.

عثر على المفتاح أخيراً وأداره. تطلعت الى ساعتي فألفيتها قد تجاوزت العاشرة.

أغلق الباب وتقدم الى منتصف الحجرة. لحظت أنه يترنح قليلا. اعتدلت جالساً

وأدليت قدمي من الفراش قائلاً:

- يبدو أنك قضيت وقتاً طيباً.

ألقى بحافظة أوراقه الجلدية على فراشه وشرع يفك أزرار قميصه: لا بأس. وأنت؟

- لم أغادر الغرفة طول اليوم.

- أما زلت تشعر بالتعب؟

- قليلاً. لكني الآن أحسن حالاً.

ألقى بقميصه على مقعد وقال: شربت اليوم كمية هائلة من البيرة.

قلت: مع الروس؟

- في الاول ذهبت مع ياكونوف الى كازينو على النيل. ودخلنا في سباق على الشراب حتى كدت أفقد الوعي. وبعد ذلك التقيت بمجموعة رائعة من الشبان المصريين فشربنا معاً.

- مهندسون؟

- كلا. ملاحظون من الذين تدربوا في الاتحاد السوفياتي. أكبر واحد فيهم لا يزيد عن اثنتين وعشرين سنة.

جلس على حافة فراشه وشرع يخلع حذاءه مستطرداً: ليتك سمعتهم. حماسة وثقة. تماماً كما كنا أيام الجامعة.

- كان بودي أن أكون معك.

- سألتقي بهم غداً. تعال معي لو أحببت.

غادرت الفراش وتناولت الترموس فقال سعيد انه يشعر بصداع شديد ويريد أن يشرب قهوة. أفرغت لنفسي كوباً من الشاي. ومضى هو الى الحمام وسمعته ينادي على فقير. وبعد لحظات أحضر لنا شاب نوبي لم أره من قبل فنجاناً من القهوة.

قال سعيد وهو يرتشف القهوة: كان يجب أن ترى عمالنا عندما رأوني في الكاراج مع ياكونوف. كانت مظاهرة.

- كانوا يقرأون لك اذن.

ـ أبداً. أروني مقال جريدة الصباح عن السد وهم يتساءلون اذا كانت مثل هذه الأكاذيب تصح.

ـ وبماذا أجبت؟

ـ ماذا كنت سأقول؟ أريتهم بطاقتي حتى يتأكدوا اني لا علاقة لي بهذه الجريدة ومقالاتها.

ـ أتعرف ماذا قال لي السائق الذي ركبنا معه في الصباح؟ انه يعتقد أنك فتحي قراع متنكراً.

ـ الناس تخلط دائماً بيننا. شيء يقرف.

ـ لا أرى وجه القرف.

ـ تظن أنه شيء يدعو للفخر؟

أشعل سيجارة واستلقى على الفراش.

قلت له بعد لحظة: على فكرة. هناك من سأل عنا اليوم.

قال: من؟

رويت له قصة فقير. استمع الي صامتاً ثم اعتدل جالساً وقال: أتظن...؟

هززت كتفي فقام واقفاً وسار بضع خطوات. ثم توقف فجأة وتطلع حوله في أنحاء الغرفة. وتوقفت عيناه على جهاز التكييف الذي كان يطن بصورة متواصلة.

انحنى فوق الجهاز وصاح: لا شأن لي بأي شيء. ورفع رأسه الى السقف ثم سار الى الركن وهتف:

ـ والله العظيم أنا مع الحكومة.

بدأت أضحك فتحول قائلاً: أنا أقول الحقيقة.

قلت: وهذا ما يضحكني.

عاد الى فراشه واستغرق في التدخين.

قلت: لو حدث لنا شيء سيقتنع السائق بأنك فتحي قراع شخصياً.

ـ ماذا يمكن أن يحدث لنا؟

ـ أي شيء.

قلت بعد لحظة: أنا متشوق الى مقالك القادم يا أستاذ قراع.

قال: لست أحب هذا المزاح.

قلت: كما تشاء.

تناولت الترانزستور وأدرت مؤشره حتى عثرت على برنامج موسيقي. قال سعيد انه يريد أن ينام وأن صوت الراديو يزعجه. فخفضت الصوت وبدأت أنصت لأغنية فرنسية أحبها تبدأ بتصفيق هادىء. كرر سعيد أنه عاجز عن النوم فأغلقت الجهاز وأعدته الى مكانه على المقعد المجاور لفراشي.

استيقظنا متأخرين في اليوم التالي وتناولنا افطارنا في صمت. وعندما سألت سعيداً عن برنامج اليوم قال انه لا يشعر بالرغبة في الذهاب الى الموقع. واقترح أن نمر على عباس لنستعلم منه عمن سأل عنا بالأمس.

قلت اني لا أعتقد أنه يعمل في الشركة فاسمانا موجودان لديها.

لم يرد وغادرنا المطعم الى الحجرة. وضعت قبعتي على رأسي وتناول هو كاميرته وتطلع الى عدستها ثم سألني ان كنت عبثت بها.

أجبت بالنفي فقال انه لم يفارقها لحظة بالأمس الا عندما نام بعد أن ضبط العدسة على فتحة معينة. لكن أحداً لعب بها وغير الفتحة.

قلت اني لم أتحرك من فراشي طول الليل ولم أقترب منها. هز كتفيه وعلق الكاميرا في ذراعه ثم انطلق الى الخارج وأنا في أعقابه.

اتجهنا تحت الشمس الحامية الى مكتب عباس. وسبقت سعيداً الى كشك الصحف فابتعتها. ألفيت العناوين الرسمية عن اعتقال عدد كبير من الاخوان المسلمين وهم على وشك القيام باحدى مؤامراتهم. وكانت هناك صورة للأسلحة التي ضبطت معهم.

أعطيت سعيداً احدى الصحف ووقفنا في ظل المدخل المؤدي الى مكتب عباس. قرأنا أن الاخوان أعدوا خطة واسعة لاغتيال رئيس الجمهورية وعشرات من الممثلين والمغنين كما وجدت معهم قائمة بأسماء عدد كبير من الشيوعيين وعناوينهم. وكانوا ينوون اغتيالهم أيضاً.

قلت: كان الله في عون عباس الآن.

قلبت صفحات الجريدة بحثاً عن درجات الحرارة. وألفيتها بلغت في أسوان ٤٦ بينما لم تتعد ٣٣ في القاهرة.

لم نجد عباساً في مكتبه. وقال لنا زميل له انه لم يأت اليوم وأنه اتصل بالتليفون طالباً أن نذهب اليه في فندق جراند أوتيل في الساعة الواحدة.

كنا في الحادية عشرة لكن سعيداً أصر على الذهاب فوراً. فانطلقنا الى جاراج الشركة ولحقنا بأحدى سياراتها الذاهبة الى أسوان. جلست أمام اثنين من العمال يدور بينهما جدل حام. كان أحدهما يهاجم الروس قائلاً انهم لا يريدونا أن ننجز شيئاً بأنفسنا وأننا نملك كفاءات مثلهم وأفضل. وسخر منه الآخر الذي كان يتكلم بلهجة صعيدية ومضى يروي حكاية طويلة أراد أن يثبت بها أن الروس لا يخفون عنا شيئاً من أسرار العمل.

قال سعيد عندما وصلنا الى أسوان أنه سينزل أمام البريد ليبعث ببضع خطابات. قلت اني سأحلق شعر رأسي ثم نلتقي في الفندق. لم يرد وغادر السيارة أمام البريد. ونزلت أنا أمام نادي التجديف الذي كان طابقه الأرضي يحتوي على حلاق حديث.

كان الدكان الصغير الأنيق مزدحماً بعدد من الجالسين يتسامرون مع الحلاق بينهم جندي في ملابس عسكرية أنيقة. احتللت أحد المقعدين الخاليين المخصصين للحلاقة. وأرخيت جسدي مغمضاً عيني ومستمتعاً ببرودة جهاز التكييف.

أنصت الى الجندي يحكي عن مغامراته في اليمن وعن سذاجة اليمنيين وبساطتهم. كان الحاضرون يضحكون بين الحين والآخر. ورأيت وجه الجندي في المرآة ممتلئاً حف شاربيه بعناية فوق شفتين داكنتين من أثر التدخين المتواصل. وراقبته وهو يخرج علبة معدنية مذهبة من احدى جيوبه ثم علبة سجائر أمريكية من الجيب الآخر صف محتوياتها في العلبة المعدنية.

فرغ الحلاق من شعري فدفعت حسابي وخرجت مكرهاً الى الطريق المشتعل. انتقلت الى الجانب الآخر وألقيت نظرة على شاب وفتاتين من الأجانب استلقوا على العشب. ثم مشيت متثاقلاً الى جراند أوتيل.

دفعت الباب الدائري للفندق ودرت معه الى الداخل. كانت هناك حلقات عديدة من السياح يرتدي أغلبهم الشورتات. وقفت لحظة حتى ألفت عيناي وهج الشمس. ثم رأيت عباساً وسعيداً في أحد الأركان ومعهما شاب نوبي نحيف.

قدمني عباس الى النوبي قائلاً: الاستاذ صيام مفتش الآثار.

جلست في مواجهة القاعة أتأمل أفخاذ السائحات العارية. وسمعت النوبي يقول

انه سيتم انقاذ جميع آثار النوبة ما عدا معبد «جرف حسين». سأله سعيد عما اذا كان يستطيع الذهاب الى «أبي سنبل» على باخرة الآثار فتحولت اليه قائلاً اني أيضاً أريد الذهاب.

قال ان هناك رحلة بعد أسبوع ومن الصعب تدبير أماكن لنا عليها لكنه سيحاول.

دار حديث بين الثلاثة حول جنسيات السائحات. ثم استأذن صيام في مغادرتنا فسألته عن كيفية الالتقاء به. فقال انه يأتي الى الفندق كل ليلة ليلعب البلياردو أما مكتبه نادي التجديف.

قال عباس: سيعذبكما قبل أن يدبر لكما مكاناً. لكن الباخرة هي الطريقة الوحيدة للسفر الى أبي سنبل الآن.

سألته: هل تعرف شخصاً اسمه صبحي يعمل في الشركة؟

قال: سعيد حكى لي. صبحي هذا لا يعمل في الشركة وانما في المباحث. لقد أردت أن أقابلكما هنا لأقول لكما ان المباحث تسأل عنكما.

قال سعيد: ليس لديهم علي شيء.

قال عباس: لقد شوهدت معكما وربما يعرفون أني أعرف سعيداً من مدة. ستحوم الشكوك حولي الآن.

قال: هذا لا يعنيني فلست أنا الذي وضعك في الاستراحة. لكن الأفضل أن تنتهيا من عملكما بأسرع ما يمكن وتذهبا.

سألته: هل تعرف شخصاً أصلع له شارب كث ويتناول طعامه دائماً في الاستراحة؟

ضحك وأجاب: أجل أعرفه. انه مهندس اسمه الجلاوي.

قلت: له علاقة بالمباحث، أليس كذلك؟ لقد ضبطته يراقبنا بدقة.

قال وهو ما زال يضحك: أبداً. لقد جاءني بالأمس قائلاً ان هناك اثنين من رجال المخابرات في الاستراحة. وكان يقصدكما.

ابتسم سعيد للمرة الأولى في هذا اليوم. وأشار عباس الى مجلة على المائدة قائلاً أن بها مقالاً لسعيد عن السد.

تناولت المجلة وقلبت صفحاتها حتى وجدت مقال سعيد. كان على صفحتين بعنوان «رحلة في عز الصهد».

قلت اني أشعر بالجوع والتعب وأفكر بالانصراف. فقال سعيد ان هناك مطعماً في الفندق. قلت اني أفضل الانصراف. قال انه غير قادر على الحركة وأشار الى كتل اللحم المتناثرة حولنا وأضاف: هذا يوم لن يتكرر فكيف نذهب؟ ثم ان لدي موعداً في الثامنة مع الملاحظين الشبان. الن تأتي معي؟

قلت اني أود ذلك.

قال عباس ان زوجته سافرت الى القاهرة هذا الصباح والا كان دعانا الى الغداء في منزله.

قال سعيد انه لا يشعر برغبة في الأكل.

قلبت صفحات المجلة. وتطلع عباس الى باب المطعم وقال انه مضطر للبقاء حتى الخامسة لأنه ضرب موعداً لصحفية اسمها سامية.

قلت: سامية حسين؟ متى وصلت؟ وتطلعت الى سعيد.

قال سعيد متعضاً: أمس.

نقلت بصري بينهما.

قال عباس: سعيد غاضب لأني سألتها اليوم عنه فقالت انه لا يأخذ أكثر من أربعين جنيهاً في الشهر.

قال سعيد: أنا آخذ ثمانين كما قلت لك.

قال عباس: كيف تكون اشتراكياً وتسمح لنفسك بأن تأخذ هذا المبلغ؟

قال سعيد: أنت تأخذ مائتين.

قال عباس: لم أقل أبداً أني اشتراكي.

قلت اني سأتركهما الى مكان أتناول فيه وجبة رخيصة. فقال عباس انه يدعونا للأكل على حسابه في مطعم الفندق.

انتقلنا الى المطعم الذي كان مزدحماً بالسياح. وقال عباس بعد أن جلسنا: لا أدري ماذا يريد الشيوعيون وقد بنيت الاشتراكية!؟

قال سعيد: يريدون بناء الشيوعية. لن يهدأ لهم بال حتى يقيموا دكتاتورية البروليتاريا.

جاءنا الطعام وانهمكنا في تناوله. سأل سعيد عما سيفعله عباس بعد انتهاء السد.

قال عباس: سيكون هناك مشروع آخر. لكنني سأترك الشركة.

قلت: وماذا ستفعل؟

قال: سأشتري قطعة من الأراضي الجديدة التي سترويها مياه السد.

قلت: كنت أظن أنها ستصبح مزارع حكومية.

قال وهو يضيف قليلاً من الصلصة الى طبقه: ده كلام.

واصلنا الأكل بصمت حتى تحول الى عباس وقال انه يحتفظ بموضوعات قديمة كان سعيد ينقلها من الكتب ويقدمها لجمعية الخطابة في المدرسة على أنها من انشائه.

قلت ضاحكاً انه ما زال يفعل هذا الى الآن.

بدا سعيد غاضباً ولزم الصمت حتى انتهينا من الطعام. عدنا الى البهو فوجدناه خالياً. فانتقلنا الى قاعة التلفزيون وكانت خالية هي الأخرى فيما عدا شاب أنيق يرتدي عوينات طبية تعرف على سعيد. وقدمه الينا سعيد على أنه يعمل في حسابات الهيئة ويدعى صفوت.

جذب عباس مقعدين ووضعهما متقابلين قائلاً انه سينام قليلاً. فعلت مثله. وقال صفوت انه يفضل الفرجة على السائحات في الردهة فقال سعيد انه سينضم اليه.

تمددت على المقعدين المتقابلين الى جوار عباس. وتناولت المجلة وبدأت أقرأ مقال سعيد. كان يبدأ بحديث مع أحد وكلاء الوزارة المسؤولة عن بناء السد حكى فيه كيف جاء الى السد. وقال انه شاهد ذات يوم فيلماً عن أعمال البناء فانفعل للغاية ولم يستطع النوم. ولم يهدأ له بال بعد ذلك الا عندما نجح في الانتقال الى أسوان ليشارك في المشروع العظيم.

شعرت بصداع فوضعت المجلة جانباً. قال عباس انه يريد أن يقرأ المقال. ومد يده فتناول المجلة ووضعها على صدره دون أن يفتحها. وقال انه عاجز عن القيام بأية حركة من شدة الحرارة.

سألني بكسل عما اذا كنت قرأت صحف اليوم. فأجبت بالايجاب.

قال بنفس اللهجة الكسولة: الدور الآن على الشيوعيين. أغلقت عيني مرهقاً ولم أعلق.

جاء هواء الصباح من خلف القضبان الحديدية محملاً برائحة البحر، وقال عبد السلام ان معدته تنقلب كلما حل في الاسكندرية، وجعل يذرع الزنزانة رائحاً غادياً وهو يضغط معدته بيده، وقال ان لم يفتحوا لنا الآن لنذهب الى المراحيض سيفعلها في جردل البول، ورأينا من ثقب المفتاح سجيناً بالسروال السكندري ذي الليـة يمشي على مهل وهو يجفف وجهه بمنشفة، وقلت ان دورنا لم يحن بعد فأسرع الى جردل البول واستوى فوقه، واصطدم المفتاح في قفل الباب الحديدي بعنف، وانفرج عن عدد من الحراس يحملون أحزمتهم الجلدية في أيديهم انهالوا بها علينا وهم يصيحون بنا أن نتجرد من ملابسنا، وساقونا عرايا الى الخارج حيث اصطف عدد آخر منهم على جانبي العنبر وقد أشرعوا أحزمتهم في يديهم، وجعلونا نجري بين الصفين والأحزمة تنهال علينا، ثم أعادونا الى الزنازين حيث دفعنا حارس عجوز للركن وقلب جردل البول الذي ملأه عبد السلام فوق جسدينا، وبقينا عرايا نرتعش من البرد نحاول ازالة ما علق بأجسادنا من فضلات الجردل. ثم علا صوت الراديو بنشيد «وطني»، أعقبته موسيقى كلاسيكية قال عبد السلام في حماسة انها لبيزيه، وعندما اقتادونا الى المحكمة كان بعضنا مجللاً بالأربطة البيضاء، وقالوا انها شاهد على ما قمنا به من العدوان على الحراس العزل، ولم يكن هناك غير المحامين ورجال المباحث والبوليس وبعض الأمهات والزوجات الحائرات، واهتزت أرداف المدعي السمينة كما تهتز المرأة الحبلى، وسوى وشاحه الرسمي ولعلع صوته وقد أضيف مجد جديد الى سجل أمجاده الحافل بقضايا الاحتيال والجواسيس والاخوان المسلمين، وفي الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده الى راحته اليمنى مستمتعاً بما يجري وخلفه مساحات شاسعة من الأراضي وتاريخ من سطوة الاقطاع ومعارك وهمية لم تطلق فيها رصاصة واحدة، وابتسم لأطفاله الموردين في بياض نسل الأتراك الذي جاء بهم ليشهدوا نهاية ثورة العبيد، وأسبل قاضي اليمين جفنيه على اغفاءة سريعة بدت كالتفكير العميق فمعاملات الاستيراد والتصدير تستهلك الجهد الكبير، ولم يرفع قاضي الشمال عينه عن صديقته الملونة التي جلست في الصف الأول تشهد مدى سطوته، حتى انتصب الجسد الفارع داخل القفص، وعلا رأسه الذي لم تشوهه آثار الجدري عن مستوى القضبان، وحول أسنتها التفت أصابعه الطويلة، وكان عبثاً أن راح يجادل بالمنطق ويقول انه لا يمكن أن يعادي حكومة تبني السد،

فتحت عيني عندما أدركت أني لن أتمكن من الاغفاء. ولمحت طفلة أجنبية تجلس على مقعد قريب وقد أحنت رأسها على مسنده ودلت ساعديها الى الأرض. وما لبثت أن قامت وغادرت القاعة وهي تسير محنية الرأس يتدلى لسانها من فمها.

كان عباس نائماً. وسمعت أصواتاً نسائية في الخارج فوقفت. سويت ثم خرجت الى البهو.

كان سعيد وصفوت يحتلان مقعدين استراتيجيين. ذهبت الى الحمام ثم عدت اليهما وجلست بجوارهما مخدراً. رأيت في يد صفوت عدداً من مجلة «لايف» حافلاً بصور فتيات يرتدين البكيني. وسمعت سعيداً يحكي عن امرأة فخمة رآها في الفندق منذ أيام فحياها فردت تحيته. وبينما كان يفكر في الخطوة التالية انضم اليها دبوران مصريان أحدهما خفيف الدم سريع البديهة والآخر صائد مدرب في الخامسة والأربعين يفيض رجولة وثقة. وسمعهما يحاولان اقناعها بالذهاب لمشاهدة قبر آغاخان في ضوء القمر.

قال صفوت: أعرفهما. الأول هو الكابتن عادل الطيار والثاني قائد سلاح الحدود.

قال سعيد: الآن استرحت. فماذا يملك أي رجل في مواجهة سلاحين من أسلحة الجيش؟

لحظت فتاة طويلة في رداء منقط كجلد النمر يكشف عن ساقين منسابتين. كانت تجلس مع رجل وامرأة متقدمين في السن ويبدو على الثلاثة أنهم من الأمريكان. كانت نظرة عينيها قصيرة كمن تعود على النظارة الطبية.

تطلعت الفتاة باهتمام ناحية الباب فاتجهت ببصري الى هناك. ورأيت عجوزاً أجنبياً يرتدي قميصاً مخططاً ويأتي بحركات غريبة. تقدم بحذر من مصراع الباب ودار معه الى الخارج. وواصل المصراع دورانه واذا بالعجوز يقفز منه الى الداخل وهو يلهث.

قال صفوت: مائة في المائة هذا الخواجا لوطي. وحكى عن خواجاً آخر طلب من موظف الاستعلامات في الفندق قطعة من اللحم النيء خرج بها الى النيل مع صنارته وعاد بسمكة طلب أن تحفظ له في الثلاجة.

أقبل فوج من السائحين من الخارج ارتموا على المقاعد وهم يلهثون. كانت بينهم أفريقية حلوة ترتدي شورتاً أبيض قال سعيد أنها تشبه القشطة السوداء. ووقفت أخرى فرنسية الى جوار المروحة الكهربائية تجفف عرق شعرها. وانهارت ثالثة على مقربة مكومة فستانها الواسع في حجرها ومحدقة أمامها بعينين زائغتين.

وقفت فتاة جلد النمر فجأة واتجهت الى السلم المؤدي الى الطابق الأعلى. قال صفوت ان مشد صدرها انقطع وستصعد لتربطه. تابعت ساقيها الرائعتين وهما تتضحان للعيان كلما ارتقت احدى الدرجات. وعندما بلغت نهاية السلم استدارت

وألقت على وجوهنا المشرئبة نحوها نظرة متفحصة.

همس صفوت شيئاً لسعيد ثم هبا واقفين. وتقدما من مائدة الأمريكيين فجلسا اليها. وما لبثا أن اشتبكا معها في الحديث.

انضم عباس اليَّ وجلسنا نتأمل ما يدور على المائدة القريبة. وظهرت الفتاة مرة أخرى حاملة مظلة فوقف رفيقاها وغادر الثلاثة الفندق.

ظلَّ صفوت وسعيد في مكانيهما وقد احمر وجه الأول. وبعد قليل انضما الينا. قال صفوت وهو يجذب مقعداً: لا تظنوا اني كنت خاملاً طول العام. وشرع يتحدث عن فتاة بلجيكية تعرف بها في حديقة النباتات.

تطلع عباس الى ساعته وقال ان موعد سامية قد حان. فتوقف صفوت عن الحديث متسائلاً عن ماهية سامية هذه. وعندما عرف أنها صحفية قال أنها لن تأتي. ثم استأنف حديثه عن فتاة حديقة النباتات وفي هذه المرة كانت فرنسية.

تحول فجأة الى سعيد متسائلاً: هي سامية هذه حلوة؟

فكر سعيد لحظة ثم قال: انها سمراء نحيفة شديدة العصبية وأقرب الى الرجال.

- متزوجة؟

- لا.

قال عباس: انها شديدة عليك يا صفوت. لن تفلح معها.

قال سعيد: لا بأس من المحاولة.

قال صفوت: أنا مستعد لأن أراهنكم عليها.

ولج الفندق هندي طويل الشعر برفقة فتاة بيضاء متوسطة العمر ذات عينين مجنونتين. ثم ظهرت سامية تقترب منا في خطوات سريعة وهي تحرك يديها أمام وجهها طلباً للهواء.

قالت بعد أن استقرت في مقعد أحضره لها صفوت انها كانت في ادارة الشركة في الصباح ووجدتهم يقرأون مقال سعيد ويضعون خطوطاً حمراء تحت بعض سطوره ثم أرسلوه الى المباحث.

قال عباس: يحسن بها أن يغادرا الموقع في أقرب فرصة. نقل صفوت نظره بيني وبين سعيد.

قال سعيد: لا أستطيع الذهاب قبل الفيضان.

قالت سامية في حدة: ماذا؟ من حقهما البقاء حتى ينجزا عملهما.

تطلعت حولها قائلة أنها تشعر بعطش شديد فنادينا على النادل. وأحضر لها كأساً من الليمون ذاقته ثم وَضعته على المائدة قائلة انه خفيف.

قال عباس: الخدمة هنا ليست ممتازة.

قالت: لكني طلبت ليموناً فيجب أن أشرب ليموناً. ونادت على النادل. جاء هذا بعد دقائق فأصرَّ على أن ما أحضره لها هو ليمون حقيقي وانه ليس بالفندق غيره.

صاحت سامية في غضب طالبة مدير الفندق. وران علينا الصمت بينما تطلع الجالسون نحونا. اختفى النادل بكوب الليمون ثم عاد على الفور بكوب آخر أكدَّ لون ما فيه من سائل أنه ليمون حقيقي.

قالت سامية لسعيد أنها قضت بالأمس ليلة ليلاء مع وكيل الوزارة الذي تحدث عنه في مقاله. فقد دعاها هو ومأمور البوليس لتناول العشاء في منزله وعندما ذهبت وجدتهما قد أحضرا زجاجة ويسكي. ثم حاولا تقبيلها وقال لها وكيل الوزارة أنه مستعد لأن يتزوجها في الحال ويطلق زوجته فقالت له أنه في سن والدها.

أراد صفوت أن يعلق لكن عباس اعترضه وروى كيف ثار مأمور البوليس في العام الماضي عندما ارتدت مجموعة من الطلبة والطالبات الدنماركيين الجلاليب فجمعهم وألقى فيهم محاضرة عن الأخلاق لكنهم صفروا له وسحبوا سجاجيد الفندق الى الشارع وقضوا فيه ليلتهم.

قال صفوت في استهانة مخاطباً سامية: لست أفهم هذه الضجة التي تقيمها الصحف حول السد. المشروع ليس أكثر من عتالة كبيرة.

ردت سامية بحماسة: هذا غير صحيح. المشروع ضخم وفيه أشياء فنية من الدرجة الأولى. مثلاً قطر الانفاق. والقناة التي تم حفرها في نفس الوقت الذي كان يجري فيه سد مجرى النيل. ثم التلبيس بالرمال الذي يطبق هنا لأول مرة.

قال صفوت: وماذا عن الغرين الذي سيحتجزه السد خلفه؟ سنزرع أرضاً جديدة لتموت القديمة. المشروع أصلاً غلط.

قالت في حدة: أنا سألت بنفسي علماء كثيرين عن هذه النقطة وكلهم قالوا أن الغرين يمكن تعويضه بالسماد. ثم أن الكهرباء التي سيولدها السد ستتيح لنا زيادة

انتاج السماد.

ظهر صيام النوبي أمامنا فجأة وحيانا باهتمام. عرفه عباس بسامية فقال لها أنه على استعداد لأن يدبر لها رحلة الى «أبي سنبل». ثم التفت الينا قائلاً: والاستاذان أيضاً بالطبع.

قالت سامية انها كانت تنوي البقاء حتى موعد الفيضان لكنها تلقت مكالمة تليفونية في الصباح تحتم عليها العودة في الغد.

كرر صيام استعداده لخدمتها في أيّ وقت واستأذن منصرفاً. وتبادلت أنا وعباس نظرة باسمة.

ولجت الفندق مجموعة صاخبة من المهندسين الشباب. وقام عباس مرحباً بأحدهم الذي كان أكثرهم أناقة. وقدمه الى سامية قائلاً أنه يعمل في خطوط الكهرباء. جذب صفوت مقعداً للشاب الذي جلس الى جوار سامية. والتفت بقية المجموعة بالمائدة المجاورة.

همس لي عباس أن الشاب يمت بصلة القرابة الى رئيس مجلس ادارة الشركة ورئيس الاتحاد الاشتراكي فيها. وقالت سامية أنها تود أن تزور أحد مواقع بناء أبراج الكهرباء. فقال الشاب أنهم يعملون الآن بالقرب من «نجع حمادي» وأنه على استعداد لأن يأخذها الى هناك في سيارته.

سأله سعيد عما اذا كانت هناك مشاكل مع الفلاحين بسبب اختراق الخطوط لأراضيهم في بعض الأحيان. فأجاب بالنفي وقال أنهم على العكس متحمسون للغاية ويسألون دائماً عن موعد وصول الكهرباء. ثم أضاف: مرة انغرزت سياراتنا في الرمال بالقرب من احدى القرى فخرجت القرية كلها لمساعدتنا.

لمحت سامية شاباً أسمر يلج الفندق فصاحت مشيرة اليه: هذا هو.

سألها مهندس الخطوط الأنيق: من؟

قالت بنفس الصوت المرتفع: كان حضرته يضع خطوطاً حمراء تحت سطور مقال كتبه الأستاذ سعيد. ثم بعث به بعد ذلك الى المباحث.

بدت الدهشة على وجه المهندس الأنيق الذي تحول يتأمل سعيداً في امعان. وفي هذه الأثناء كان الشاب الأسمر قد دنا منا وحيانا بأدب فصاحت به سامية: ألا يحسن بك أن تشغل نفسك بعمل له قيمة بدلاً من الكلام الفارغ الذي تقوم به؟

فوجيء الشاب ووقف لحظة عاجزاً عن الاجابة ثم قال: يا ست سامية أنا لم أفعل غير المطلوب مني.

أجابت سامية: اذن بلّغ كلامي لأسيادك.

دوّى صوتها في أنحاء البهو وتطلع الينا الجالسون في دهشة. وتوقف الحديث في حلقة الشبان المجاورة لنا والتفتوا نحونا. شعرت فجأة ان حلقتنا قد خفت. ولمحت صفوت عند الباب مع بعض الشبان وسمعتهم يعلقون ضاحكين على صوت سامية وهم يغادرون الفندق: ونش.

تململ مهندس الخطوط الأنيق في مقعده قلقاً ثم نهض واقفاً وقال أنه مضطر للذهاب. وقام عباس مسرعاً قائلاً أنه سيرافقه. وبقيت أنا وسعيد بجوار سامية. وبدا سعيد واجماً.

علق سعيد الكاميرا في كتفه وقال: لا بد أن ننصرف الآن لأن لدينا موعدا.

قلت: ما زال أمامنا بعض الوقت. دعنا نبقى قليلا.

أصر سعيد على الذهاب قائلاً أننا لن نضمن الأتوبيس.

قلت: ولكننا سنترك سامية بمفردها. لنبق معها قليلا.

قال: ابق أنت ان أحببت.

قالت سامية: لا تقلقا عليّ. إذهبا. أنا لديّ موعد بعد قليل.

وقفنا وصافحناها فقالت لسعيد: لا تعبأ بأحد. سأصنع أكبر ضجة في القاهرة ولن يستطيع أحد أن يمسك بشيء.

قال لي سعيد عندما غادرنا الفندق: آسف اذا كنت انتزعتك من صحبتها.

قلت: كان يمكن أن نبقى معها قليلا.

قال: أنت تعرف أن لدينا موعداً.

قلت: لكن ما زالت أمامنا ساعة.

قال: والمواصلات؟

قلت: الحقيقة أنك غاضب منها.

قال: هذا غير صحيح. كل ما في الأمر اني لا أستطيع أن أقضي وقتي كله مع هؤلاء الثرثارين وهذه الفتاة.

قلت: ماذا لديك ضدها؟

انفجر قائلاً: انها تستطيع ان تتكلم هكذا لأنها غنية ولا يهمها مرتبها. أما أنا

فلديّ أسرة أعولها.

قطعنا بقية الطريق بصمت حتى بلغنا موقف الأتوبيس. واعتمدت على حاجز حديدي شاعرا بالارهاق ولزوجة العرق في انحاء جسدي.

فكرت في المغامرات التي تنتظرنا حتى نصل «السيل» ثم الاستراحة. وسألت سعيدا أن يتأكد من وجود عنوان الشبان معه.

قال: أعتقد أنه معي.

قلت: لن تخسر شيئاً اذا ما تأكدت حتى لا نقوم بمشوار بلا فائدة.

قال: لست مستعداً للقيام بأي حركة في هذا الحر.

لزمت الصمت وراقبت ظهور الأنوار الكهربائية في المحلات. وتجمع شيء من البلغم في حلقي فبصقته في منتصف الطريق. وأخيراً أقبل الأتوبيس المخصص للسيل وهو روسي الصنع يتميز بباب واحد عريض في منتصفه.

كان الأتوبيس مزدحما وعندما حاولنا الركوب أغلق أحد الركاب الباب في وجهنا قائلا ان الحر في الداخل لا يحتمل.

عدنا الى مكاننا في ضيق. ولمحت ماسح أحذية يقتعد الأرض على بعد خطوات فتقدمت منه ووضعت قدمي اليمنى على صندوقه. وعندما انتهى منها وهممت باستبدالها ظهرت احدى سيارات الركاب التابعة للهيئة والذاهبة الى الموقع. فألقيت الى الماسح بقرشين وجريت الى السيارة. وشققت طريقي داخلها خلف سعيد.

نزلنا أمام «السيل» بعد عشر دقائق فعبرنا الطريق الرئيسي ثم سرنا في شارع ترابي الى جوار صف من المجمعات السكنية الشبيهة بمجمعات الأحياء الشعبية في القاهرة. كان بعضها يبدو نظيفاً تبرز من جانبه أجهزة التكييف وتظهر في مداخله سيدات روسيات. والى يسارنا سوق حافل من الأكشاك التي تضيئها المصابيح الكهربائية وتباع فيها الخضراوات والفاكهة.

مررنا بمجموعة من السيدات الروسيات ازدحمن حول كشك يبيع الأعصرة. ثم انطلقنا الى جوار فناء مسور أمام احدى المجمعات جلست به سيدتان روسيتان فوق دكتين. وعلى دكة أخرى أمام المجمع المقابل اصطف عدد من الشبان المصريين. وأقبلنا على فناء مسور آخر تحول الى مقهى شعبي رشت الأرض الترابية أمامه بالمياه.

كنا قد ابتعدنا عن منطقة السوق. واتجه سعيد الى عمارة تجمعت أمامها

الفضلات وظهرت القلل في شرفاتها.

صعدنا الى الطابق الأخير. وطرق سعيد الباب لكن أحداً لم يرد. فأخرج مفكرته من جيبه وتأكد من العنوان ثم عاد يطرق الباب دون جدوى.

هبطنا الدرج وأنا أشعر بنوع من الارتياح. وانطلقنا الى الطريق الرئيسي ونحن نتعثر في الظلام.

وقفنا على جانب ننتظر. ومرت بنا سيارتان خاصتان تبعتهما بضع سيارات أخرى مسرعة. ولم يعبأ السائقون بنا رغم أننا كنا نتقدم الى عرض الطريق ونعترض كشافاتها قبل أن تقترب بمسافة.

دنا منا أحد الصعايدة الذي ظل يرقبنا بعض الوقت. واقترح علينا أن نستقل القطار من المحطة القريبة. وقال أننا نستطيع اللحاق بالقطار الذي يقل وردية المساء الى الموقع. شكرناه وسرنا الى حيث أشار. وما لبثنا ان سمعنا صوت محرك قطار فأسرعنا نجري حتى ظهرت المحطة. ورأينا القطار يدخلها.

لحقنا بالقطار قبل أن يستأنف المسير. وقفزنا الى احدى العربات. أدركت بعد لحظة ان القطار غارق في ظلام دامس.

تلمسنا طريقنا بصعوبة. وتعثرت بأحد الأجسام. فأخرجت علبة الثقاب وأشعلت عودا رفعته الى أعلى. والتقت عيناي بعيني صعيدي تحيط برأسه لفافة بيضاء. أدرت العود حولي فرأيت الباحة الفاصلة بين العربتين قد امتلأت بالعمال الذين اقتعدوا الأرض وأسندوا رؤوسهم الى الجدار.

انطفأ العود فأشعل سعيد عوداً آخر. وشققنا طريقنا بين الأجسام المتراصة. وتقدمنا في الممر الذي يفصل بين صفين من المقاعد الخشبية.

عثرنا على مكانين متجاورين فجلست بجوار النافذة. وكان الظلام كثيفاً في الخارج لا يبين معه شيء.

سار القطار ببطء وقد ساد السكون ارجاء العربة. ولم يكن يقطعه سوى صوت تنفس العامل الذي يجلس في مواجهتي. وادركت من نغمته انه غارق في النوم.

ارتفع صوت بائع عرقسوس ينادي على بضاعته في طرف العربة. ثم انقطع صوته وساد السكون من جديد.

أغلقت عيني في مواجهة الحرارة الآتية من النافذة. وأسندت رأسي الى حافة المقعد. وعندما فتحتها بعد قليل رأيت أضواء الموقع تملأ الأفق.

(٤)

توقفت سيارة « الفولجا » أمام مبنى من طابقين أشبه بالمدرسة. وجذبت قماش سروالي الذي إلتصق بفخذي من العرق مغادراً السيارة في أعقاب ياكونوف. ولجنا مركز التدريب الذي يتحول فيه آلاف المصريين الى عمال مهرة. وانطلقنا في ردهة طويلة الى غرفة المديرة.

استقبلتنا امرأة ضخمة ذات وجه جامد لا يعرف الابتسام. قال ياكونوف وهو يقدمها لنا أنها مهندسة ولها في بلادنا عدة شهور.

سألها سعيد عما اذا كانت تعيش مع أسرتها. فاحمر وجهها وقالت أنها بمفردها. ثم أضافت بعد لحظة أنها فقدت زوجها في الحرب وليس لها أطفال.

ران علينا الصمت وهربت بعيني الى صورة لينين المعلقة على الحائط فوق رأس المديرة.

اقترح ياكونوف ان نبدأ جولتنا في أنحاء المركز. وتبعنا المديرة الى فصول التدريس. كان أغلب المدرسين من المصريين أما الطلبة فكانوا من مختلف الأعمار والمهن. وكانت الموضوعات التي تدرس لهم متباينة تماما من تركيب الآلات المستخدمة الى المواد المكونة لسائل الحقن.

إلتقط سعيد عدة صور للفصول. وفي كل مرة كان المدرس يستمهله حتى يجلس العمال في نظام. ويجعلهم يركزون أنظارهم في اهتمام على يديه وهي تشير الى رسم ما على السبورة.

عدنا الى مكتب المديرة. ووجه سعيد اليها عدة أسئلة عن انطباعاتها في مصر. وأسرع يسجل قولها أن العمال المصريين يمتازون بالذكاء وان الطيور تأتي من الاتحاد السوفياتي كل عام دليلاً على الصداقة.

غادرنا المركز الى السيارة. وتمهل ياكونوف بجوارها يتأمل سحابة من الغبار صفراء اللون تجمعت في الأفق ثم قال ان الجو يسوء من يوم الى آخر مع اقتراب موعد الفيضان.

انطلقت السيارة في اتجاه الموقع. وقال ياكونوف انه سيأخذنا الى أحد المراكز التي تشرف على حركة العمل اليومي ثم يتركنا هناك ويعود الى مكتبه.

قال سعيد أننا نود أن نعرف كيف يعيش الروس في منازلهم. فقال ياكونوف في خجل انه يدعونا الى منزله في الغد.

قال سعيد أن هذا رائع وأنه سيكتب موضوعاً مثيراً عن هذه الزيارة ولهذا من الأفضل أن يكون هناك عنصر نسائي.

نظر اليه ياكونوف في خبث وقال في انجليزيته الركيكة: ليتك ذكرت هذا ونحن في المركز. كنا دعونا المديرة.

سارع سعيد قائلاً: لا. ثم ارتبك وسكت بينما انفجر ياكونوف ضاحكاً.

قال: من تقترح اذن؟

قال سعيد: ربما احدى الفتاتين اللتين رأيناهما في مكتب أبراسيموف. الشقراء مثلا.

قال ياكونوف: سأقول لها وان كنت أشك أنها ستقبل. ثم أنها لا تتكلم الانجليزية جيدا. انها أسوأ مني.

- لكننا قادرون على التفاهم معك.

- سأحاول والأفضل أيضاً أن أبحث عن مترجم يكون معنا. ربما قبلت الفتاة الأخرى المجيء.

سألت تانيا؟

قال: أجل. فهي تجيد الانجليزية وتعمل مترجمة.

أعطانا العنوان قائلا ان المنزل لا يبعد عن النادي الروسي في «كميا». كنا قد بلغنا جسم السد وانطلقنا فوقه. وفجأة أوقف السائق السيارة. ورأينا طابورا من سيارات «الماز» يسد الطريق.

غادر السائق السيارة وعاد بعد قليل فتحدث الى ياكونوف. وأوضح هذا لنا أن احدى الشاحنات انغرزت في الأرض المبللة.

أصبح الجو خانقاً داخل السيارة فغادرتها ووقفت الى جوار احدى الشاحنات المحملة بالرمال. كان العادم ينطلق من مؤخرتها في سحب كثيفة بينما سائقها يحاول الخروج بها من الطابور.

نجح السائق أخيراً في التحول الى اليمين وتقدم في طريق غير ممهد يأخذ في الانحدار ثم استدار ناحية اليسار حتى أصبح يواجهنا. وتراجع الى الخلف بمؤخرة الشاحنة التي تجمع الدخان الأسود فوقها. ورأيته في مكاني ينحني الى الأمام ويجذب شيئاً في جهد. وما لبث صندوق الشاحنة ان أخذ يرتفع حتى استقر في وضع رأسي فوقها. وانهمرت حمولتها في ضجة مثيرة موجة من الغبار.

أشار أحد الملاحظين للسائق فشرعت «الماز» تتحرك الى الأمام وما زال صندوقها معلقاً في الهواء. ثم انطلقت خفيفة وصندوقها يهبط رويداً حتى عاد الى وضعه. ومن الناحية الأخرى اتجه أحد البلدوزرات الى كوم الرمال الجديد وقد ارتفع درعه الأمامي العريض عن سطح الأرض ولمع سطحه المعدني في ضوء الشمس. وتوقف البلدوزرأمام كوم الرمال. وهبط درعه حتى استقر على الأرض. ثم عاود التحرك وزحف مكتسحاً الرمال بدرعه.

انفتح الطريق أخيراً وعدت الى «الفولجا». استأنفت السيارة سيرها فوق جسم السد حتى نهايته فانطلقت في طرقات ملتوية ثم توقفت أمام مبنى خشبي.

ولجنا مكتباً تغطي الخرائط جدرانه. وقدمنا ياكونوف الى مهندس روسي أحمر الشعر شديد الهدوء استمع اليه في اهتمام مدة طويلة تكفي لعرض تاريخ حياتنا. ثم سلمنا بدوره الى مهندس آخر أسنانه كلها معدنية ويعرف الانجليزية. وانصرف ياكونوف بعد أن أكد علينا ان نذهب الى منزله في الغد.

جلست على مقعد يواجه مروحة كهربائية. وانكب سعيد على عديد من القوائم والخرائط أحضرها ذو الأسنان المعدنية. كان بعضها خاصاً بمعدلات ما يتم إلقاؤه فوق جسم السد من صخور ورمال وطمي في كل وردية.

قال ذو الأسنان المعدنية: الردم هو آخر العمليات في بناء جسم السد. وهو يعني إلقاء الصخور والرمال ثم تسويتها بالبلدوزرات ودكها بعد ذلك بالهراسات.

دخل الغرفة عاملان أحدهما روسي والآخر مصري. واتجه الروسي الى المهندس

ذي العوينات وتحدث اليه شاكياً من شيء ما.

انحنى المصري على مكتب ذي العوينات وقال في مزيج غريب من العربية والروسية: موجنا كلام؟

ابتسم ذو العوينات وقال: موجنا.

قال العامل: يا ميكانيكي نيبيت رابوتشي... ولم يسعفه لسانه بالمزيد فحرك يديه في اشارت غامضة.

تحول العامل الروسي الى زميله المصري غاضباً وقال: شيف كلام كل رابوتي.

هز ذو العوينات رأسه مؤمنا وبسط أصبعين من يده اليمنى ثم ضمهما الى بعض بشدة وقال: كل رابوتي سوا سوا.

لم يقتنع ابن بلدنا وكرر: يا ميكانيكي نيت رابوتشي. ثم هز كتفيه واستدار مغادرا الغرفة.

استفسر سعيد من ذي الأسنان المعدنية عن الأمر فقال في حرج ان الميكانيكيين المصريين يترفعون عن القيام ببعض العمليات البسيطة التي يعهد بها عادة الى العتالين. وكان الملاحظ الروسي يطالب بامداده بعتالين مصريين.

دون سعيد بعض الأرقام والبيانات في مفكرته وغادرنا المكان. وقفت في مدخل المبنى أثبت قبعتي على رأسي وأتأمل الجو المكفهر. وقال سعيد ونحن نخطو الى الطريق ان الحرارة بلغت حداً لم يعد يحتمل.

بلغنا مرتفعاً من الأرض يشرف على ممري التفتيش من بعيد. كانت هناك عدة بلدوزرات تتحرك في اتجاهات مختلفة فوق مساحة من الرمال مكتسحة أمامها أكوام الرمال تاركة خلفها خطوطاً عريضة ممهدة تحف بها على الجانبين خطوط رفيعة من الرمال العالية.

إلتقط سعيد عدة صور للبلدوزرات والخطوط العريضة المتوازية التي تصنعها. وتحولنا نبحث عن طريق تمضي فيه السيارات. سرنا مسافة دون أن نصادف طريقاً مطروقاً. ومررنا بجوار مساحة واسعة امتلأت بالشبكات الحديدية التي عكف عليها عدد من عمال اللحام. ولمحنا سيارة جيب تهم بالتحرك فجرينا نحوها. وكان السائق قد لمحنا فانتظر حتى لحقنا به وأقلنا حتى المستشفى.

أكملنا الطريق الى الاستراحة سيراً على الأقدام. وعندما أوشكنا ان نبلغها اقترح سعيد ان نمر على عباس فذهبنا اليه.

قال عباس عندما رآنا البوليس الحربي حاصر الجاراج منذ نصف ساعة واعتقل أحد الميكانيكيين.

وضع سعيد قبعته على المكتب وسأل: اخوان؟
هز عباس رأسه وقال: لا أحد يعرف السبب بعد.

وتطلع من النافذة ثم أضاف: هل بقي أمامكما وقت طويل حتى تنتهيا؟
قال سعيد: ما زال أمامي الفيضان وفتح الانفاق. وبعد ذلك سنقوم برحلة الى أبي سنبل ثم أعود الى القاهرة.

قال عباس: رأيي ان تذهبا الى المباحث وتتكلما معهم.
تناول سعيد قبعته ووضعها على رأسه قائلاً: سنفكر بالأمر.

سألنا عباس ونحن نتأهب للانصراف. هل سافرت سامية؟ أمس هبت عاصفة رملية ربما تكون عطلتها.

أجبت: لا. لقد سافرت فعلا.

غادرنا المكتب وسرنا أسفل أشعة الشمس الحامية حتى الاستراحة. قال سعيد ونحن نقطع الردهة الكابية الضوء المؤدية الى غرفتنا: أراهن أن مقابلاتنا مع الروس ستسبب لنا المشاكل. ربما كان يجب أن نذهب الى المباحث ونتفاهم معهم.

قلت: أنا لن أذهب متطوعاً.

دخلت الغرفة فتناولت منشفة وأسرعت الى الحمام. خلعت ملابسي وعلقتها خلف الباب. وعندما وقفت في حوض الاستحمام وأدرت الصنبور اكتشفت ان المياه مقطوعة.

ارتديت ملابسي من جديد وعدت الى الغرفة. كان سعيد منحنياً أمام جهاز التكييف يعبث بأزراره. وقال عندما رآني ان الجهاز معطل.

قلت: ربما عبث به أحد.

غادرنا الغرفة بحثاً عن فقير. ووجدناه على باب المطعم. قال ان المياه مقطوعة منذ ساعتين بسبب عطل في الأنابيب الرئيسية. ووعد بأن يأتي لنا بكهربائي لإصلاح جهاز التكييف.

ولجنا المطعم فوجدناه مزدحماً بالآكلين الذين أقبلوا على طعامهم في صمت تام. جلسنا الى مائدتين متباعدتين وما لبثت ان سمعت شخصاً خلفي يقول أن أحد العمال

مات بالحمى المخية فعارضه آخر قائلا انها كوليرا. ثم ساد الصمت من جديد.

وجدنا المياه ما زالت مقطوعة عندما أردنا أن نغسل أيدينا. وعدنا الى الغرفة فبدأ سعيد يخلع ملابسه. واكتشف ان سرواله تلوث بالشحم فقلت انه بالامكان تنظيفه هنا. فقال انه لن يغسله وسيحتفظ به كما هو للذكرى.

قلت: أو تصوره وتستخدم الصورة في احدى المقالات.

لم يعلق وانهمك في طيّ السروال بعناية شديدة ثم أودعه حقيبته. واستلقى على فراشه يدخن.

فكرت بمطاردة الذباب واغلاق النافذة لكني عدلت عن ذلك بسبب الحرارة. فاستلقيت على الفراش بملابسي الداخلية. وما لبث الذباب ان تجمع حولي فحاولت طرده باليد لكنه كان يحط على جسدي من جديد ملتصقاً به في عناد.

فرغ سعيد من سيجارته وأعطى وجهه للجدار واضعاً ساعده على وجهه في محاولة للنوم. قمت فطاردت الذباب بمنشفة حتى أخرجت أسرابه من النافذة فأسرعت باغلاق مصاريعها. وساد الغرفة ظلام مريح.

استلقيت على الفراش باسطاً ساقي على سعتها. وبعد قليل صار جو الغرفة خانقاً. فأعدت فتح النافذة. وعاد الذباب يلتصق بجسدي. جذبت ملاءة الفراش فوقي لكني ابتللت من العرق وكدت أختنق. فألقيت بالملاءة جانباً وغفوت لحظات ثم تنبهت على إلحاح الذباب فوق وجهي. فطردته بعيداً وجذبت الملاءة فوقي. وغفوت مرة أخرى. وحلمت ان الصفحة الاولى من الجريدة ملوثة بالشحم وان اسمي منشور في صدرها. ثم حلمت بأني آخذ قرص اسبرين. وفتحت عيني شاعراً بصداع عنيف.

أنزلت الملاءة حتى ساقي فقط. واستدرت ناحية الجدار. ثم طويت ساعدي وغطيت بها وجهي وسرعان ما غفوت.

حلمت بأبي يعطيني موعداً في السابعة الا ربعاً لأتسلم منه أشياء خطرة لعلها كانت منشورات سرية. وكان يحدثني بصوت رصين وأنا في عجب مما طرأ عليه من تغيير رفعه الى مستوى هذه الأشياء. كان وجهه أسمر غير كامل الملامح وقد ارتدى بذلته السوداء ذات الصديري. وفي الساعة السادسة اكتشفت مصادفة ان هناك من يتعقبني. وفكرت بألا أذهب الى أبي كي لا أعرضه للخطر. لكن كيف أتركه في الشارع بالأشياء التي يحملها؟ وقررت أن أتخلص ممن يتعقبني في الأزقة المجاورة.

مضيت أنتقل من زقاق الى آخر وأنا أتطلع خلفي باستمرار. وفجأة جذبني صبي صغير من يدي مشيراً الى باب أمامي. وقال اني لو دخلت منه وأغلقته خلفي وضغطت على شيء بالداخل سيتساقط منه الماء. سألته عن البيت فقال انه قصر مهجور. وقادني الى الداخل حتى بلغنا سلماً تتدلى منه نباتات خضراء متهرئة. ولسبب ما شعرت بالرعب وقال الصبي أن أحداً لا يصعد الى أعلى. تطلعت الى ساعتي فوجدت أنه لم تعد أمامي سوى ربع ساعة على موعد أبي. فأسرعت أغادر المنزل. ورأيت رجلين ينتظراني في نهاية الزقاق فأدركت انهما اللذان كانا يتعقباني فعدت أدراجي بحثاً عن النهاية الأخرى للزقاق واذا بي أجده مسدودا.

استيقظت على قرع الباب. وقام سعيد يفتحه فرأيت فقيراً ومعه شاب يحمل حقيبة حديدية. قال فقير انه أحضر الميكانيكي الذي سيصلح الجهاز. فأفسح لهما سعيد الطريق وتقدم الميكانيكي من الجهاز ثم ركع أمامه واضعاً حقيبته على الأرض.

عاد سعيد الى فراشه مستفسراً من فقير عن المياه فقال هذا انها لم تعد بعد. ودليت قدمي من حافة الفراش وجعلت أرقب الميكانيكي وهو ينتزع المسامير المثبتة في واجهة الجهاز. وعندما انفصلت الواجهة وضعها بعيداً. وتبادلت نظرة سريعة مع سعيد.

ظللنا نرقب الميكانيكي بدقة حتى انتهى من عمله وأعاد للجهاز واجهته. وسرعان ما تردد طنينه كالعهد به. وانتشرت البرودة المنعشة في أرجاء الغرفة.

قال فقير وهو يتأهب للانصراف ان العقارب ظهرت وعلينا ان نأخذ حذرنا ونحكم اغلاق النافذة والباب. طلبت منه أن يبحث لي عن قليل من الماء بأية طريقة. فأحضر لي كوبا ابتلعت به قرصا من النوفالجين.

تناول سعيد أغطية فراشه ونفضها في الهواء ليتأكد من خلوها من العقارب. تطلع أسفل فراشه وفي أركان الغرفة. وفعلت المثل بفراشي. ثم تناولنا منشفتين وطاردنا الذباب وأغلقنا النافذة.

في السادسة سمعنا صوت فقير في الفناء يهلل معلناً عودة المياه. قال سعيد اننا نستطيع اللحاق بالسيارة الذاهبة الى أسوان. وسألني إنْ كنت أحب أن أرافقه فقلت أني لا أمانع.

سبقت سعيداً الى الحمام. وعدت الى الغرفة فأخرجت قميصاً نظيفاً من الصوان ونفضته بعيداً عني عدة مرات ثم ارتديته. وفعلت المثل بالبنطلون.

غادرنا الاستراحة الى جو أصفر مشحون بالاتربة. ولحقنا بسيارة السابعة الا ربعا المخصصة للمهندسين. جلسنا خلف كهلين متأنقين كانا يتبادلان حديثاً هادئاً به شيء من الكلفة. وكان أحدهما يرتدي عوينات طبية سميكة سوداء اللون وتتصاعد منه رائحة عطر أولد سبايس.

منع السائق عدة شبان من الركوب وهو يصيح بصوت رفيع ناعم: المهندسون فقط. وعندما أراد احدهم الاحتجاج هاج وصاح بصوته الرفيع ان كل انسان يجب ان يعرف مكانه.

انطلقت السيارة والسائق مستمر في حملته على أنصاف المتعلمين وكل من هبّ ودبّ ممن يظن بعد قليل من التدريب انه ارتفع الى مستوى المهندس. وعندما بلغنا أسوان نزل المهندسان الكهلان امام «جراند أوتيل». ونزلنا نحن أمام نادي التجديف.

جلسنا في الشرفة الدائرية التي تضيئها مصابيح كابية. وأحضر لنا النادل زجاجتين ساخنتين من البيرة. كان الجو مكتوماً ساكناً ليست به نسمة واحدة من الهواء. شربنا في صمت ونحن نتطلع الى الشاطىء الآخر الذي اختفى في الظلام خلف غمامة من الغبار. وتسللت رائحة الرمال الى انفاسي وعاد الصداع الى رأسي.

غادرنا النادي بعد قليل ومشينا في اتجاه «جراند أوتيل» كانت أضواء مصابيح الكورنيش والحوانيت توشك أن تختفي خلف الغمامة الصفراء. وعندما بلغنا الفندق رأينا أمامه أتوبيساً سياحياً. ولمحنا خلف إحدى نوافذه جانباً من بار ذي أضواء حمراء خافتة ازدحم بخليط من المصريين والأجانب.

دفعت الباب الدائري وسعيد في أعقابي. ولمحت المهندسين الكهلين في البهو يتابعان مجموعة من السائحات العجوزات تجمعن حول أعمدة المراوح الكهربائية. مضينا في الردهة المؤدية الى البار. ومررنا بغرفة البلياردو حيث كان صيام يلعب مع شخص أوروبي جلست فتاته كالملكة تتفرج عليهما.
لم نجد مكاناً في البار الا الى جوار اثنين من المصريين لمحت احدهما من قبل عدة مرات في الفندق. كانا يتبادلان حديثاً هامساً وهما يتطلعان الى فتاة اجنبية تجلس الى منصة البار.

كانت الفتاة ممشوقة القوام معتدة بنفسها. وكانت تتحدث مع شاب مصري يقف الى جوارها. ورأيته يطلب لها كأساً من الويسكي جرعته دفعة واحدة. كان الشاب

قصيراً تصدر عنه حركات كوميدية. وتعرف سعيد على الفتاة قائلا انها تعمل في شركة سياحية أجنبية وتأتي دائماً مع المجموعات السياحية.

أحضر لنا النادل زجاجتين من البيرة. وجعلنا نتأمل الجالسين في أنحاء القاعة الخافتة الضوء. وراقبت فتاة شقراء كانت تحتسي كأسها دون أن ترفع عينيها عن قاعه.

قام رفيقانا فجأة وانضما الى الشاب القصير ذي الحركات الكوميدية. ورأيتهما يطلبان للفتاة كأساً جديداً من الويسكي. وترامت الى سمعنا بضع كلمات من حديثهما. وكانا يتحدثان بانجليزية ركيكة.

فرغت زجاجاتنا فدفعنا حسابنا وعدنا الى البهو. وانتحينا ركنا الى جوار المروحة العمودية. وكان المهندسان الكهلان ما زالا في مكانيهما.

كان ثمة تقويم سنوي على الحائط المجاور لي تتوسطه صورة كبيرة لمعبدي «أبي سنبل». وفي الركن العلوي من الصورة كانت هنا صورة مكبرة لواجهة المعبد الكبير وحده ظهرت فيها تماثيل رمسيس الأربعة العملاقة بوضوح وقد سقط رأس التمثال الثالث عند قدميه.

نقلت بصري بين الرؤوس الثلاثة التي تحمل نفس الابتسامة. ثم تحولت أشرب البيرة التي طلبها سعيد. وأبصرت بالفتاة الشقراء التي كانت تجلس في البار تتقدم ناحيتي. ثم أولتني ظهرها ووقفت تتأمل صورة المعبدين. وانحدر بصري فوق ردائها القصير الى ساقيها المتناسقتين اللامعتين. وتابعت قطرة عرق انزلقت على فخذها ثم ساقها التي خلت من الشعر.

مضت الفتاة الى قاعة التليفزيون. وظهرت الفتاة الأخرى التي كان الشبان الثلاثة يعاطونها الويسكي في البار. كانت تتقدمهم حاملة سيجارة في يدها. وجلس الأربعة وسط البهو. وكف الكهلان عن الحديث وتحولا يرقبان الفتاة ورفقاءها.

أخذ بقية السائحين الذين كانوا في البار يتوافدون على الفتاة يطلبون منها حبوباً منومة. وسمعناها تشرح لهم برنامج الغد بالفرنسية.

ظهر صيام في مدخل البهو. وتطلع ناحيتنا ثم حول بصره بعيداً. فقمت اليه قال بعد أن تصافحنا: تعرف طبعاً أن سامية سافرت أمس؟ أجبت بالايجاب وسألته اذا كان قد حجز لنا على باخرة أبي سنبل.

قال: الرحلة تأجلت.

قلت: ومتى تتم؟

هز كتفيه وهو يتطلع الى حيث جلس المصريون الثلاثة حول الفتاة الأجنبية ثم قال: في خلال أيام. سأحجز لكما بالتأكيد.

عاد صيام الى الداخل بعد أن وجه التحية الى الشبان الثلاثة. ورأيت سعيداً يغادر مقعده فمضينا الى الخارج معا. مشينا متثاقلين من أثر البيرة والحر في الطريق الى ميدان المحطة. ورأينا فتاة مصرية تسير بمفردها على الرصيف وخلفها ثمانية شبان. قال سعيد عندما حاذيناها أنها قاهرية بالتأكيد وغير جميلة والا ما جاءت الى هنا.

عبرنا الميدان الى موقف سيارة المهندسين. ولحقنا به قبل موعد تحركه بدقائق. كان الجو خانقاً داخل السيارة. وجلست معتمداً برأسي على مسند المقعد الامامي.

تحركت السيارة بعد ربع ساعة وتوقفت عدة مرات في الطريق لتلتقط ركابها. وتوقفت مرة أخرى أمام «جراند أوتيل» لتأخذ المهندسين الكهلين ثم استأنفت السير الى الموقع.

بدا الطريق مكفهراً كأنما يغلفه الضباب. كانت أنواره تكاد تختفي تماما تحت غلالة صفراء. وكانت استراحتنا هي الاخرى مغلفة بنفس الغلالة.

أويت الى الفراش على الفور ونمت نوما عميقاً دون أحلام. استيقظت في الصباح على صوت فقير. وسمعته يقول ان الموتى يتساقطون في كل مكان.

اعتدلت جالساً متسائلا عما حدث.

قال: محدش عارف. يمكن تكون كوليرا.

أفطرنا بسرعة وذهبنا الى عباس نستوضحه جلية الأمر. فقال ان أحد عمال الخرسانة سقط ميتاً في الفجر بعد ارتفاع مفاجىء في درجة حرارته. كما وجد بائع الفول المواجه لمنزله في أسوان ميتاً بجوار عربته. سأله سعيد عن رأي المسؤولين فهز كتفه وقال: رأيهم أنها ضربة شمس.

سألته عما اذا كان هذا حدث من قبل.

قال: أبداً. أقصد فيه ناس كانت بتموت بضربة الشمس. يمكن واحد كل شهر. أما بالجملة هكذا...

قلت: ربما كان هناك وباء من نوع ما. كوليرا مثلا...

قال: لكن المصابين بالكوليرا او الحمى المخية لا يموتون هكذا في ثوان.

قلت: والاطباء؟ ماذا يقولون؟

قال: لا أعرف. الأطباء معظمهم في اجازة. والاصابات الآن محصورة في نطاق العمال والصعايدة. وهؤلاء سيواجهون الموت بشعار العمر واحد والاجل محدود.

قلت: واذا انتقلت الى المهندسين وكبار الموظفين؟

قال: عندئذ تقع ثورة.

تطلعت من النافذة الى الجو المترب. وفكرت بهذا الشيء الغامض الذي يشن هجوماً خاطفاً في أماكن مختلفة بين أسوان والموقع.

قلت: ربما كانت ثمة علاقة بين عاصفة اليومين الماضيين وما حدث.

لم يعلق أحد. ونهض سعيد مقترحاً الذهاب الى المستشفى. وقال عندما صرنا في الطريق: اذا اتضح أن هناك وباء ما سأعود الى القاهرة فوراً.

قلت: تكون مخطئاً.

قال: لست مستعداً للتضحية بحياتي.

قلت: ولو قالوا انك رحت شهيد واجبك الصحفي؟

- ولو جعلوا مني بطلاً وطنياً.
- وأبو سنبل؟
- في داهية.

مشيت الى جواره في صمت مطرق الرأس. وعندما اقتربنا من المستشفى قلت: أنا أيضاً غير مستعد للتضحية بحياتي. لكني سأبقى.

قال: هأ... تريد أن تبقى مع الجماهير حتى النهاية؟

قلت: وما قيمة هذا؟

قال: اذن لماذا؟

قلت: ربما كنت أريد أن أرى ما سيحدث.

استقبلنا الطبيب المناوب في اهتمام. وقال لنا ان عدد الموتى الحقيقي بلغ اثني عشر. لكن أحداً لا يعرف على وجه التحديد حقيقة الأمر.

سألت: ليست كوليرا؟

هز رأسه: ليست كوليرا. فليس ثمة قيء أو اسهال في الاعراض السابقة على الوفاة. كما انها ليست حمى مخية لأنه لا يوجد تصلب في الرقبة. ولا تيفود.

قال سعيد: اذن ماذا؟

هز الطبيب كتفيه: ربما مالاريا كواحدة خبيثة شهدتها في اليمن. أو انفلونزا أو مجرد ضربة شمس.

- وماذا نفعل للوقاية؟

ابتسم الطبيب: لا شيء. فلسنا نعرف وقاية ضد ماذا.

طرق الممرض الباب قائلا ان هناك طفلا أحضروه وحرارته ٣٨٫٥. وعلق الطبيب: الناس تأتينا هنا بعد أن تكون قد انتهت. في الصباح أحضروا عاملا أصيب بنزيف. وبالمصادفة كشفت درجة حرارته فوجدتها ٤٠°.

قال سعيد: اذن ارتفاع الحرارة علامة هامة؟

قال الطبيب مفكرا: بالطبع. والعملية تستمر يوما على الأقل بحيث تستطيع أن تلحق نفسك. على العموم لا بد من وقف وردية الظهر لأن العمل في الشمس فظيع. أمس كانت درجة الحرارة ٦٠ وهي كذلك اليوم.

قلت: الصحف تقول أنها ٤٤.

قال سعيد: يجب اذن ألا نسير في الشمس.

قال الطبيب: ضربة الشمس غير مرتبطة أساساً بالشمس وانما بالارتفاع العام في درجة الحرارة.

تحسست جبهتي خلسة وخيل الي أنها ساخنة عن المعتاد.

سألت الطبيب عن العلاج فأجاب باسما: شيء واحد هو حوض من الثلج.

سأل سعيد: والروس؟

قال: لم تحدث بينهم أية اصابات حتى الآن. هم يعنون برجالهم عناية شديدة ويتخذون اجراءات وقاية صارمة.

تركنا الطبيب وعدنا الى الاستراحة. شعرت بساقيّ سائبتين عندما دخلنا غرفتنا فاستلقيت على الفراش بملابسي. وأدركني الخوف فجأة عندما فكرت ان الدائرة يمكن أن تدور علي. لم تكن فكرة الموت قد خطرت ببالي من قبل رغم أني رأيته يحدث للآخرين. وفكرت أن أسوأ ما في تجربة كهذه ألا يتاح للمرء أن يتحقق من سلامة فكرة أو فكرتين في رأسه.

تطلعت حولي فلمحت كتاب «ميكل انجلو». تناولته وجعلت أقلب الصفحات المصورة وتوقفت عند تمثال الشفقة.

العذراء وابنها مرة أخرى. لكنه هذه المرة لم يعد طفلا. ها هو الرجل الذي كان، الجثة المصلوبة، وقد استقر في حجر أمه. شيء لم يفعله نحات من قبل. وانحنى رأس الأم فوق اليد المستقرة على قلبها. كانت تعرف كل شيء منذ البداية لكن وجهها الحزين من أجل ابنها وجميع أبناء الرجال كان يحمل سؤالا يائساً: «من أجل أي شيء كل هذا». أما المصلوب فقد أغلق عينيه في سبات الراحة العميق.

فتح لنا ياكونوف الباب وقال مشيراً بيده الى الداخل: باجلستا.

ولجنا صالة صغيرة تتوسطها مائدة من الصاج تحيط بها عدة مقاعد والى جوارها ثلاجة مصرية. دعانا ياكونوف الى الجلوس وتقدم من الثلاجة ففتحها. وجلست أمام كوم من الكتب والمجلات الروسية يعلوه عدد من مجلة لايف الامريكية.

أخرج ياكونوف زجاجة بيرة وجعل يبحث عن فتاحة. وقال في انجليزيته الركيكة أنه وضعها على المائدة منذ دقائق. بحثنا عنها بين المجلات ثم مضى الى المطبخ وعاد بها قائلا: عندما لا تكون زوجتي معي أصبح...

وتوقف حائراً يبحث عن الكلمة الانجليزية المناسبة حتى وجدها فأكمل: أصبح رجلا ضائعاً. وضحك ضحكته الصافية التي يحمر لها وجهه وتظهر معها ثلاثة أسنان ذهبية.

سألته: أين هي؟

جلس أمامنا وشرع يخلع غطاء الزجاجة وهو يقول في بطء: في موسكو... ستأتي بعد شهرين. لقد ذهبت لترى ابننا. انه ابننا الوحيد وعمره ستة عشر عاماً.

كانت هناك حجرة في مواجهتي لمحت فيها طرفاً من فراش وتسريحة صغيرة. وكان ثمة مشجب على الحائط يتدلى منه قفازان كبيران للملاكمة وعلى الأرض تحتها استقر قضيب حديدي من قضبان رفع الأثقال.

أخرج سعيد مفكرته بينما كان ياكونوف يصب لنا البيرة. وقال لي بالعربية يبدو أن أحداً آخر لن يأتي وسنقضي الليلة نستمع الى تاريخ حياته.

وكأنما أدرك ياكونوف ما قاله سعيد فقد قال ان الفتاتين ستأتيان بعد قليل.

أحسست بالدم يصعد الى وجهي. وقلت له أن صديقي يريد أن يعرف مدى تأثير الوباء على الروس.

قال: في حدود علمي لم يصب أحد بشيء حتى الآن.

سأله سعيد: ماذا تظنون يكون هذا الوباء؟

أجاب: لا أعرف. هذا شيء يعلمه الأطباء وكبار المسؤولين. ربما كان ضربة شمس او كوليرا. ولكني أتمنى ألا يكون شيئاً خطيراً خصوصاً الآن ونحن نستعد لاستقبال الفيضان.

شربنا نخب الصداقة المصرية الروسية. وسأله سعيد عما حدا به للمجيء الى مصر فقال ان مصر كانت بالنسبة له دائماً أسطورة وكانت رؤيتها حلما يداعبه منذ الطفولة.

سألته: انت طبعاً تأخذ راتباً كبيراً. أقصد أكبر مما كنت تتقاضاه في بلدك. فهل تنفقه كله هنا؟

احمر وجهه مرة أخرى وأجاب: كلا. هناك جزء يحفظ لي في موسكو.

قال سعيد: وماذا تنوي أن تفعل بهذه المدخرات؟

قال: سأبني منزلاً بالطريقة التعاونية أعيش فيه بقية حياتي.

طرق الباب الخارجي. وما لبثت الشقراء أن ولجت الصالة تتبعها تانيا. وجاء في أعقابها شاب قصير القامة. قال ياكونوف وهو يجذب مقعدين للفتاتين اننا التقينا جميعاً من قبل ثم أشار الى الشاب وقال: أما هذا فهو فاليري ايفانوفتش وهو... وتوقف ثم خاطبه بالروسية وتحول الشاب الينا قائلا في انجليزية سليمة: أنا أعمل مترجماً بقسم القياس الهندسي.

أجلس سعيد الشقراء السمينة بيني وبينه وجلس ياكونوف على يساري. وأصبح كل من تانيا وفاليري أمامي.

قام ياكونوف وأحضر زجاجتين من البيرة وثلاثة أكواب وعندما أراد أن يصب لفاليري رفض هذا أن يشرب. ووضع سعيد طرف قلمه في فمه وتطلع الى تانيا ثم قال: أريد أن أعرف كيف جئت الى مصر.

كانت تانيا في حركة مستمرة منذ جلست. وبدا كأنما جسمها النحيل الطويل لا يملك قوة كافية للاحتفاظ بتوازنه. وأكسبتها هذه الحركة المستمرة شيئاً من الدلال.

احمرَّ وجهها عندما خاطبها سعيد وأجابت بشيء من الحدة: بالطائرة.

ضحكت أنا وسعيد وقال: لا أقصد هذا. أقصد مثلا هل أنت التي تقدمت للعمل في مصر من تلقاء نفسك ولماذا؟

ابتسمت وقالت: عندما تخرجت من معهد اللغات كانوا يطلبون مترجمين للعمل في الهند وغانا ومصر. فاخترت مصر.

اشرأب سعيد بعنقه وهو يسجل اجابتها بسرعة وسألها: ولماذا اخترت مصر؟

تناولت تانيا سيجارة من حقيبتها فأشعلتها لها. وقالت بعد أن التقطت منها نفسا: خفت من حرارة الجو في الهند وغانا. ثم أضافت بعد لحظة: لقد رأيت عدداً من الأفلام المصرية من قبل وشعرت بنوع من الالفة لجو الحياة في مصر.

قلت لسعيد بالعربية: عندك الآن عنوان مثير: رأت الأفلام المصرية فقررت الذهاب الى مصر.

تجاهلني وسأل تانيا عن سنها فقالت انها في السادسة والعشرين. وفكرت انها لو كانت انقصت عامين من عمرها الحقيقي نكون في سن واحدة.

تحول سعيد الى فاليري فقال هذا انه في الخامسة والعشرين وانه يدرس بكلية الصحافة في جامعة موسكو وسيستأنف الدراسة بعد أن يمضي عاما في السد. وقال أنه عضو في منظمة الشباب الشيوعي (الكومسومول) وأنه يضع كتاباً عن السد بعنوان: (صداقة في العمل وصداقة في الحياة). وكان سؤال سعيد التالي عن عائلته فقال ان أباه قتل في الحرب أما أمه فتعمل في أحد الحوانيت.

استغرقت في تأمل شعر تانيا المائل الى الاحمرار وعينيها الواسعتين الزرقاوين والتجاعيد التي تظهر حول فمها عندما تنفعل او تستغرق في التفكير. ولاحظت أن ملابسها مجردة من الاناقة.

سألتها اذا كانت قد تفرجت على أسوان ورأت قبر أغا خان ومتحف جزيرة الفنتين فقالت انها لم تفعل بعد. عرضت عليها أن أصحبها في جولة بالمدينة فألقت على ياكونوف نظرة سريعة ثم ابتسمت وهزت رأسها موافقة. ولحظت أن يدها التي تحمل السيجارة قد ارتعشت.

قالت: الناس هنا تعمل كثيراً ثم تعود الى المنازل متعبة لتأكل وتنام. ولا يعد ثمة مجال للذهاب الى أي مكان. وابتسمت ثم أضافت: على الأقل هذه هي التهم الموجهة الى الرجال.

ضحك ياكونوف ضحكته الصافية بعد أن كررت له ما قالته بالروسية. وقطب فاليري حاجبيه وقال شيئاً بالروسية. فوجمت تانيا لحظة ثم ردت عليه في شيء من الحدة فلزم الصمت.

كان سعيد منهمكاً في حديث خافت مع الشقراء. وكانت تصدر عنها ضحكات متتالية وقد احمر وجهها. وشعرت بها تتململ في مكانها وتتحرك مقتربة مني. ثم رأيت ساق سعيد تطارد فخذها الأيمن بإلحاح. ولحظت أن جسمها رغم سمنته قوي مشدود بلا ترهلات. وكانت تبدو عليها حيوية المرأة التي تمارس وظائفها الطبيعية بنشاط.

تشاغلت بتقليب المجلات الموضوعة على المائدة وعثرت فجأة أسفلها على مجموعة الأوراق تحمل رسومات حديثة بالألوان المائية لم تكد تجف. كان موضوعها واحداً يتكرر دائماً: نساء ممتلئات يتلوين عرايا بين ألسنة من النار.

لمحني ياكونوف أتصفح الرسومات فانقض بيده عليها ولكني جذبتها بعيداً قائلا انها تبعث على الاهتمام. ضحك في خجل وازداد احمرار وجهه بينما مالت تانيا في اهتمام وأصرت على أن تراها. والتفت المائدة كلها حول أعمال ياكونوف وانهالت التعليقات الضاحكة من الفتاتين بالروسية بينما ازداد تقطيب وجه فاليري.

قلت لياكونوف: لم تقل لنا رأيك في المرأة المصرية.

فكر طويلا قبل أن يقول: لا أستطيع الحكم عليها. فلم أعرفها.

قلت: والروسية؟

قال: انها سمينة مثل المصرية ولكنها فيما يبدو لي متقدمة أكثر. وأكمل الجملة بالروسية طالباً من تانيا أن تترجمها لنا فقالت انه يرى ان المرأة هي المرأة في كل مكان.

نهضت الشقراء فجأة قائلة انها يجب ان تنصرف. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. ونهض سعيد بدوره قائلا أن لديه موعداً مع أحد العمال في الموقع وأنه سيرافق الشقراء حتى منزلها في طريقه. اعترضت بأن منزلها ليس بعيداً ولكنه أصر فاستسلمت.

دار الحديث بعد ذهابها حول العمال المصريين. وقال ياكونوف عن طريق فاليري انهم أذكياء رغم ان الكثيرين منهم لا يعرفون القراءة والكتابة. حكيت له النقاش الذي شهدته في مكتب ذي الأسنان المعدنية وكيف ترفع العامل المصري عن القيام بأي عمل يدوي فلم يعلق بشيء وانما قال: على أية حال العنصر اليدوي في السد يتلاشى الآن. فكل العمليات التي تجري الآن عمليات فنية للغاية.

قلت: أجل. سمعنا عن دقة الحفر الذي يجري لتوسيع مدخل القناة.

قال: وهناك الحقن. فقد بدأ حقن الصخور من داخل ممرات التفتيش. والحقن يتم بطبقة رفيعة جداً سمكها نصف سنتيمتر تدفع وسط كتل الصخر.

قلت: لا أذكر أن برنامجنا اشتمل على شيء يتعلق بالحقن.

قال: المسألة بسيطة. بوسعكما ان تزورا غداً مصنع الحقن. سأتصل في الصباح الباكر بالمهندس المسؤول هناك وهو صديق لي يدعى أربول.

وقف فاليري قائلا انه يريد أن ينام مبكراً فنهضت معلناً رغبتي في الانصراف. وقامت تانيا بدورها. وصحبنا ياكونوف الى خارج المنزل ثم اشتبك في حديث مع فاليري فانتهزت الفرصة وعرضت على تانيا ان نقوم بجولة في المدينة ليلة الخميس.

ألقت نظرة سريعة ناحية ياكونوف وفاليري ثم قالت: هذا غير ممكن.

قلت: اذن يوم الجمعة أو أي يوم آخر في الاسبوع.

هزت كتفيها قائلة: لا أعرف.

تحول الينا ياكونوف فصافحني وودع كل من تانيا وفاليري ثم عاد الى الداخل. سرنا في صمت حتى بلغنا شارعاً يفصل بين صفين من العمارات فتوقف فاليري واستدار ناحيتي. والفت نفسي مضطراً لأن أودعها وأنصرف.

قالت تانيا فجأة بعد ان صافحتها: اذا أحببت يمكن أن نلتقي بعد غد في منزل فاليري.

أومأ فاليري برأسه وقال: مرحبا بك.

قلت: أوكي. سآتي. لكن أين المنزل؟

أشار فاليري الى نهاية الصف المقابل وقال: آخر منزل الشقة الخامسة.

تلفت حولي متعرفاً على المكان ثم ودعتهما مرة أخرى. وهتفت بي تانيا وأنا أبتعد: لا تنس أن تحضر صديقك معك.

وصلت محطة السيارات قبل مقدم سيارة المهندسين بدقائق. ووجدت غرفتنا الاستراحة خالية. فأخذت حماماً سريعاً واستلقيت على فراشي أدخن وأنصت للموسي

عاد سعيد بعد ساعتين. وولج الغرفة مكفهر الوجه فأدركت أن الامور لم كما تصورت. رويت له حديث ياكونوف عن الحقن واقتراحه الذهاب في الصباح الى المهندس آربول. وسألني عما فعلناه بعد ذهابه. فقلت: لا شيء. وأنت؟

لم يجب وأشعل سيجارة. ولم أشأ أن أكرر السؤال فقد كنت واثقاً أنه لن يطيق الصمت وسوف يروي لي ما حدث بعد قليل.

قلت: لقد دعانا فاليري الى منزله بعد غد. وستكون تانيا هناك وربما جاءت صاحبتك أيضاً.

لم يعلق بشيء وشرع يخلع قميصه وبنطلونه. ولم يلبث كما توقعت أن حكى لي كيف صحب الشقراء الى منزلها وسمحت له أن يقبلها ويحتضنها في الظلام أمام المنزل ثم رفضت رفضاً باتاً أن يصعد معها.

-... ولكني صعدت بالرغم منها حتى باب مسكنها. وقلت لها أني سأدخل معها مهما حدث. فقالت ان صديقها سيأتي بعد قليل ولم أصدق قصة هذا الصديق. فقد كنت متأكداً أنها وحيدة تماماً. وهددتني بأن تصرخ. وعندئذ بدأت أهتز. وقفنا متواجهين على رأس السلم بعض الوقت. ثم قررت ان انسحب بنظام. فطلبت منها أن نتقابل في وقت آخر فرفضت تماماً قائلة انها لا تريد ان تراني مرة أخرى.

قلت: لو كنت مكانك لتركتها عندما رفضت ان تصعد معها.

قال: لكن المرأة تتمنع دائماً في البداية.

قلت: اذن كنت تركتها عندما قالت ان صديقها قادم.

قال: لا أظن أنها كانت تقول الحقيقة.

قلت: المهم أنها لم تكن تريدك.

قال: لقد كانت ترتعش من الشهوة طول الوقت منذ داعبتها بساقي عند ياكونوف.

قلت: ألم يخطر ببالك انها ربما كانت ترتعش من الخوف؟

قال: الخوف مماذا.

قلت: الخوف من ياكونوف... من فاليري. من أن يفاجئكما أحد من الروس فيضيع مستقبلها.

قال: سيعيدونها الى موسكو وهي عائدة على أية حال.

قلت: لكنها عائدة لتواصل العمل لا لتبقى في بيتها. وهي تريد أن تسافر الى أماكن أخرى وأن تتقدم في عملها.

قال وهو يستلقي على فراشه: لعلها لم تكن تريدني اليوم لأي سبب من

الأسباب. وربما لو حاولت مرة أخرى غداً أو بعد غد...

قلت وأنا أطفيء النور: سنرى.

أصر سعيد في الصباح على القيام بالزيارة المعتادة لعباس. وفضلت ان أنتظره في الظل بجوار مكتب البريد. ابتعت الصحف ولم أجد فيها اشارة واحدة لحالات الوفاة المنتشرة في السد. ولم أعبأ بقراءة درجة الحرارة بعد ما ذكره الطبيب. توقعت ألا يفوت اليوم على خير كما يحدث في كل مرة نذهب فيها الى عباس. وما لبث سعيد أن عاد جالباً معه أخبار الموتى وآخرهم عامل النادي الذي سقط ميتاً وهو يشرب كوباً من الشاي. وقال ان لجنة من مديري وزارة الصحة وصلت بالطائرة.

مضينا الى الكاراج واستطعنا ان نفوز بشاحنة من طراز «تايمز» وتكومنا الى جوار السائق وقد رفعنا سيقاننا الى أعلى وطلبنا منه أن يأخذنا الى مصنع الحقن.

انطلقت الشاحنة تلف وتدور متفادية العقبات. وكانت الشمس تقع على وجوهنا حامية تكاد تعمي عن الرؤية. أشرفنا على جسم السد بعد دقائق وسرنا بحذائه قليلا. وكانت البلدوزرات والهراسات منهمكة في تسوية الرمال والطمي ودكها. ولحظت واحداً منها غريب الشكل كان يجر خلفه صندوقاً ضخماً امتلأ بالصخور واستقر فوق ست عجلات من المطاط. وبدا جسم السد كأرض معركة كبيرة تتحرك فوقها فرق من الدبابات المتكاسلة.

درنا حول هضبة صغيرة من بقايا عمليات التفجير وانطلقنا في طريق دائري منحدر. وعندما بلغنا نهايته فوجئنا بقلابة روسية من طراز «ماز» قد استلقت على ظهرها بعرض الطريق وارتفعت عجلاتها في الهواء. وعلى مقربة استقرت قطعة ضخمة من الصخر على قارعة الطريق. وكان هناك بلدوزر يتقدم من القلابة رافعاً درعه الامامي الى أعلى. ثم توقف وتراجع على جنزيره مبتعدا عنها. وتوقف مرة ثانية ثم اندفع نحو القلابة مصوباً درعه الى حافتها. وهبط الدرع حتى أصبحت حافة العربة معتقلة بين الدرع وجسم البلدوزر. ومرت لحظة تجمد فيها كل من الدرع وحافة القلابة ثم صدر عن البلدوزر صرير مرتفع وما لبثت القلابة ان بدأت ترتفع عن الأرض واذا بالبلدوزر يتخلى عنها فجأة متراجعا الى الخلف فسقطت مكانها. وعاد البلدوزر يتقدم من القلابة ودرعه في جانبها ثم رفعها في الهواء قرابة المتر. وزحف ببطء دافعاً القلابة أمامه. وسمعنا رجة واذا بها تعتدل فوق اطاراتها من جديد.

التقط سعيد عدة صور لمراحل اعادة القلابة الى وضعها. كما صور سائقها الذي

جلس على صخرة قريبة يرقب العملية. ونادى سائقنا عليه ليبعد عربته عن الطريق. وقام هذا متثاقلا فتقدم من عربته في بطء. وتوقف بعيداً عنها يتطلع اليها بوجهه الذي ملأته التجاعيد. وبدا كأنما يخشى الاقتراب منها. وأخيراً تقدم منها وفحص موتورها ثم اختفى داخلها. وظهر بعد لحظة فوقف لتأملها ثم هتف بسائق البلدوزر ان يدفعه.

قام البلدوزر بعدة مناورات حتى تمكن من ازاحة القلابة التي أمسك سائقها بمقودها. وانفسح الطريق اخيراً أمام سيارتنا الخفيفة.

بلغنا فناءً واسعاً مسوّراً به بضع مبان حجرية من طابق واحد. غادرنا الشاحنة وعبرنا الفناء بسرعة فراراً من حرارة الشمس. استقبلنا في الداخل شاب روسي ذو ملامح شرقية قال لنا ان أربول مضى الى اجتماع طارىء في الهيئة.

أخذ منه سعيد بضع بيانات سريعة عن مواد الحقن علمنا منها أنها تتألف من أربع مواد اثنتان منها متوفرتان في الموقع وهما الرمال والطمي. والمادتان الأخريان يؤتى بهما من روسيا.

اتفقنا مع الشاب على أن نعود في الثامنة من صباح الغد ومضينا الى الخارج. وقال سعيد انه يشعر بالتهاب في حلقه ويريد الذهاب الى المستشفى. فأقلتنا الشاحنة اليه.

قاس الطبيب حرارة سعيد فوجدها ٣٧ درجة. سأله سعيد عن أخبار اللجنة الطبية فقال انها تميل الى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدى ضربة شمس قوية. ونصحنا بان نتجنب الشمس والحرارة بقدر الامكان.

التجأنا سريعاً الى كهفنا المكيف ولم نغادره الا الى الحمام ثم المطعم. وملأ لنا فقير الترموس بالليمون المثلج. ثم استلقيت على الفراش أقرأ رواية « على الطريق » لكيرواك.

شعرت بحرارة مفاجئة تسري في جسدي ثم تنحسر. وتكرر ذلك عدة مرات فألقيت بالرواية جانباً وتمددت ساكناً أحدق الى السقف. وانتابني الشعور بهبوط عام.

غفا سعيد طويلا. وقال لي عندما استيقظ انه يشعر بالبرد. جذب الملاءة فوقه ثم أضاف اليها البطانية. وبعد قليل طلب مني بطانيتي قائلا انه يرتعش من البرد.

سويت كل الأغطية التي لدينا فوقه لكنه استمر يرتعش وأسنانه تصطك بصوت

حديدي بارد. أغلقت التكييف وارتديت ملابسي ومضيت الى الخارج بحثاً عن طبيب.

كانت العيادة الطبية تبعد عن الاستراحة مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام. وكانت الشمس ما تزال ترسل أشعة قوية رغم ان الساعة أشرفت على الخامسة. وجدت الطبيب يفحص شخصاً متخشباً ثم يقول له أنه يمثل ولا يشكو من شيء. وبالفعل انتصب واقفاً كالجواد وانصرف. وقبل أن أبدأ حديثي ولج الغرفة عدة رجال يحملون عاملا لدغته عقرب. وأعطاه الطبيب حقنتين ثم نصحه بعدم شرب الماء والاكتفاء بالليمون.

قست حرارتي في هذه الأثناء فوجدتها ٣٧ درجة. ورويت للطبيب حالة سعيد فاستمع الي في غير اكتراث حتى علم ان سعيداً صحفي فأبدى اهتماماً بالغاً. وقام معي في سيارة الاسعاف التابعة للعيادة وانطلقنا الى الاستراحة. وتولى سائق السيارة وفقير حمل سعيد اليها ملفوفاً في أغطيته وعدنا ادراجنا الى العيادة.

وضع سعيد في غرفة خاصة بالاطباء تضم فراشين. وقاس له حرارته فوجدها تحت الاربعين بشرطة واحدة. أعطاه حقنة فيتامين (ث) وأتبعها بحقنة نوفالجين في الوريد. وعاونت الطبيب في محاولة التقاط احد أوردة ذراعيه. كانت قد اختفت خلف طبقات الشحم السميكة التي أضافها سعيد الى جسمه في السنوات الاخيرة.

ظلّ سعيد يرتعش بعض الوقت. وقال لي بين أسنانه المصطكة انه يشعر بأنه على أبواب الموت. هونت عليه وبقيت الى جانبه حتى توقفت الرعشة. فانطلقت الى الاستراحة وطلبت من فقير أن يملأ الترموس ليموناً. وحملت الترموس والراديو الى سعيد.

كان نائماً واستيقظ عندما ولجت الغرفة. أعطيته كوباً من الليمون وأدرت الراديو. كان هناك برنامج من أغاني عبد الوهاب استمعنا فيه الى أغنية قديمة له مسروقة اللحن تبعتها أغنية «عاش الجيل الصاعد».

قال سعيد فجأة: أغلق الراديو بالله. هذه الاغنية حزينة.

أغلقت الجهاز وأشعلت سيجارة.

ولعنة العصر يمكن أن تصبح أروع نعمة، عندما يخلو المبنى الاصفر الكئيب من صداه، وتتشوق الآذان الى نغمة واحدة تصل بني البشر بماضيهم. لكن الأزرار في يد حارس يدرك أنه لو سمح للصوت ان يتسرب لالتوت جميع الآذان في اتجاهه، وعند الغروب

اقتادونا الى الفناء في سكون مطبق، وأجلسونا القرفصاء على الأرض ليؤكدوا لنا أننا فقدنا حريتنا، وأشرفوا علينا وقوفاً: الضابط الجرم الذي كان دائم الصراخ بأنه يرى من ثقب ظهره والجندي العجوز النحيف الذي جعل من ندائه اليومي وهو يرمي الينا بعيدان الفجل الصفراء جملة موسيقية ثم الآخر الذي كان صورة مجسمة للانسان الاول بجسمه الضخم عديم الشكل ويده السمينة وأظافره المتحجرة وعينيه النصف مغمضتين في غباء والهمهمة الغامضة التي تصدر عن فمه. وبدأ ضوء النهار يتلاشى واصطبغت السماء بلون وردي أخاذ وما زلنا مقرفصين نتلهف على معرفة وجهتنا، ولا بد أن يكون الحارس على الجهاز قد انتابته نوبة مفاجئة من المرح. فقد انطلق الصوت على حين غرة من المكبرات المثبتة في الفناء يترنم بحياة الجيل الصاعد،

أعلن سعيد رغبته في النوم وطلب مني أن أذهب الى أربول في الصباح. غادرته ومشيت على مهل نحو الاستراحة. ثم تجاوزتها ومضيت في الطريق المؤدي الى محطة الكهرباء. كانت المصابيح الكهربائية المنتشرة في كل مكان فوق أعمدة خشبية قد بدأت ترسل ضوءاً باهتاً. وكان الظلام لم يطبق أستاره بعد.

مررت بقلابة من طراز «ماز» كانت تنتحي جانب الطريق وقد التوى اطاراها الاماميان في حدة الى اليسار. وتوقفت الى جوار مجموعة من عمال اللحام انهمكوا في إيصال قضبان معدنية مختلفة الاحجام. وكان ضوء الاكسجين الساطع يبرق فوق الدروع المعدنية التي تغطي وجوههم.

عبرت محطة الكهرباء بحذاء الحائط الذي تقبع دوائر التوربينات أسفله. انتظرت حتى مر بي طابور من الشاحنات الفارغة. ثم انطلقت في طرقات ملتوية حتى أشرفت على بداية جسم السد من مرتفع صغير. وقفت أتأمل ممر التفتيش المقوس الذي سلطت عليه أضواء الكشافات. كان جزأه القريب مني مغطى بالاسمنت والطمي أما الجزء الآخر فكان ما يزال شبكة من القضبان الرفيعة المتعانقة.

كان هناك عدد من الصعايدة على مقربة يقومون بتمهيد الارض بالفؤوس ورشها بالمياه. وفوقنا امتدت السماء شديدة الصفاء لا أثر بها للقمر او النجوم.

تحولت الى اليمين وسرت مسافة بين قطع ضخمة من الصخور. مررت بحفارة متصلة بمجموعة من الاجهزة المتشابكة. وفي صندوقها جلس عامل روسي يقرأ في ضوء مصباح كهربائي مثبت في السقف.

أشرفت على مستوى منخفض من الرمال المختلط بالزلط. وفي أحد جوانبه

كانت الرمال تنساب في قوة من فتحات أنابيب التجريف مصحوبة بالمياه. وخلفه كان هناك صف من الاكشاك الخشبية المضاءة.

لم يكن بوسعي أن أرى المستوى التالي خلف الاكشاك. ولكني كنت أعرف أنه يمتد حتى صف البراميل السوداء المستديرة. وبعدها يبدو النهر بركة ضحلة هادئة بينما تتدفق مياهه الاصلية عبر القناة الجديدة وتنساب الى شمال الوادي حتى البحر.

شعرت بالعطش فاتجهت الى أحد الاكشاك. وعندما اقتربت منه رأيت ثلاثة من العمال المصريين يقتعدون الارض أمامه وفي أيديهم أكواب الشاي. وجهت اليهم التحية فدعوني الى الشاي. وأراد احدهم أن يقوم ليحضر لي مقعداً لكني أمسكت به ليبقى وجلست الى جوارهم.

تبادلنا الاسئلة عن موطن كل منا. كان بينهم اثنان من الصعيد وواحد من الدقهلية.

سألت الدقهلاوي عن عمله فقال انه مساعد كهربائي.
قلت: وقبل السد... كنت بتعمل ايه؟

أجاب: كنت أشتغل في الأرض.
- وايه اللي خلاك تسيبها وتيجي على هنا؟
- ناس جت من بلدنا ع السد فجيت معاها.
- واشتغلت مساعد كهربائي على طول؟

تطلع الي في عجب: لا طبعا. في الاول اشتغلت عتال... أشيل وأودي. حبة بحبة تعلمت. كنت أقف الى جنب الصنايعي أبص عليه وأسأله.

ومبتخفش من الكهربا؟

دلوقت لا... انما الاول... ياما تكهربت. لكن أنا اتعلمت ازاي أشد دراعي بكل قوتي لورا لما اتكهرب. وأعزل نفسي على طول. الغشيم أول ما يكهرب ضروري يتعور ويمكن يموت لأنه بيتلخم وما يعرفش يتصرف.

قام الصعيديان قائلين ان ميعاد ورديتهما قد حان. واستعد الدقهلاوي لمرافقتهما وعدت أدراجي.

قابلتني عند جسم السد شاحنة « بارفورد » ضخمة يضيئها مصباح صغير للغاية بجوار السائق أضفى عليها فيضاً من الضوء البنفسجي الرائع.

رفعت بصري الى السماء. كان ثمة نجمة كبيرة تتلألأ على يميني وقد انفردت بصفحة السماء. ظللت أتأملها بعض الوقت ثم اتجهت نحو الاستراحة.

ولجت المطعم دون أن أشعر بشهية فاكتفيت من طعام العشاء بشريحة من البطيخ. والتجأت الى غرفتي فأدرت التكييف وخلعت ملابسي. ثم إستلقيت على الفراش وتناولت كتاب «ميكل انجلو».

لم يكن مسيحه المصلوب ابن اله بقدر ما كان انساناً. فقد التوت رأسه وركبتاه في اتجاهين متعارضين لرجل يمزقه الصراع الداخلي بين جهتين. رجل لا تعذبه المسامير الحديدية بقدر ما يعذبه الشك. فماذا يكون قد دار بذهنه منذ اللحظة التي دقوا فيها أول مسمار في لحمه عند الغروب واللحظة التي مات فيها غير التفكير في عجز الاله عن الحيلولة دون هذه الوحشية وجدوى رسالة تريد أن تبشر بالاخوة وتريد ان تمحو العنف؟

غادرت الفراش وتأكدت من اغلاق الباب. ثم أطفأت النور وعدت الى الفراش. جذبت الاغطية فوقي وأنصت الى طنين جهاز التكييف. تقلبت عدة مرات ثم نمت.

حلمت أني أسير بين مواسير ضخمة في أعماق نفق ولا أستطيع التنفس لأن الجو خانق. وأصبح الجو رمادياً أو بنياً. وجريت متوقعاً أن ينهار النفق فوقي. ثم رأيتني أتطلع الى أمي وهي تطل من النافذة لترى شيئاً في الحارة. وأمسكت بساقيها لأمكنها من أن ترى جيداً. لكنها سقطت مني الى أسفل وارتطمت بالأرض في صوت رهيب.

استيقظت ألهث ومرت لحظات حتى تأكدت من مكاني. قمت فأضأت النور وشربت كوباً من الماء. ثم أشعلت سيجارة وجلست على حافة الفراش.

الجنود صفان متقابلان كعهدهم دائماً، وعصيهم الغليظة تشق الهواء جزافا، والصيحة المتوحشة تأمر بالجري بينهم حتى الساحة، وهناك استقرت منصة مرتفعة جلس خلفها الجنرال بملابسه العسكرية والشارة الحمراء التي تدل على رتبته الرفيعة، وحوله النظارة الذين جاءوا خصيصاً ليشهدوا الحفل وقد ارتدوا جميعا نظارات سوداء، وانهالت الضربات على الرؤوس والصدور والظهور بالقبضات والاقدام والعصي والاحزمة الجلدية والنبابيت والشوم وكعوب الاحذية العسكرية، وجرد الضحايا من ملابسهم واقتيدوا واحدا بعد الآخر أمام الجنرال ليتفقد بعينيه أحجام رجولتهم، ثم سحلوا عراة فوق الرمال حتى الوحش

الآدمي ذو العينين الجنونتين الذي اندفعت قبضته السمينة في الهواء وقد لمعت فوقها بقعة من الدماء الطازجة، وبعد ذلك كان الدوران عشرات المرات حول العنبر الحجري الطويل، وداخله كانت هناك الارض الحجرية العارية والدماء التى تنزف من الظهور والهذيان وفقدان الوعي، وفي المساء أضيء النور فتبددت معالم المكان وظهر الفراغ الذي تركه الى الابد الجسم العملاق والوجه الذي لم تفلح آثار الجدري في تشويهه،

أطفأت النور وحاولت أن أنام لكني لم أستطع. نهضت مضعضعاً في الصباح وغادرت الاستراحة الى الموقع. وانطلقت سيراً على الأقدام الى مصنع الحقن. لم تكن الحرارة قد اشتدت بعد. وعلى جانب الطريق افترش باعة الباذنجان والطعمية الارض. وخلفهم ظهرت شرائح البطيخ.

بلغت جسم السد بعد عشرين دقيقة وسرت بحذائه بحثاً عن الهضبة الصغيرة التي يبدأ خلفها الطريق الدائري المنحدر. عثرت على الهضبة بسهولة ولكني لم أعثر للطريق على أثر.

التجأت الى أحد جنود البوليس الحربي فضحك قائلا ان الطريق ردم بالليل. ووصف لي كيف أبلغ مصنع الحقن. مررت بعدة منحنيات وهضاب قبل أن أبلغه. واقتادني أحد العمال المصريين الى مكتب آريول.

كان هذا يقف في طرف الغرفة منحنياً فوق خارطة نشرها أمامه على طاولة رسم. ودون ان يتحرك من مكانه أشار لي وهو يبتسم بدعة أن أجلس. وواصل العمل في خارطته.

لحظت تلك النظرة الشاردة التي أتتني من فوق عويناته. وكانت هذه تنزلق على أرنبة أنفه وقد انقسمت عدستاها الى منطقتين مختلفتين بخط بيضاوي. وبدا لي فوق الخمسين وان كان الشعر الكثيف فوق رأسه وحاجبيه نادر البياض.

تطلع اليَّ بابتسامة ودودة من الجزء العلوي في عويناته. ثم استأذن مني في أدب جم مغادراً الغرفة. وكان ذلك في الثامنة والنصف.

دخنت سيجارة. ثم قمت أتفرج على الخرائط المعلقة فوق الجدران. كانت احداها لبوابات الانفاق والثانية لفتحة النفق المائل والثالثة لمحطة الكهرباء. وكانت هناك خارطة للموقع بدا السد فيها كائناً ضخماً يواجه الجنوب وقد احتجز الماء بجسده وارتكز بساعديه على حافتي النهر باسطاً اياهما الى أقصاهما. وبدت الذراع اليمنى أطول من اليسرى بوضوح. وفي موقع القلب استقرت النواة الصماء وامتدت ستارة

رأسية صلبة الى قاع النهر وأخرى أفقية تخللت الساعد الايمن.

كان الرمز الذي يشير الى عمليات الحقن يمتد عبر الكتفين والذراعين مروراً بمحطة الكهرباء. خططت في مفكرتي رسماً تقريبياً له ثم عدت الى مقعدي.

دخل الغرفة مهندسان روسيان وجها الي التحية في ود ثم بسطا خارطة على المكتب وانكبا عليها يناقشانها. وألقى احدهما بصره ناحيتي عدة مرات دون أن يبدو عليه شيء من الدهشة او التساؤل لوجودي. تطلعت الى ساعتي فألفيتها قد بلغت التاسعة والثلث. ولحني الثاني وأنا أنظر في ساعتي فحدثني بالروسية. هززت رأسي باسماً فسألني في انجليزية مترددة عما اذا كنت أود مقابلة أريول. أومأت بالايجاب فقال انه في المكتب الخامس على يمين الممر.

غادرت الغرفة ومشيت في ممر ضيق أعد الغرف. وجدت باب الغرفة الخامسة مفتوحاً وقد استقر جسم أريول البدين في أقصاها خلف مائدة تصميمات. وقفت لحظة أرقبه يعمل في هدوء وطمأنينة. ثم ناديت عليه مشيراً باصبعي اشارة لم يكن لها بالتأكيد اي معنى وان كنت أريد أن أقول أني سآتي في الغد. التفت ناحيتي ثم ابتسم وعاد الى عمله.

غادرت المبنى وانطلقت سيراً على الأقدام الى الاستراحة. أخذت حماماً وأفطرت. وأحضر لي فقير ترمساً مليئاً بالشاي حملته الى سعيد. وأخذت له معي مجلتين مصورتين وكتاب ميكل انجلو.

كانت درجة حرارته قد انخفضت لكن روحه المعنوية كانت في الحضيض.

ابتدرني قائلا: أريد أن أسافر اليوم.
وضعت الترموس الى جواره وجلست على حافة الفراش المقابل. قلت:

- لكنك صرت أحسن حالا. وزال الخطر فيما يبدو لي.

- لا أريد أن أموت في هذا المكان اللعين. سأسافر اليوم او غدا.

- والفيضان؟
- سأتركك تستمتع به. وبرحلة أبي سنبل أيضاً. بوسعك أن تبقى كما تشاء في الاستراحة.

صببت له كوباً من الشاي. وطلب مني أن آخذ بطاقة الطائرة من حقيبته وأحجز له مكاناً على أول طائرة من فندق « جراند أوتيل ».

• أعطيته المجلتين وكتاب ميكل أنجلو فقلب صفحاته وقال: من قال لك أني أعبأ بتماثيل هذا اللوطي؟

قلت: أنت مخطيء. لم يكن لوطياً.

قال: كان عنيناً اذن.

قلت: ولا هذا.

قال: اذن ماذا كان؟

قلت: هل يجب ان يكون شاذاً؟

قال: لا تقل لي انه كان طبيعياً.

قلت: لم لا؟ لقد كان دائم التنقل عازفاً عن تكوين أسرة. وكان النحت يستهلكه تماماً. كان مثل كثيرين غيره. مجرد انسان وحيد.

استعدت منه الكتاب. وأعطاني مفتاح حقيبته. فعدت الى الاستراحة وأخرجت بطاقة الطائرة الخاصة به. وضعتها في حافظة جلدية وخرجت الى الطريق الملتهب.

لحقت بسيارة ركاب عند موقف رجل البوليس الحربي. ووجدت مقعداً خالياً فجلست وأنا أهنيء نفسي بأنه لم تبق أمامي سوى مشكلة العودة. لكننا لم نكد نبلغ «السيل» حتى أعلن السائق فجأة انه لن يواصل المسير.

غادرت السيارة خلف ركابها. ووقفنا في الطريق نتابعه وهو يعبر الجسر ويقف أمام احدى العمارات حيث يسكن فيما يبدو.

عبرت الجسر خلف السيارة. وألفيتني فيما يشبه السوق. فقد افترش عشرات الباعة الأرض أمام مختلف العطارة والحلى والبخور.

رأيت زنجياً فارع الطول يقترب من أحد الباعة واضعاً يده في وسطه باستعلاء. كان يرتدي جلباباً أبيض يصل الى قدميه الحافيتين. وكان شعره طويلا يتدلى على كتفيه مجدلا في ضفائر رفيعة للغاية. وبرزت منه عصا حديدية غريبة الشكل. وحول خصره التف حزام عريض من الجلد.

اقتعد الزنجي الى جوار أحد الباعة. ومد يده الى رأسه فسحب العصا وهرش بها ثم أعادها الى مكانها. وجرى بينه وبين البائع حديث بلغة غير العربية اشترى في نهايته موساً وترترا. ودفع الثمن من حافظة جلدية أخرجها من صدره.

عبرت الجسر من جديد عائداً الى الطريق الرئيسي. ووقفت قرابة الساعة ألوح

للسيارات المارة بلا فائدة. وظهرت أمامي بغتة سيارة ركاب أبطأت من سرعتها فقفزت اليها. وما لبثت أن ضاعفت سرعتها واذا بها تعود الى الموقع.

نزلت في «كيما» وعبرت الطريق الى النادي الروسي. مشيت عدة خطوات حتى محطة الخط الفرعي بين «كيما» وأسوان. ووقفت نصف ساعة حتى جاءت سيارة أقلتني الى فندق «جراند أوتيل».

كان صيام جالساً في ردهة الفندق مع شاب مصري يرتدي قميصاً حريرياً وعوينات شمسية ذات سطح شديد اللمعان يحول دون رؤية عينية. حجزت لسعيد من مكتب الاستقبال في طائرة الغد ثم انضممت اليهما. وقدم لي صيام رفيقه على أنه أحد موظفي المطار.

سألني صيام عن سعيد. وتبادلنا أنباء الوباء. وقال موظف المطار انه متأكد أن تفجيراً ذرياً تم في الصحراء الغربية هو السبب في كل هذا.

سألته في غباء: ومن الذي قام بالتفجير؟

خلع نظارته وتطلع الي بعينين عسليتين تنطقان بالاستهجان الشديد: نحن بالطبع.

ظهرت في مدخل الفندق فتاة أوروبية رشيقة في رداء أبيض تعلقت بذراع شاب مصري طويل القامة. تابعناها بأبصارنا وهما يصعدان الدرج. وقال صيام بصوت خافت: ربما كانت زوجته.

أضاف موظف المطار بعد أن أعاد نظارته الى عينيه: ابن بلدنا يقوم بالواجب الآن.

قلت: ما زالا على السلم.

قال: ليس هناك أجمل من ذلك على السلم.

ظهرت الفتاة ورفيقها بعد لحظات وشرعا يهبطان الدرج. وعلق موظف المطار: كانت جولة سريعة.

قلت لصيام أن سعيدا لن يتمكن من الذهاب الى أبي سنبل وأني سأذهب بمفردي. قال انه لا يوجد مكان لي.

قلت: ولكنك وعدتنا.

قال: وماذا أفعل. هناك وفد من مصلحة الأثار لا بد أن يكون في أبي سنبل هذا الاسبوع.

قلت: وما العمل؟
قال: انتظر الرحلة التالية بعد أسبوعين.
قلت: ولكنني لا أستطيع الانتظار طول هذه المدة.
قال: اذن سافر على أحد الصنادل التي تنقل الأسمنت ومواد البناء. وسأعطيك خطاباً لزميل لي هناك حتى يساعدك.

لم أعلّق بشيء. وأستأذن مني بعد لحظات ليلعب البلياردو مع رفيقه. ظللت في مكاني بعض الوقت ثم خرجت الى الطريق. ووقفت أسفل شجرة صنعت فروعها العجفاء شيئاً من الظل. وجعلت ألوح للسيارات المارة حتى كل ساعدي. كانت الحرارة شديدة. وأصبحت بعد قليل عاجزاً عن التحديق المتواصل الى كل سيارة تظهر على مبعدة.

أغلقت عيني وفكرت بأن أقضي فترة الظهيرة في أحد الأماكن المعشوشبة بالمدينة. وتناهى الى سمعي صوت فرامل سيارة ففتحت عيني ببطء. رأيت سيارة جيب عسكرية تقف أمامي مباشرة.

أدركت الموقف عندما لمحت شخصاً يقترب من السيارة جرياً. سألت الجندي الذي كان يقودها عما اذا كان ذاهباً الى الموقع فأومأ إليَّ أن أصعد. قفزت الى السيارة من فتحتِها الخلفية وجلست بجوار قفصين من الدجاج والحمام.

انطلقت السيارة في طريق اصطبغ باللون الأحمر القاني ولفح الصهد وجهي فأغلقت عيني وأقمت حافظتي الجلدية أمام وجهي.

توقفت السيارة أمام المسجد. وحانت مني نظرة الى القفصين فرأيت الحمام يرتعد. وتجمع الدجاج في ركن القفص مبتعداً عن عدة دجاجات أستلقت على جوانبها. ورأيت عيونها قد ضاقت وصارت مسحوبة لا تكشف الا عن جانب ضئيل من حدقاتها.

قفزت من السيارة وناديت على الجندي لينقذ دجاجة. وولول هذا صائحاً: مش بتاعي ده بتاع الضابط. حيخرب بيتي لو حصله حاجة.

مشيت متثاقلا حتى الاستراحة. واتجهت الى غرفتي وأنا لا أرى شيئاً أمامي. أفرغت بقايا الترموس في كوب رفعته الى شفتي. ولحظت أن يدي ترتعش.

ذهبت الى سعيد بتذكرة الطائرة بعد الظهر. كان يقرأ رواية سوفياتية بالعربية لبوريس بوليفوي. رويت له ما حدث مع صيام فقال: هذا الرجل غريب. لا أدري

ماذا يريد. لقد وعدته بمقالة عنه في المجلة... ماذا يريد أكثر من هذا. نقود؟

قلت: لا أظن. لعله يستمتع فقط بممارسة سلطة المنح.

قال: وماذا ستفعل الآن؟

قلت: سأبحث عن أحد الصنادل التي حدثني عنها وأسافر عليها.

تطلع الى ذقني التي حلقتها بعناية منذ قليل: أنت ذاهب الان الى تانيا... وسأقضي المساء كله بمفردي.

أشرت الى رواية بوليفوي وقلت: يمكنك أن تواصل القراءة.

ضحك وقال: هل تعرف ماذا حدث للجندي العائد من الجبهة في هذه القصة؟

قلت: لم أقرأها.

قال: تؤيه امرأة غريبة في منزلها. ماذا تظنها فعلا؟

قلت: هذا يتوقف على سنها.

قال: تصور أنهما قضيا الليلة يقرآن تاريخ الحزب.

قلت: سأمضي الآن... وفي الصباح سأعد لك حقيبتك.

قال: لولا قعدتي هذه ما كانت أفلتت مني هذه المرأة. أنا دائماً سيء الحظ.

قلت: بالعكس. أنت محظوظ للغاية. بوسعك الآن أن تكتب سلسلة مقالات بعنوان بين الحياة والموت في السد. ولن يجرؤ أحد على اتهامك بالكذب.

قال: أراهن أن صاحبتك تانيا مصابة بالسل. ألم تر كيف هي نحيفة.

قلت وأنا أتجه الى الباب: لا بأس. سأروي لك في الصباح كل ما سيجري الليلة.

عثرت على منزل فاليري بسهولة. وفتح لي الباب مرحباً فدلفت الى صالة توسطتها المائدة المعدنية المعهودة تحيط بها عدة مقاعد. جلست في مواجهة خارطة كبيرة للعالم وأوضحت له سبب حضوري بمفردي. كانت هناك علامات باللون الأحمر أضيفت الى الخارطة حول بعض المدن في كل من الهند وغانا وكوبا وتنزانيا والعراق. وقال فاليري أن له أصدقاء من أيام التلمذة في هذه الأماكن.

تطلعت الى الحائط الآخر فرأيت شيئاً أشبه بجريدة حائطية لصقت بها صور فتيات شبه عاريات منتزعة من المجلات الأوروبية سألته باسماً: وهذه؟

احمرّ وجهه وقال: ليست لي. انها تخص زميلي في المسكن.

طرق الباب فقام فاليري وفتحه. ظهرت تانيا في بلوزة بلون عينيها. تبادلنا

التحية ثم جَلَسَتْ الى جوار فاليري واشْتَبَكَتْ معه في حديث سريع بالروسية. ولحظت أن وجهها يبدو منتعشا مجرداً من آثار الارهاق المعهودة.

تشاغلتُ بدراسة الخارطة وتوزيع القارات والمحيطات بينما أذني على نبرات صوتها. وتحولتْ الي تانيا فجأة قائلة بالانجليزية: آسفة. لقد كنا أمس في حفل أقمناه لبعض القادمين الجدد. وكان فاليري يروي لي ما حدث بعد انصرافي.

ومالت الى الأمام بلهفة: قبل الحفلة رأيت فيلم جسر واترلو. لا يمكنك أن تتصور كم بكيت.

تطلعت اليها مدهوشاً: بكيت؟

قالت بلهجة جادة: أجل... أنا أبكي أيضاً عندما أتفرج على الافلام المصرية. ولهذا أحبها.

انطلقت أضحك وهي تتأملني في انزعاج بدأ يتحول الى غضب. مددت يدي ووضعتها على يدها قائلا: لا تغضبي. لم أقصد الاساءة اليك.

انحسر غضبها وقالت باسمة. هناك طبعاً شيء من السذاجة في هذا البكاء. لكن هذا هو ما يحدث. ربما لأني انسانة غير سعيدة.

بدا على فاليري أنه غير راض عن اتجاه الحديث. لم أعبأ به بل سألتها: لماذا؟

هزت كتفيها وقالت: لا أعرف. ربما لأني قلقة. أو أني لم أكتشف نفسي بعد. وربما كنت متقلبة المزاج.

قلت: كثيرون كذلك.

قالت: لكنني أحسد هوءلاء الذين يبدون راضين عن أنفسهم وعن كل شيء حولهم.

لزمنا الصمت لحظة ثم سألتها عن أبويها.

قالت: أمي ماتت أثناء الحرب. قبل نهايتها بشهور. قتلها جندي ألماني أثناء انسحاب الألمان. تصور؟ كان مختبئاً بين بعض الأشجار وخرجت هي تجمع بعضاً من نبات عش الغراب. وربما خشي أن تراه فتصرخ أو ربما ظنها جندياً. المهم أنه صرعها.

- وأبوك.

قال لها فاليري شيئاً بلهجة حادة فهزت رأسها في عناد دون أن تنظر اليه. قالت:

ـ أبي لم أره مطلقاً. فقد اعتقلوه قبل أن أولد بشهر. وظل في المعتقل حتى مات.

تأملتها حائراً ثم سألت. من هم الذين اعتقلوه؟

أجابت: رجال ستالين. من غيرهم؟

عدت أسأل: وماذا فعل؟

ـ لا شيء. هل تظن أنه كان من الضروري أن تفعل شيئاً لتعتقل؟

ـ ربما كان ضد الاشتراكية.

ـ لم يكن أكثر منه اخلاصاً وايماناً بالحزب وستالين نفسه.

ـ اذن كيف؟...

هزت كتفها: هذه قصة أخرى.

هب فاليري واقفاً في عنف وقال انه سينزل ليشتري شيئاً.

قلت عندما غادر المسكن: يبدو أن حديثنا لا يعجبه.

قالت: انه يشكو من افراط في احساسه الوطني. وهو يعتقد أن هذه الأشياء يجب ألا تقال للأجانب.

ـ ألا تخشين أن يسبب لك بعض المتاعب؟

قالت: لا أظن. فنحن أصدقاء.

تناولت الترانزستور وجعلت تعبث به قائلة انها تود أن تسمع احدى أغاني البيتلز. وسألتها عن أحب أغنية لديها ففكرت لحظة ثم قالت:

أغنية فرنسية اسمها: لا تقل لي سأحبك غداً، قبلني الآن.

نهضت واقفة وأشعلت سيجارة ثم جلست من جديد. وساد بيننا الصمت حتى عاد فاليري بزجاجتين من البيرة المثلجة وضعهما أمامنا. ثم أحضر من الداخل ثلاثة أكواب وطبقاً من السلاطة الخضراء وآخر من البطاطس المسلوقة.

دار الحديث ونحن نشرب البيرة حول يوفتوشنكو وشعره. وقال فاليري انه يحبه لموسيقى شعره وليس لمضمونه. سألته عن السبب فلم يجب. وقالت تانيا:

لقد كان يوفتوشنكو شيئاً فيما مضى. أما الآن فقد أصبح يفضل الموضوعات السهلة الآمنة.

بدأ فاليري يتحدث عن الوضع السياسي في مصر وكيف أننا قطعنا خطوات جبارة وبدأنا نبني الاشتراكية. اعترضته بيدي قائلا اني لا أريد الحديث في السياسة.

تطلعت تانيا إليّ مبهوتة وسألت: لماذا؟

قلت: لقد مللت ترداد نفس الأشياء. دعونا نتحدث في شيء آخر. ليحدثنا فاليري عن فتاته.

احمر وجهه وصفقت تانيا بحماسة قائلة: أجل أحكِ لنا.

قال: ليست لدي واحدة محددة.

قلت: لا أتصور أنك لا تحب.

قال: أنا أحب عملي. وليس عندي الوقت لشيء آخر.

خاطبته تانيا: ولكنك ستجد الوقت بعد عام أو عامين لتتزوج كي تهرب من ضريبة العزاب وتحصل على مسكن.

انهمك فاليري في اخلاء المائدة. ثم استبدل غطاءها بآخر من المشمع المنقوش بزهور كبيرة ملونة. وحمل الغطاء الأول الى الداخل.

مالت تانيا برأسها فوق المائدة وأسندت خدها الى الغطاء وهي تتطلع الي باسمة. تأملت شعرها الذي انتشر فوق الغطاء الملون محيطاً بوجهها. وانتقلت عيناي الى شفتيها المنفرجتين وعينيها اللتين صارتا شديدتي اللمعان.

تذكرت أن الغد هو الجمعة ففكرت أن أعرض عليها أن نتقابل لكن فاليري عاد في هذه اللحظة واستقر الى يميني مشعلا سيجارة.

هبت تانيا فجأة واقفةقائلة أنها ستعد لنا شاياً. واتجهت الى المطبخ فقمت خلفها قائلا لفاليري أني سأساعدها.

كان المطبخ الصغير في حالة فوضى تامة. ووقفت في المدخل أرقبها وهي تشعل موقد الغاز. ولمحتني هي فقالت غاضبة: أرجوك أن تعود الى الصالة. فلست أحب رؤية الرجال في المطبخ.

انضممت الى فاليري وجلسنا في صمت نصغي الى موسيقى راقصة من الترانزستور. وعادت تانيا بالشاي بعد لحظات. ثم أحضرت الفناجين واناء السكر وهي تهتز على نغمات الموسيقى توليت أنا وضع السكر في الفناجين وصب الشاي قلبت السكر بينما تانيا ترقص في منتصف الصالة وقد رفعت وجهها نحو المصباح وأغلقت عينيها في نشوة.

كفت عن الرقص واقتربت مني مادة يدها لتأخذ كوبها قلت لها. انتظري حتى يذوب السكر.

قالت وهي تحرك قدميها مع الموسيقى: لا أستطيع الانتظار.

شربنا الشاي ونحن نصغي للموسيقى. وساد بيننا الصمت بعض الوقت. وبدت تانيا فجأة ساهمة مقطبة وقد فقدت كل حيويتها. وظهرت الغضون الخفيفة من جديد حول شفتيها.

قررت الانصراف فلم يعترض أحد. وقالت تانيا انها ستنصرف بدورها. غادر ثلاثتنا المسكن وانتظرنا أنا وتانيا على الدرج حتى أغلق فاليري بابه بالمفتاح. لحظت أنه نسي النور مضاء بالداخل. قلت له فقال وهو يهبط الدرج خلفنا:

- أنا أترك النور دائماً مضاء لأني أكره دخول المسكن في الظلام.

قلت وأنا أخطو الى الطريق أني أفعل مثله.

رافقتنا تانيا الى منزلها. وعندما مررنا بالمنزل الذي يسكن به ياكونوف رأيناه واقفاً في ظلمة المدخل يدخن. وابتسم لنا ابتسامته الصافية وهو يضحك ضحكاته الصغيرة الخجولة. وكان يبدو ثملا.

تبادل فاليري معه بضع كلمات وانتهزت الفرصة لأسأل تانيا في صوت خافت اذا كان يمكن أن نلتقي في الغد.

أجابت على الفور: لا أعرف. لا أعتقد لأني سأكون متعبة.

قلت: لكننا اتفقنا على القيام بجولة في المدينة.
قالت: لا أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت: سأكون في النادي بعد غد. تعال اذا كان لديك وقت.

أنهى فاليري حديثه مع ياكونوف ولوّحنا له بأيدينا ثم واصلنا السير حتى منزل تانيا. انتظرنا حتى صعدت ثم عدنا أدراجنا. وأصر فاليري على مرافقتي الى محطة السيارات وبقي الى جواري حتى جاءت سيارة المهندسين وصعدت اليها.

تكاثف الغبار وأشرفت قافلة القلابات على هوة المحجر الهائلة التي تألف جدارها من ثلاثة طوابق برز من كل منها شريط ضيق من الارض أستقرت فوقه حفارة كبيرة نقشت الحروف الروسية التي تشكل اسم الاتحاد السوفياتي على صندوقها الذي كان يدور فوق محوره في حركة سريعة وجرسه يدق محذراً وتدور معه الذراع الطويلة التي تنتهي بالكباشة ذات الانياب الحديدية البارزة وتزمجر الآلة وتصر تروسها ثم يتوقف الصندوق عن الدوران وتمتد الذراع الى الجبل وقد ازدادت طولاً على طول حتى تصطدم بسفحه الجرانيتي أكثر

الصخور شيوعا وأساس القارات جميعا الذي تكون من مواد مصهورة صعدت من أعماق الارض وتجمدت عندما تعرضت للجو فتبلورت معادنها وتلاصقت دون أن تترك مكاناً لفراغات الهواء فأصبحت وسيلة الضغط الاولى في بناء السد بعد أن استخدم في بناء خزان أسوان ونحت منه مختار تمثال نهضة مصر وقبل ذلك نحت منه الفراعنة أبا الهول ومن ترسب فتاته تكون الحجر الرملي الذي بنى منه رمسيس الثاني سلسلة معابده على شاطىء النيل بعضها شيد تشييداً والبعض الآخر نحت في الصخر الحي وتصدرته تماثيل فرعون في حجم خرافي يتطلع باسماً الى حيث تشرق الشمس لأنه كان يخشى غروبها في العالم السفلي وتضرع لأمون استجب لابتهالاتي يا أبي وسيدي اجعل الخصوبة تتفتح في كل أعضائي ولعل في مقدورك أن تمنحني الملك لمائتي عام وقرنا بعد قرن هبّت الرياح محملة بالرمال وعندما اصطدمت بالجبل حطت حملها الذي تراكم فوق واجهة المعبد فحماه من عبث اللصوص وانقذه من أن يتحول الى كنيسة على يد الاقباط ومسجد على يد المسلمين وصان لنا التماثيل سليمة الا من أثار التعرية المتواصلة فتغير درجات الحرارة بين الليل والنهار يحدث تمدداً وانكماشاً في الصخر يؤدي الى تفككه وتفتته وتكتسح الرياح والامطار الفتات وتسقطها عند أقدام المرتفع التالي وما تلبث افرازات الحيوانات وبقايا النباتات أن تنضم اليها وتتحول هذه الرواسب المفككة الرخوة الى صخور متماسكة بتوالي تراكمها وتستوي طبقات تظهر فيها آثار نقط الامطار وأرجل الحيوانات وكل ما وقع من أحداث ثم تجف فتنكمش ويتضح ما بها من مواطن ضعف تتكسر عندها الى زلط ورمال متنوعة الاحجام والاشكال تتراوح بين الخشن والناعم تنطلق بها شاحنات الماز والبيجماز والكراز الى جسم السد فتدور كل منها حول نفسها وتتراجع بمؤخرتها ثم يرتفع صندوقها تدريجيا وتتساقط حمولته في ضجة وغبار حتى يصبح الصندوق في وضع شبه عمودي على السيارة ويخلو تماماً وعندئذ يعود الى وضعه الافقي في بطء بينما تمضي العربة خفيفة سريعة لتأخذ مكانها من جديد أسفل الكباشات التي تخطيء الهدف أحياناً فترتفع في الهواء فارغة ولكنها توالي العمل حتى تنتزع القشرة الصخرية عن سفح الجبل وتتكشف للعيان طبقات الطمي ذات الالوان الحمراء والصفراء والزرقاء تبعا للاكاسيد المكونة لذراتها الرخوة التي تنهار تحت أبسط ضربة وتتخذ هيئة حبيبات متناهية في الصغر بينها مسافات دقيقة للغاية اذا ما أضيف اليها قليل من المياه تكونت منه بتأثير الجذب الجزيئي بينها أغلفة ثابتة تحول دون مرور الماء خلال الحبيبات وبذلك تتحول المادة الهشة الى عنصر قوة وتماسك يؤلف ذلك الحائط المنيع في قلب السد المسمى بالنواة الصماء التي تمتد منها فرشة أفقية في جسم السد الامامي المطل على البحيرة وأخرى رأسية تحت سطح الماء وداخل الطبقات الرسوبية المكونة لقاع النهر حتى الاساس الجرانيتي الصلب مؤلفة الحاجز الرئيسي في وجه جريان الماء المستمر الذي

يجرف أمامه كل شيء من صخور تمثل الشيء الحقيقي غير المجرد الذي لا يناقش من أي نقطة الى الرمال التي تحمل اثار الأحداث هي وطبقات الطمي تصعد فيها الكباشات مخلفة في حائط الجبل جراحا طولية تشبه اثار أصابع هائلة لسجين عملاق حاول في لحظات يأسه أن يتسلق الحائط فحفرت فيه أظافره مسارات لها كما فعلت الاظافر القذرة للحارس العجوز في ظهورنا وقد أرسلوه يداوي جراحنا لنتلقى المزيد أما شهدي فلم يكن بحاجة الى مداواة وعبثا حقنوه بالكورامين وقد أشفقوا أن يفلت بهذه السهولة لكن الحياة قد فارقت الجسد العملاق وأغمضت عينيه في سبات الراحة العميق كما رقد المسيح في حجر أمه وهو ما لم يفعله نحات من قبل ميكل انجلو الذي أدرك منذ البداية أن الامر سيكلفه حياته كلها لكن بما من اثارة محملة بخطر الموت تفوق انسانا وحيداً يسعى ليخلق شيئاً لم يوجد من قبل فتفتت الصخر تحت ضرباته كما يتفتت الكعك بينما التحم ايقاع الحركة الداخلية لتنفسه بالحركة الصاعدة الهابطة للمطرقة في يده وهو يزلق الازميل في الثلم الذي صنعه في الصخر وأرسل وقع الضربات موجات من القوة صعدت في ذراعيه الى كتفيه وصدره وهبطت الى حجابه الحاجز وساقيه وقدميه وتعلم أن الصخر هو السيد واذا ما ضرب في المكان الملائم كشف عن نفسه للفنان الذي يعرف بالاوضاع الدقيقة لتمثال الرجل بتركيبات لا تقوى النيران على حرقها ولا تستطيع المياه اذابتها وربما ذابت آلام السياط في الاصابع التي تحسست الصخر لتشكل صورة رمسيس آلها بين الآلهة المنتظرة في المعابد حتى يحقنها الخبراء لتقاوم الزمن دهراً اخر هي وصور التعذيب والقتل وأكاذيب رمسيس ومزاعمه وصخور السد التي يحقنونها بطبقة رفيعة من مزيج أربع مواد: اثنتين منها من روسيا تخلطان برمال وطمي مصر الممتدة من أدناها الى أقصاها مجموعة من القرى المظلمة ترتعش في جنباتها ذؤابات مصابيح الزيت والمدن المتشابهة بسجونها التي تقع عليها أشعة الشمس في نفس الاتجاه وتتسلل الى زنازينها في نفس الموعد دون أن تفلح في تبديد البرد الجاثم وعبثا حاولت أن أبعث الدفء الى شفتيها وقالت انها خائفة فأطفأنا النور ووقفنا في الظلام ننصت الى أصوات الشارع وميزت ضحكة ياكونوف وقالت انه عائد ولا شك من اجتماع متأخر بحثت فيه مشاكل الحقن في النواة الذي كان من عشر سنوات يعتبر أعجوبة تداني ذلك العمل من أعمال الخلق الذي لا بد فيه من الطعنة الاختراق النبض المتوتر الحفر الى أعلى نحو قمة جبارة من الامتلاك الكامل فعل الحب نفسه الجماع بين النماذج الذهنية والاشكال الكامنة في الصخر وقالت نيبيت فلم أعبأ وواصلت نزع الرداء فقالت يجب ألا تفعل لكنها حركت فخذيها تساعدني على انتزاع القطعة الاخيرة وقالت شيئاً بالروسية ثم بالانجليزية لكني لم أع فقد كان بصري معلقاً بفتحة الممر الضيق الذي يمتد بطول جسم السد ويبدو من الخارج كقطار طويل موشك على التحول في احدى المنحنيات وقد بدت فواصل عرباته التي كان

بعضها لا يتعدى هياكل حديدية تغطيها صناديق خشبية يجري ملؤها بالخرسانة بينما تجلب قلابات زيل الرشيقة الطمي تكومه على جانبيه ويتولى الصعايدة رشه بخراطيم المياه ثم تقترب منه البلدوزرات وقد ارتفعت دروعها الامامية كأنها جيش من المحاربين يستعد القتال وتتقدم فوق التراب ثم تهبط الدروع في بطء حتى تلامس الارض ويبدأ في دفع الطمي وتمهيده حتى تدكه الهراسات وعما قريب ترتفع أكوام الرمال والطمي حتى تغطي الى الابد ممرات التفتيش الثلاثة التي ستصبح الطريق الوحيد الى قلب السد حيث تبقى حية أجهزة تمتص ما قد يتسرب اليه من مياه وتقيس ما قد يتعرض له من تطورات أما الان فليس بها غير آلة التخريم الدقاقة التي ترتعش في ذبذبة متواصلة وعمودها يتحرك صعوداً وهبوطاً متقدماً الى أسفل داخل ماسورة عمودية من الصلب وصاح العامل محذراً فقد وقعت قطعة حجر على العمود ولا بد من الاستعانة بقليل من الديناميت لتفتيتها وهي مشاكل مألوفة تقابل التخريم في الارض غير المتجانسة التي تنوعت مكونات المعادن في بلوراتها يتحطم بعضها اذا ما ضرب الازميل في الصخر ضربة عشواء ولم أفهم حتى كررت أنها تتألم دائما منذ كانت المرة الاولى قبل سنوات ولا بد من الرفق فالمادة الغنية الدافئة تفقد توهجها أمام التعنيف والهرولة وتلتف الصخرة بنقاب حجري صلب يمكن تحطيمه بالعنف لكن لا يمكن ارغامها على أن تعطي فهي تستسلم للحنان يرتجف فاستبدلوه بآخر أكثر سمكاً ينتهي بما يشبه الكرة وعاد العمود يهبط وتزداد أشعاعا ولمعانا وتلمست أصابعي سطوح الجسد العاري وثناياه حتى حرّكت رأسها في بطء وشعرت بشفتيها تلينان وأخذ جسدها يتلوى تحت أصابعي وانفرجت ساقاها وهناك كانت مبتلة أيضاً وتوقفت الآلة عن الحركة وسرت فيها رعشة خاطفة تكررت عدة مرات وأخرجوا العمود وهو ما زال بالحفرة بينما صعدت الكباشة في الصخور التي فتّتتها أصابع الديناميت بعد قرون من فعل الرياح التي تكتسح ما يقابلها من رمال وحصى وتضرب به صخور الجبال في عنف فتأكل في جنباتها وتجعل فيها بروزات ونتوءات تاركة الحصى الملقى على الارض في شكل اهرامات مثلثة صنعه اتجاه هبوبها وربما كان هذا هو السبب في أن الفراعنة عندما أرادوا أن يصونوا قبورهم أبد الدهر بنوها في شكل الاهرامات الذي اتخذته رؤوس الروافع الثلاثة العملاقة فوق مبنى الانفاق المرتفع أحد عشر طابقاً عاما بعد عام سيرتفع السد كله ليصبح في مستوى هذه القمة أما الان فهو بعد هياكل حديدية وأخشاب واسمنت ودرجات حديدية رفيعة وأسياخ مشرعة وجدران عالية مائلة ومواسير حمراء وأخرى سوداء سميكة تمتد بعرض السد وثالثة رفيعة تنتصب عمودية عليه هي أعمدة آلات التخريم التي يخرجونها بسرعة من الحفرة بينما يسيل الماء ممزوجاً بالطمي من الكرة المثبتة في أطرافها وعندما يتم افراغ الكرة تماماً من محتوياتها تعاد الى الحفرة من جديد وتتكرر العملية والعمود يتقدم نحو الاعماق حيث تغلي

الحمم وتتحرك المادة المصهورة حركة بطيئة بحثاً عن موضع لين تنطلق منه ضاغطة على طبقات الارض الخارجية فتتثنى جبالا ووهادا وطرقات متعرجة منحدرة نقلت خطواتي فوقها في أعياء بين قطع الصخور التي تدحرجت من حول الكباشة دون أن تستقر فيها حتى اصطدمت أسنانها بواحدة كبيرة ودار صراع عنيف بين الحديد والجرانيت كانت الغلبة فيه للآلة واستقرت قطعة الصخر في قاع الكباشة التي دار بها صندوق الحفارة في حركة سريعة الى اليسار مقتربا من مؤخرة قلأبة وهو يدق جرساً حادا بالحاح جعلنا نرتجف ونلتصق في الظلام منصتين وقد سرت البرودة في أطرافها حتى توقف رنين الجرس وسمعنا صوت

خطوات تهبط السلم الذي قادتني درجاته الحديدية الضيقة الى حيث جلس الصعيدي المعمم القرفصاء وسط الخراطيم والكابلات واللمبات والادوات الكهربائية الى جوار زير امتلأ بالماء وبرزت منه زجاجات الغازوزة وأمامه موقد جاز يحمل براد الشاي وحوله عشرات الصعايدة الذين يحملون الاتربة في المقاطف ويرشون الطمي بالماء يتناولون منه أكواب السائل الاسود ويتطلعون اليه في بلادة بينما يجذب قلمه من ثنايا عمته ويسجل لكل منهم حسابه في كراسة بالية قذرة فما زالت الارقام والحروف لديهم ألغازاً غامضة والفرصة قد فاتتهم الى الأبد وإلا لكانوا عرفوا طريقهم الى الفصول التي خرجت آلاف العمال المهرة والملاحظين يديرون اليوم حفارات الديزل الكهربائية والبلدوزرات والهراسات والرافعات الهوائية والرافعات الكهربائية وأجهزة الحقن يخرجون قضيب التخريم عندما يصل الى العمق المطلوب ويستبدلونه بماسورة مزركشة بثقوب على أبعاد متساوية تغلفها أغطية من المطاط يدفعون الى داخلها بأنبوب الحقن الذي يحمل ثقوباً مماثلة ويديرونه قليلا حتى يسد بعض الثقوب في جدار الماسورة الاولى ويصبح مواجها لثقوب اخرى بينما يستقبل خليط الحقن تدفعه اليه المضخة الماصة الكابسة فينتفخ المطاط الذي يغلف ثقوبه كما ينتفخ الجلد الذي يغلف طبقة الشحم المتراكم فوق جسد مقاول الانفار وقد جلس الى مقود سيارته وبجواره زوجته السمينة يلتف الذهب حلقات حول ساعديها وهؤلاء هم الذين سيحكموننا .قد سبقتها سيارة رحلات قادمة من كامبريدج أحاط بها ثلاثة من السياح الانجليز رفعوا كاميراتهم الى عيونهم وقبل ذلك جاءوا غزاة ومحتلين وصعدت جحافلهم الى أعالي النيل تنشر الموت والفناء وامتزج ماء النهر بدماء الالوف الذين سقطوا برصاصهم عبر المستنقعات والغابات والسهوب والطرقات المتعرجة الضيقة التي تتتابع صعوداً وهبوطاً تزحف فوقها الشاحنات والقلابات المحملة بالصخور والزلط والرمال والطمي والأخرى الفارغة تنطلق سريعة وتتقدم من خراطيم المياه بمؤخرتها بعد أن ترفعها الى أعلى ليتسنى للعامل الواقف على درج بجوار الخرطوم ان يغسلها جيداً لتمضي بعد ذلك الى موقعها تحت الخلاط أكثر نشاطاً فوق طرقات لم تكن هنا بالأمس وستردم في الغد صانعة طرقات جديدة مضيت فوقها

حائراً دائخاً أبحث عن مداخل الانفاق الستة ماراً بروسي يرتدي قميصاً ملوناً وقبعة سميكة من الفلين ويتدلى من كتفه ترموس كبير امتلأ بالشاي او الماء المثلج جعلني منظره أشعر بعطش لم يروه منظر المياه التي انبثقت تحت أقدامي فجأة في مجرى ضيق بين حائطين من الصخور الحادة غير المتساوية التي استسلمت في مكان وقاومت في مكان آخر صانعة القناة التي أجبر النهر ذات صباح ان يتحول اليها فعرف لحظة قصيرة مرعبة من الظلمة المفاجئة بعد رحلة شمس طويلة مرحة عندما ارتطمت مياهه بجدار النفق واصطدمت بقواعد التوربينات ثم اجتازت البوابات ليجري مكسوراً هادئاً مستكيناً تحت عدد لا حصر له من الجسور الحديدية والخشبية تتسرب قوته خلال آلاف القنوات التي يلعب فيها الصبية عرايا وتستقر في قيعانها قواقع البلهارسيا مخترقاً المدن بلا صوت حتى يدفن نفسه في البحر الواسع وهو الذي ولد من ضجة وهدير أتاني من على بعد عدة أقدام حيث وقف عدد من المهندسين الروس والعمال المصريين يطلون على مياه الفيضان العالية السمراء تنحدر الى القناة الضيقة من النهر الذي ارتفع بمياهه الى حد البيوت يضرب بها العتبات برفق مجبراً خمسين ألفاً من سكانها على الرحيل حاملين أكياساً من تراب الوطن وحجارته تاركين خلفهم قرى وواحات سوداء تزحف اليها المياه حتى تغطيها تماماً وتختفي الارض التي ظلت قروناً منجماً للذهب والرجال ينتشرون في أرجاء المدن خدماً وبوابين بينما تنتظرهم نساؤهم في رعب دواماً تتلو أعواماً في قرى لا تضم سوى العجائز ستتحول الى بحيرة هائلة تقام عليها مصايد الأسماك ومصانع التعليب وتنطلق منها الشاحنات السريعة فوق طرق ممهدة تشرف عليها واجهة مبنى الانفاق بفوهاتها السوداء التي تشبه أطلال معبد فرعوني ارتقيت اليها سلماً حديدياً رفيعاً حتى ضرب الهواء وصوت تشي تشي قوي كالهواء المضغوط ساقي من فتحة في ماسورة وتساقطت قطرات من المياه فوق رأسي الى أن صرت في مدخل النفق أواجه رنيناً متصلاً مفاجئاً كاصطفاق ألواح هائلة من الحديد وتشبثت بسلم حديدي ضيق التصق بجدار النفق المائل الى أسفل وهبطت فوق درجاته معطيا ظهري للجدار الذي انحدرت عليه مجاري قطع من الزلط والاسمنت في قليل من المياه بللت ملابسي وانتشر الظلام رويداً رويداً حتى اختفى الضوء الآتي من خلفي وامتد لسان منه أمامي تلاشى عندما انتهى السلم بالجدار المائل وامتد النفق في مستوى أفقي الى ما لا نهاية ككتلة من الظلام أتتني عبرها أصوات متتابعة وقد التف ساقاها حول وسطي تجذبانني في اصرار وتناثرت حولي جنيهات ذهبية متطايرة من الدائرة الحديدية في السقف التي زحف العمال كالعناكب في المسافة الضيقة بينها وبين الجدار يحملون شعلات الاكسجين الساطع تطلق عند اللحام عاصفة طاردتني وأنا أتقدم ببطء شديد الى أعماق الاسطوانة الهائلة حتى تبينت فجأة المصابيح الصغيرة المثبتة فوق الجدران على مسافات متباعدة فلا تكاد أشعتها الواهنة تبلغ قلب

الظلام الذي بزغ منه بلدوزر هادر يرتج فوق جنزيره ودرعه الامامي مشتبك بالصخور يدفعها ويكوّمها الى جانب الجدار أمام حفارة وقفت على مبعدة وقد اختفى جسدها في ظلام النفق ولم تظهر منها سوى ذراعها المنتهية بالكباشة حامت فوق كوم الصخور ثم انقضت عليه كالصاعقة فارتج الصخر وارتجت الحفارة بكاملها ونشبت معركة مدوية حيناً صامتة حينا آخر كان لها نهاية واحدة محتومة فقد ارتفعت الكباشة بحمل الصخور ودارت بسرعة ناحية اليمين ثم توقفت وكشرت عن ابتسامة كبيرة انفصل فيها فكها الاسفل وتساقطت قطع الصخور والرمال في قمع كبير مثبت في كسارة فتتتها الى زلط صغير انزلق على سير من المطاط الى ماسورة ستقذف به الى الخارج بينما الكباشة ما زالت تطل على القمع من أعلى وقد تدلى فكها متأرجحاً في حركة بطيئة مسترخية مرة الى الامام ومرة الى الوراء تسيل منه بقايا أتربة ثم عاد الفك الى موضعه واستطال عنق الكباشة وهي تدور عائدة لتنقض على كوم الصخور لكنها ارتطمت بأرض فارغة اذ أخطأ السائق الحساب وجعلت تتطوح فوق الارض يمنة ويسرة من أثر الصدمة ثم ارتفعت عنها قليلا لتقترب منها مرة أخرى خافضة الرأس وأخذت تنطحها وتزيح الاحجار بصدغها ثم تحمل بعضها ولكنها لا تمتلىء فتعاود كحت الارض وتكويم الصخور وكبشها وتصبب العرق على وجهي وغطى جسدينا وامتلأت أذناي بالهدير المكتوم مختلطاً بصرير الكباشة بجرس الحفارة بأنفاسها اللاهثة والتصقت بالجدار مفسحاً المجال لطابور من العمال يحملون أخشاباً على أكتافهم تبعتهم شاحنة تحمل انبوبة طويلة ذات درجات حديدية رفيعة مثبتة على جدارها تؤدي الى منصة في قمتها وتوقفت الشاحنة وارتفع ظهرها فرفع السلم التلسكوب رأسه حتى ارتطم بسقف النفق وتأوهت فجأة وقد تصلب جسدها فتقدمت بحذر بين صناديق مغلقة عليها جمجمة التحذير من الاقتراب وداخلها المحولات التي تغذي الحفارات والكسارات والمصابيح العاملة داخل النفق تمتد منها على الجدران الى أعمق أعماقه الاسلاك التي كانت توصل عندما بدأ حفر الانفاق بأصابع الديناميت وتوضع في الخروم التي صنعتها آلات التخريم ثم تنسف ويرفع حطام الصخور الناتج بواسطة الحفارات الى القلابات الى الخارج ثم تزال الأحجار المخلخلة ويبطن موقع الحفر بالخراسانة المسلحة التي تنهمر مرة واحدة من قمع الخلاطة الضخم فوق ظهر القلابة فترجها رجاً وتشبث اطاراتها القوية بالارض في يأس ويتراقص السائق على مقعده ثم تستكين وتسترخي أسفل القمع الذي تتساقط منه بضع ذرات اخيرة تتحرك القلابة على اثرها مبتعدة في جهد لتنساب واحدة اخرى وينطلق طابور القلابات يئن ويلهث بين عنفوان الحركة الاولى وحشرجة الحركة الرابعة المسماة بالعجوز ثم يصب في الفوهة السوداء الهائلة لكن أطنان الخرسانة لم تحل دون انهيار النفق وكان أعتى الرجال يبكي أمام الكارثة فقد عجزت كل الدراسات عن معرفة طبيعة الجبل لأن مصر كانت مسرحاً لتفاعلات

بركانية عنيفة كونت في تربتها التواءات وفيالق شديدة لم تكن تتكشف الا أثناء التخريم عندما تتعرض للجو فقاعات الهواء التي لا ترى من الخارج لهذا علموه منذ الصغر كيف يتنبأ بوجودها عندما يطرق الصخور بمطرقته فتعطي القطع الصلبة صوتا كرنين الاجراس اما المعيبة فيكون رجعها باردا وتعين عليه ان يقضي الليل الى جوارها بعد أن غطاها ليقيها من البرد وفي الفجر المحنى فوقها يتأملها في ضوئه الذي جعلها تبدو شفافة وكان هذا هو الموعد الذي ينهار فيه النفق دائماً عندما يلين الصخر بتأثير البرد فيقبر أسفله ورديات كاملة من الرجال لا يصعد منهم أحد وكان الكل مستعداً لأن يضحي بحياته في بساطة فلم يكن هناك وقت للتفكير ويوم تحويل مجرى النيل كانوا شعلة من الحماسة وشعروا بزهوة الفخر لأن مصر قالت لا لدول لم تتعود ان تسمعها اما نحن فكنا نلوك في الظلام حكايات معادة وضوء ضعيف يتسلل من القضبان التي تقف حاجزاً بيننا وبين الفعل وعنده كان العمل في الاسكتشات ومع النماذج هو التفكير أما الفعل فكان النحت مباشرة بالضربة الحية التي ينفذ بها الازميل الى أعماق الرخام ويصعد في المادة الحية الدائئة وقد ألقى النحات بجسده كله خلف المطرقة والازميل يتقدم مخترقاً طيات المادة الطيعة حتى يبلغ الذروة ويتدفق سيل قوته ورغبته وعاطفته في الشكل الذي يريده وتستجيب قطعة الصخر فتعطيه من أتونها الداخلي وسيولتها حتى يلتحم النحات بالصخر ويصبحان شيئاً واحداً بعد أن تبادلا العطاء مثلما يحدث لقضيب الحقن عندما يدور بسرعة حول نفسه ويكاد يشتعل هو والبلف من الحرارة ويندفع الخليط داخله الى أن تنتفخ به الأغلفة المطاطية التي تغطي ثقوبه ويتزايد ضغطه عليها حتى يخترقها وينتشر في التربة ملتقياً بالخليط المتدفق من الثقوب الاخرى ملتحماً به في ستارة صلبة تمتد أسفل النواة الصماء داخل الطبقات الرسوبية المكونة لقاع النهر حتى الأساس الجرانيتي الذي تكون عندما خرجت الحمم من أفواه البراكين وسالت على جوانبها ثم بردت وتجمدت صخراً لا يستسلم الا للمهارة والحب الذي جاش في الصدر عندما انقسم النفق فجأة الى نفقين يؤدي كل منها الى توربينة في توربينات المستقبل وظهر بشير ضوء في نهايتها وقفزت من فوق افرازات آدمية وأنا أحبس أنفاسي عن رائحتها وكدت أتعثر في قطعة ضخمة انتزعتها المياه الهائجة يوم التحويل ١٤ مايو ١٩٦٤ من مدخل النفق وحملتها الى القرب من مخرجه وأصبحت أخيراً في الضوء والهواء الطلق الحار والشمس اللاسعة الى جوار شاب روسي يغطي رأسه بخوذة من البلاستيك ويشير بيده الى عامل مصري تعلق بسقالة فوق فوهة النفق الفاغرة التي ابتلت جوانبها ورددت طرقات «كيما» ذات المنازل المتوازية أصوات باعة الخبز واللبن المصريين ينادون بالروسية خليب مالاكو فجاءنا الصوت عبر النافذة المغلقة التي يعلوها صندوق جهاز التكييف وكادت تفقد معالمها بعد ان تلاشى ضوء الغسق وانفردت النجمة الكبيرة بصفحة السماء وفي ضوء القمر

ضربنا قطع الزلط الواحدة بالاخرى فتولد عنها ذلك الشرر الملون الرائع وأتت من النافذة المفتوحة التي تصدرتها قلة الماء همهمة بعيدة هادئة هي أصوات الاسرة في الصالة المضاءة التي يلتمع بلاطها النظيف ويفصلها باب عن دورة المياه كان زجاجه ما زال سليماً لأن الشرخ حدث بعد ذلك وحمل الينا الهواء صوتا نائياً عذباً بالروسية وقالت انها ضواحي موسكو بالليل عندما تتكسر على طرقاتها أوراق الخريف وتتراكم فوقها طبقات الجليد ثم تتنفس الحياة في البراعم الدقيقة ويصبح الليل كله فجراً وهي المهرب من المدينة ذاتها بشوارعها الفسيحة المتدرجة صعوداً وهبوطاً ومبانيها الضخمة المجردة من الجمال وانفاقها الهائلة وكتلها البشرية المتدافعة عند أبواب المترو والمسارح والمطاعم والمحلات أسفل الشعارات المكررة والافيشات الضخمة لأناس يبتسمون في سعادة بينما يتطوح السكارى عند مفارق الطرق أو يركعون على الأرض في عرضها أما النساء فيغرقن تعاستهن في الطعام وكلنا بدأنا بأحلام عريضة وثقة لا حدّ لها وضاعت بهجة الطفولة والشباب بين قنابل الطائرات وعربات السجون والصور الغامضة عن الجنس الآخر تجمع خفية وتدس في مكان ما في متناول اليد كل واحدة منها وعد بتلك اللذة الغامضة بين الساقين حتى تفجر الينبوع فأصبح للأسى معنى كلمة واحدة كانت كافية لفتح الجرح الذي لا يندمل فاشارة اهتمام قد ترقى الى مرتبة العاطفة المفتقدة وهناك لذة لا تدانيها لذة في حفر الجرح الغائر الى الأعماق حتى يترسب الحزن طبقات من الصخور المفتتة والرمال تكومت تلالاً الى جوار مخرج النفق تحت أقدام درج عمودي ضيق صعدت عليه أربعين درجة حتى بدأت ألهث وكدت أفقد توازني عندما نظرت الى أسفل ورأيت الدائرة الخرسانية الكبيرة تحيط بها شبكات من الأسلاك والقضبان الحديدية أشرعت أطرافها المدببة في الهواء لكن رأسه تجاوزتها ارتفاعاً والتفت أصابعه الطويلة حول أسنّتها وكان عبثاً ان راح يجادل بالمنطق ويتساءل كيف يمكن ان يتآمر احد ضد حكومة تبني السد الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده الى راحته اليمنى مستمتعا بالموقف لأن كل شيء كان جاهزاً على الأوراق والحكم معدا للتنفيذ وقديما نصح ميكيافيلي بقتل بروتس وأبنائه وعندما حلت بالنحات لعنة محكمة التفتيش بسبب قديسيه وشهدائه العراة لم يجده دفاعه بأنها الصورة التي خلق بها الرب آدم ألم يقل لورنزو ان قوى التدمير تسير دائماً في أعقاب الخلق والابداع من درج خشبي الى آخر حديدي وهبط بالقرب مني وعاء حديدي ضخم يحمله خطاف رافعة هائلة توقف لحظة متمايلا بينما تبادل عشرات الناس المجهولين المتفرقين وسط المئات اشارات خفية تحرك الوعاء على أثرها قليلا ناحية اليمين ثم اتجه الى اليسار وواصل الهبوط حتى استقر وسط دائرة التوربين ومدّ أحدهم يده فجذب أحد جوانب الوعاء فانهالت الخرسانة في المكان الذي ستصنع فيه أرخص كهرباء في العالم حتى تختفي الآلات اليدوية وتضاء مصر من أدناها الى أقصاها وتموت وحوش الليل

وبلغت ثمة الدرجات فقفزت الى الشرفة الصغيرة المطلة على مخرج القناة من فوق بوابات الانفاق الضخمة التي يجب ان تفتح اليوم لتمر منها مياه الفيضان العالية والا اجتاحت المحطة كلها وأساساتها ومضيت بمفاصل مرتعشة متشبثاً بحاجز حديدي ساخن فوق جدار مرتفع متحاشياً التطلع الى أسفل حيث استقرت على جانبي الجدار اثنتان من قواعد التوربينات فاغرتي الفيه حتى بلغت نهاية الجدار وصعدت درجاً حديدياً ثم ارتميت فوق شريط من الأرض المتربة تراكمت فوقه أكوام الأسلاك والاخشاب والآلات المختلفة وأشرفت من مأمن على القاع الذي تجمع فيه عدد من الصعايدة يقودهم عامل وضع فوق رأسه غطاء معدنياً أحمر اللون قد يكون روسياً او مصرياً ويجمعون كل ما تناثر في قاع حوض التوربين من قطع الحديد والأخشاب والعدد والاجهزة في وعاء حديدي كبير لم ينتظره خطاف الرافعة حتى يمتليء فمضى يحمل هو أيضاً مجموعة من القضبان الحديدية حزمت بالحبال وارتفع من القاع حتى أصبح فوق الشرفة وخفض الواقفون هناك رؤوسهم حتى مر الخطاف من فوقهم وصاح أحد المهندسين بجانبي على عمال القاع ان يصعدوا قبل ان تدهمهم المياه فجرى بعضهم يتسلق السلم الحديدي الرفيع الذي حمله الى جدار جرى فوقه الى سلم آخر عريض بينما تزاحم الباقون على قاعدة السلم الرفيع وحاول احدهم ان يصعده من جانب فكاد يقع وتدلى منه آخر متأرجحاً في الهواء وفضل ثالث ان يتسلق الجدار بقدمين كالمخالب وتبقى ثلاثة من الصعايدة في قاع الحوض يجمعون في بطء ألواحاً من الأخشاب ثم قاموا بحزمها ووقفوا ينتظرون الخطاف ليحملها وانبطح الى جواري مصور روسي ينتظر في صبر ليصور لحظة اندفاع المياه من النفق الى الحوض ومنه الى الخارج حيث ستنطلق دائماً في وفرة تروي أرضاً جديدة سينتفخ جسدها المتعطش للمياه وتعطي بدل المرة مرتين في مأمن من نزوات جابي الذي ولد من الشمس عبر سيل من الأمطار فصار قبل قرون إلهاً ابن الله بل أبو الآلهة عندما يعلن الكاهن في صحن المعبد وسط البخور انه سيأتي في موعده بعد ان كاد يفقد نفسه في العالم الآخر مع بقية الآلهة التي قرر رمسيس ان ينضم اليها في قدس الأقداس حيث كانت تجري الشعائر السرية في الظلام بعيداً عن الشعب فسهر الفنانون على أضواء مصابيح الزيت يعملون بالمطارق والأزاميل وأدوات الصقل والنقش يحفرون بالضربة الحية من أعلى الى أسفل وعيونهم تحاول ان تتبين مسبقاً الشكل الذي يحتويه الصخر فهذا الفن لا يتيح لهم ترف الخطأ والتصحيح وخاطبهم قائلا أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس لتقولوا ان حبكم لي هو الذي يدفعكم للعمل من أجلي فأضفوا على وجهه المتغضن سمات الشباب الدائم وارتعدوا من الرهبة والايمان أمام الابتسامة الخفيفة التي نحتوها بأصابعهم فوق الشفتين الحسيتين ثم غمسوها في دمائهم وكتبوا اسم ستالين على الجدران وهم سائرون الى حتفهم بأمره وتفطرت أكبادهم عندما سمعوا بموته

فتجمعوا من كل حدب وصوب للوداع الأخير وما لبث الرجال الذين أودعهم وراء القضبان بالملايين ان خرجوا للنور بوجوه شاحبة صفراء وشفاه جافة وكانوا يحتشدون من البقاع كافة ليتقربوا الى المعبود وعلى الباب ينتظر الكهنة في مآزرهم الطويلة وصدورهم العارية فهم وحدهم الذين يتمتعون بحق دخول قدس الأقداس حيث استقرت حتحور الفاتنة في تاج من قرص الشمس يحيط به قرنا بقرة وقالت انها المرحلة الاولى هي التي خلقت تلك الشبكة من التجاعيد الغائرة في وجه الروسي القصير أبيض الشعر الذي بنى العديد من السدود وتعرض للعديد من الأخطار وكم ترك من ذاته في كل منعطف كم من المساومات الصغيرة والكبيرة اضطر لها لينقذ جلده أما هو فلم يبغ سوى أن يكون نحاتاً لكن الظروف أجبرته على ان يكون رساما ومهندساً ومعمارياً وشاعراً وقضى نصف حياته العملية بعيداً عن الصخر الذي عشقه وهو ما كان يدفعه لليأس الذي عرفه أول مرة في الصغر عندما حطموا له أنفه وجعله هذا يعشق الجمال والصحة في الآخرين ويقف مبهوتاً أمام الحفريات الناطقة بان اليونان تعلموا أسس النحت من المصريين الذين تركوا وراءهم آلاف التماثيل الضخمة ملقاة في وجه الصحراء اسمى أوزيماندياس ملك الملوك ولم يبق الا ذلك التمثال غطته الرمال حينا من الدهر والآن تهدده المياه التي ستجتاح آثار ما تعرض له المسيحيون الاوائل من التعذيب وتملأ الأحواض الجافة التي تحيط بها سفوح شرسة تلسعها شمس حارقة أدارت رأسي وامتصت كل بلل في حلقي فتشقق لساني من العطش كما تشققت الاراضي بعد ما جفت اذ تراءت ليوسف البقرات السبع العجاف وأكل الناس الجيف والميتات ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس جعلت على هيئتها تلك الروافع الحمراء التي تحركت على قضبان مثبتة فوق أرض تستعد لرفع أبواب الانفاق وظهر اسم جمال عبد الناصر مسجلا فوقها بالطباشير وتحته وقف صعيدي يبيع الماء البارد في قلتين من الفخار وفي قاع الحوض بدأ فك السلالم وتقطيعها بالأوكسجين الى اجزاء رفعها الخطاف الى أعلى حيث جرى لحامها على الفور ولم يتبق الا السلم الحديدي الرفيع الذي بدأ فكه ودوى جرس الرافعة الهوائية التي أرسلت خطافها من جديد ليعود بسلم خشبي حلق فوق رؤوسنا بينما تجمع الصعايدة فوق الشرفة يتفرجون وتزاحم الروس بقبعاتهم الثقيلة معتمدين على السياج الساخن بأيديهم وتوترت أصابع الروسي المنبطح بجواري فوق كاميرته وكنا نبسطها أمامنا ظهراً لبطن حتى يهبط عليها عبدالسلام أفندي بسن المسطرة ثم يستقر خلف منصته العالية رافعاً يده الى فمه يقضم ما تكون على سطحها من قشور جلدية ابيض لونها من اثر الطباشير وهو حجر جيري تكون من رواسب الحيوانات والنباتات الميتة ثم يرفع عصاه يتتبع بها على الخارطة مجرى النهر الذي خاض سلسلة من المعارك منذ ولد في أعالي الجبال حتى جاءنا متعباً منهوكاً وانتهت مقاومته هنا فجرينا بين ضربات العصى الغليظة حتى الساحة التي استوى في

أقصاها جنرال آخر بملابسه العسكرية والشارة الحمراء الناطقة بعلو رتبته وحوله النظارة الذين جاءوا خصيصاً ليشهدوا الحفل من خلف عوينات سوداء فتسمرت عيناي على اصبع مبللة بالدماء في قبضة سمينة شقت الهواء ثم تكومنا على الأرض الحجرية ننزف من دون الجسم العملاق والوجه الذي لم تشوهه آثار الجدري وكان يكره التشويه في الجسم الانساني ولو أتيح له لصنع مثل النحات اجساماً عملاقة تنفجر قوة وصحة وجمالا لكنه رقد على الأرض عارياً كواحد من تماثيله الضخمة أسقطته قوى التدمير داود العملاق برقيته القوية والعروق النافرة في ساعديه ويديه اليسرى التي انفرجت وارتفعت قدمها قليلا عن الأرض متحفزة للفعل ووجهه الذي استدار في حدَّة الى اليسار مقطّب الجبين في عينيه الخوف والتردد والشك فهي اللحظة التي اتخذ فيها قراره بقتل جالوت ومن وهب نفسه للفعل باعها لسيد عنيد لا يرحم يسلبه حريته لكن الفعل هو الطريق الى الحرية وانشد دواد ملكا على مزموره يا بني البشر حتى متى يكون مجدي عارا فقد كان وقت في المساء عندما رأى المرأة المستحمة واضطجع معها وعندما حبلت استقدم من الحرب زوجها الذي أبى ان يستمتع بها بينما رفاقه يواجهون الموت في الصحراء فبعثه بمكتوب الى قائده ان يجعلوه في وجه الحرب الشديدة ويرجعوا من ورائه ليضرب ويموت ولعله لقي حتفه وهو يردد بوجد اسم مليكه ذلك الذي صوره ميكل انجلو في شباب كل منهما عملاقاً للروح والجسد مؤمنا بقدرته على قهر ما شاء أما موسى فقد صوره ناضجاً بقدرة داخلية على تحريك الجبال وقيادة الامم وقد تجلى في عينيه الناريتين الغضب على تمرد شعبه أم هو رعب الادراك المفاجيء بأنه ظللهم في البرية أربعين سنة من الحرمان والعطش والجوع عبر طريق لا يستغرق اليوم أكثر من ثلاثة أسابيع وقال الرؤوساء ان ما تجلى من حكمة السلطان وأمانته وايمانه يجعله في غير حاجة الى مشورتهم وانتهت رحلة النحات قبل ان يبلغ التسعين بأسبوعين شهد خلالها الحروب والثورات وتعرض فيها لنزوات البابوات وأهواء الكرادلة لكنه كان يسير دائماً في جنازاتهم بعد ان ينحت لهم قبورهم وصار الصخر هو الشيء اليقيني في عالم تسوده الفوضى والفن هو أرفع تعبير عن الحرية وأسبل عينيه في سبات الراحة الاخير مثل مسيحه الذي استقر في حجر أمه وقد انحنى فوق يده المستقرة على قلبها وعلى وجهها الحزين تساؤل يائس عن جدوى هذا كله فعلى مرمى البصر جرى النيل عند مخرج قناته الجديدة في هدوء وظهر قارب وحيد ركن الى الشاطيء عند الحنية التي تلتحم فيها القناة بالمجرى القديم وشب المصور الروسي برأسه وتوتر جسده استعداداً للعمل فلم يعد بالقاع غير شخص واحد جعل يصعد بسرعة الفأر درجات حديدية صغيرة تركت في جدار الحوض ثم ظهر خلفه فأر آخر وعلى حافة ضيقة للغاية في مستوى رأسي وقف روسي يلوح بيده يميناً ويساراً وهو يصرخ وينحني بجسده الى الامـــام ثم يعود الى الوراء معرضـــاً نفسه للسقوط في أيـــة لحظـــة،

وارتعشت مفاصلي وتجمدت يداي على الارض ثم أطبقت قبضتيهما على حفنة تراب وتحتي مباشرة كانت مياه الفيضان متحفزة تقرع الباب وعندما ترفع البوابات الحديدية ستندفع الى الأمام ولا بد قبل ذلك من ادخال المياه الى الأحواض بالعكس حتى تصبح في مستوى منسوبها ثم يفتح لها الباب حتى لا يحدث اندفاعها ضغطاً يحطم الجدران كما حدث مرة من قبل وجرت الرافعة الحمراء التي اتخذت شكل الجواد على قضبانها فهي التي سترفع البوابات الخارجية الهائلة لتدخل المياه بالعكس وتسمرت عيناي على البوابة التي كانت في مجال رؤيتي وتوهجت أمامي حمرة طلائها البالي وسط جدران وقيعان شديدة الجفاف تكاد تشتعل من حرارة الشمس وران صمت مطبق على المكان وتعلقت العيون بذلك الخط الرفيع الذي ظهر أسفل البوابة عند التقائها بالقاع وفجأة انثال منه قليل من الماء وصفقت الأيدي واهتزت أعطافي لرؤية المياه وربما كان العطش هو السبب وتسمر الفأر على السلم يتطلع الى المياه مبهوتاً وقد سحره منظرها وواصلت البوابة ارتفاعها واتسع الخط الرفيع أسفلها ثم اندفعت المياه في دوي عاصف وسرعان ما غطت قاع الحوض وهي تقفز الى أعلى ثم تهبط ثانية في انطلاق تحول الى شيء كالبغتة عندما اصطدمت ببوابات النفق الداخلية التي تنتظر خلفها مياه الفيضان متحفزة وحاولت ان ترتد من حيث جاءت لكن البوابة كانت تواصل الارتفاع ومزيد من المياه يتدفق منها صاخباً مرعدا حتى أدركت أنها محاصرة فتحولت في غضب حائر عاجز تهاجم الجدران المحيطة بها وامتد منها لسان خاطف صوب الفأر المسمر على السلم وتوهجت في عيني ألوان الطيف وقد تجمعت على حافة الحوض وامتزجت خضرة حديقة المعمل على الضفة الغربية بصفرة الرمال والسيارات والأكشاك وسواد أعمدة التخريم والآلات وزرقة صخور الجرانيت ورمادية الشاحنات والقلابات وحمرة الرافعة الضخمة والفناطيس الثلاثة المنتصبة وبرتقالية قلابات البادفورد وبياض مبنى المباحث بينما تندفع في شدة ويتطاير رذاذها في الهواء منعقداً فوق الرؤوس التي شرعت تجري مهللة في كل اتجاه.

القسم الثاني

(٤)

أشار لي عباس أن أجلس وهو يقول بصوته المتكاسل:

ـ لقد بعثت اليك لأني لم أرك منذ سافر سعيد.

قلت: كنت أبحث عن صندل يحملني الى أبي سنبل.

قال: وماذا فعلت؟

قلت: وجدت واحدا سيسافر بعد أيام.

قال: اذن لن تبقى هنا طويلا؟

قلت: أبداً. في اللحظة التي سيقوم فيها الصندل سأكون فوقه.

سأل: ومتى تعود؟

أجبت: لا أعرف. لكني سأعود الى أسوان ومنها الى القاهرة مباشرة ولن تراني هنا.

استرخى في مقعده ومر بيده السمينة على فارق شعره: ألم يوحشك سعيد؟ ليته ما سافر فموجة الوباء قد انحسرت فيما يبدو.

ـ طبعا وحشني. عندما كان هنا كنت أشعر بالاطمئنان. أما الآن فأنا أشعر أني متطفل وأنتظر أن أطالب في أية لحظة بمغادرة الاستراحة.

قال: انها غلطتك. لماذا لم تفعل مثل سعيد؟

قلت: ماذا تعني؟

قال: ألم يقل لك انه ذهب الى المباحث وسوى أموره معها؟

قلت: أية أمور؟ انه لم يفعل أي شيء يعرضه للمأخذ. لقد كان يقوم بعمله فقط.

قال: هذا مفهوم. لكن المباحث تحب دائماً ان تكون هناك خيوط متفاوتة الطول تربط بينها وبين مختلف انواع الناس.

انهمك في تقليب بعض الاوراق أمامه وساد بيننا الصمت. قال بعد لحظة:

ـ سأقول لك خبرا خاصا ليس للنشر. اليوم سقط لوح من الأسمنت على عامل روسي فصرعه. وربما كان أحد عمالنا هو المسؤول عن هذا الحادث.

ـ كيف؟

ـ لا أعرف التفاصيل. فهذا هو كل ما سمعته بالتليفون هذا الصباح.

تطلعت الى الجهاز الذي استقر على يمينه. سألته اذا كان متصلا بالهيئة مباشرة فأجاب بالايجاب.

قمت قائلا: الأفضل ان أذهب الى الهيئة بنفسي فربما كان هناك ما يصلح للنشر.

خرجت الى الطريق ومشيت الى مكتب البريد. أعطيت أحد الموظفين رقم المكتب الذي تعمل به تانيا فطلبه وناولني سماعة يتدلى منها سلك مهترىء.

جاءتني أصوات متشابكة تتحدث الروسية. طلبت من احدهم ان يصلني بتانيا فاستفسر عما أريده بلهجة عدائية. أوضحت له أني صحفي وان الأمر يتعلق بموعد مع أبراسيموف.

سمعت صوت تانيا أخيراً وعندما عرفتني اضطرب صوتها. سألتها عما حدث فقالت:

ـ لا شيء. انت تريد موعدا مع مستر أبراسيموف؟

قلت: أنا أريدك أنت. لقد انتظرتك أمس أمام المنزل ولكنك لم تأت... أين كنت؟

قالت في صوت ذي صبغة باردة رسمية: فيما بعد. مستر أبراسيموف مشغول اليوم.

قلت: سآتي الى منزلك بالليل.

سألت: بمفردك؟
أجبت: أجل.

قالت: متأسفة. أنا متعبة. سأراك فيما بعد.
قلت: غدا الجمعة. نلتقي في المساء.

قالت: لا أظن. سأقضي اليوم كله في حمام السباحة وسأكون متعبة.

سمعت صوت اغلاق الخط وظللت برهة أنصت الى طنينه الفارغ ثم أعدت سماعتي بدوري وعدت الى الاستراحة.

أشعلت سيجارة وتمددت على الفراش. ثم غادرت الفراش ومضيت الى الخارج. وقفت أمام الاستراحة في الشمس. لكن الحرارة أجبرتني على العودة الى الداخل.

استجمعت طاقتي بعد قليل ووضعت قبعتي على رأسي وخرجت. انحدرت الى الطريق الرئيسي ووقفت في الشمس حائراً. وأخيراً قررت النزول الى أسوان.

اتجهت الى حيث يقف جندي البوليس الحربي عادة. وجدت هناك جنديا رقيقاً شاحب البشرة. عرفته بنفسي فطلب مني أن أقف بعيداً عنه حتى لا يتجمع الناس من حولنا.

ابتعدت عنه بضع خطوات ووقفت أنتظر بجوار عدد من العمال والصعايدة. أقبلت علينا سيارة بوكس من طراز فورد تابعة للشركة فتنحى الجندي عن طريقها. وعندما حاذتنا أشار اليها اشارة واهنة باصبعه فواصلت السير دون ان تتوقف. وجاء في أعقابها أتوبيس اخضر اللون من سيارات الأقاليم لم يكن به موضع لقدم. ثم ظهرت سيارة رمادية تابعة للهيئة توقفت بعد ان تجاوزتنا بخطوات. أشار الجندي لي ولمن يقفون حولي اشارته الواهنة أن نركب فجرينا خلف السيارة. لكنها استأنفت سيرها قبل أن نتمكن من اللحاق بها.

خطوت عائداً في بطء الى موقفي السابق وأنا أتذكر الجندي الآخر الممتلىء رجولة الذي كان يحرك اصبعه في الهواء حركة مسرحية قوية فيخشع أجدع سائق وتقف أية سيارة على مسافة ربع كيلو من اصبعه. تكررت مهزلة الاصبع الواهن مرة اخرى حتى يئست من الركوب فعدت الى الاستراحة.

أدرت جهاز التكييف وأظلمت الغرفة ثم بحثت عن فقير ليجلب لي شيئاً مثلجاً. ووجدته خلف المبنى منهمكاً في تقشير كوم من البطاطس.

قال عندما رآني ان أحد موظفي الشركة كان هنا منذ قليل وسأل عن موعد مغادرتي الاستراحة.

سألته في اعياء عما اذا كان يعرف هذا الموظف من قبل.

قال: اول مرة أشوفه. قال انه يشتغل في الشركة وفي الأول سألني عن مواعيد خروجك واللي بيزوروك.

عدت الى الغرفة واستلقيت على الفراش أدخن. وجاء فقير بعد لحظة فأخذ الترموس وملأه بالليمون المثلج.

ذهبت الى «كيا» في المساء بعد ان حلقت ذقني بعناية. ووجدت شقة تانيا مظلمة. ولم يستجب لي احد عندما دققت الجرس. فانتقلت الى الشارع المجاور وصعدت الى مسكن فاليري.

كان الضوء يبدو من أسفل الباب. ضربت الجرس عدة مرات ثم ألصقت اذني بثقب المفتاح. لكني لم أسمع حركة بالداخل. وتذكرت انه يترك النور مضاء عندما يغادر المسكن.

مشيت في الشارع الفرعي الذي يفصل بين مجموعتين من العمارات المتوازية. مررت بفريق من الأطفال الروس يلعبون وقد عروا النصف العلوي من أجسادهم. وأتاني من أحد الشوارع الجانبية صوت بائع لبن صعيدي ينادي بالروسية: مالاكو.

لمحت مجموعة من الشبان الروس بينهم فتاتان طويلتان بجوار أحد الأكشاك التي تبيع السجائر والبيرة. اقتربت منهم لكنني لم أتعرف على تانيا أو فاليري. واتجهت الى النادي وأنا أتلفت حولي بين الحين والآخر أملاً في أن ألمح أحدهما.

كان النادي هادئاً على غير العادة. كانت هناك بضع عائلات روسية جلست في الحديقة بصمت. وفي الداخل كان الرجال الذين تناثروا حول الموائد يتطلعون أمامهم بوجوم. تذكرت حادث الصباح فتراجعت في هدوء.

مضيت في الطريق الرئيسي حتى السينما. كانت تعرض فيلما مصرياً يدعى «أيامنا الحلوة». وقفت على الناحية الأخرى من الطريق أتأمل مدخلها الخالي ثم استدرت عائداً الى النادي.

ابتعت زجاجة بيرة من الداخل ووقفت حائراً أبحث عن مائدة خالية. ثم حملت زجاجتي الى واحدة جلس اليها ثلاثة شبان أحدهم مصري وأمامهم عدة زجاجات

فارغة. هززت رأسي للمصري محييا فرحب بي ودعاني للجلوس الى جواره. وتعارفنا فعلمت أنه يدعي أنور وأنه من خريجي مركز تدريب المطرية ويعمل كهربائياً في محطة التشغيل. ثم عرفني بالروسيين الذين يعملان معه. اتضح أن أحدهما أوكرائيني وليس روسيا. كان ضخم الجسم يكشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر يحمل وشماً أخضر. أما الثاني فكان من سيبيريا.

أحنى لي الأوكراييني رأسه الضخم واضعاً يده على صدره وقال:

- منيه أوتشين برياتنا.

قال أنور: يقول لك أنه مسرور بالتعرف اليك.

لم يبد على السيبيري أنه يشعر بوجودنا أو يعبأ به. وقال لي أنور ان الروس جميعاً حزانى بسبب زميلهم. وأن السيبيري خفيف الدم عادة ويجيد كلمات كثيرة بالعربية ويقدم نفسه للمصريين على أنه صعيدي متزوج من ثلاثة ملقبا نفسه بمحمود رمضان.

كان السيبيري فعلا ببشرته التي لفحتها الشمس وعوده النحيل أقرب الى شاب من الصعيد. كان وجهه يحمل تعبيراً ساخراً ثابتاً. وبدا على النقيض من الأوكراييني الضخم الذي ربض الى المائدة يتطلع أمامه في هدوء شديد ودعة.

سألت أنور عما اذا كان يعرف الروسية فقال أنه قضي عشرة شهور تدريب في مدينة ستالينجراد التي تسمى الآن فولجا جراد.

قال السيبيري فجأة شيئاً بالروسية وهو يرفع كوبه الى شفتيه. وأوضح لي أنور أنه يقترح أن نشرب نخب لقائنا.

أفرغنا أكوابنا ثم ملأناها ثانية. وأعدنا الكرة بعد لحظات. وقام الأوكرائيني فأحضر أربع زجاجات جديدة. واتصل بيننا حبل الحديث وأنور يقوم بمهمة الترجمة. حدثنا الأوكراييني عن زوجته التي ستأتي بعد أسبوعين. وقال أنه سافر خصيصا منذ شهرين ليتزوجها. وسخر منه السيبيري متعجبا من هذا الذي يقطع كل هذه المسافة من أجل أمرأة بينما النساء حوله في كل مكان.

روى السيبيري كيف قرر أن ينسب لنفسه ثلاث زوجات: كلما تعرفت بأحد العمال المصريين ذكر لي أنه متزوج بأثنتين أو ثلاثة. وأدركت أنهم يتفاخرون بتعدد زوجاتهم ويتباهون علينا بعددهن.

فرغت الزجاجات فقمت وابتعت أربعاً أخرى. وشربنا نخب الروس والأوكرايينيين والصعايدة والبحاروة والنوبيين والأوزبيكيين. وروى لنا السيبيري نكته المغامرة النسائية التي قام بها خروشوف وعبد الناصر عندما كان الثاني في موسكو وكيف أجمعا على رأي واحد بشأنها.

بدا وجه الأوكرائيني شديد الاحتقان كأنما تجمع به كل ما في جسمه من دماء. وقلت لأنور انه ثمل تماماً. فقال ان الروس في بلادهم يسكرون بشدة لكنهم يعملون على الأقل أضعاف ما نعمل. وأهم ميزة لديهم هي الصبر. أما نحن فكسالى لا صبر لدينا نريد أن نحصل على كل شيء دون مجهود وبالفكاكة.

أمنت على حديثه فقال: العامل منا كان يرفض رفع الكابل من الأرض على أنه من عمل العتالين. في حين أن الروسي مهما كان مركزه لا يترفع عن شيء مطلقاً.

أحنينا رأسينا فوق الشراب وقد ران علينا حزن جارف. سألته عن الفتيات الروسيات فقال في لوعة انهن يتعاملن مع الرجال في بساطة ولا يعقدن الأمور مثل فتياتنا.

شعرت برأسي يدور. وأحضر أحدنا عدة زجاجات جديدة. وبدأت أحكي لأنور عن تانيا سائلا اياه الرأي. فقال في حكمة مستوحياً تجاربه في مدينة الفولجا:

- الفتاة الروسية تحب سماع كلمة الزواج.

قررت أن أذهب الى تانيا وأعرض عليها الزواج. وعندما حاولت الوقوف لم أتمكن وانهرت في مقعدي.

واصلنا الشراب. وأحسست أن أنور يقول لي أشياء هامة لكنني كنت عاجزاً عن ستيعابها. وتنبهت الى أنور يكاد يحملني على ذراعه. كنا نقف أمام سيارة جيب في عرض الطريق. وتعاون أحد الجالسين في صندوقها الخلفي مع أنور على حملي الى داخلها.

اعتمدت برأسي على كتف الجالس بجواري ورحت في النوم. وأفقت على هزات فيقي. فتحاملت على نفسي وغادرت السيارة. وقادتني قدماي الى الاستراحة.

استيقظت قرب الظهر غارقاً في عرقي. اكتشفت أني لم أدر التكييف قبل لنوم. وشعرت على الفور بصداع حاد.

جلست على حافة الفراش واضعاً رأسي بين يدي. وأحضر لي فقير ترموس قهوة شربت عدة أكواب وابتلعت قرصين من النوفالجين. ثم ارتديت ملابسي ووضعت

رداء استحمام ومنشفة في سلة من القماش. وضغطت قبعتي على رأسي ثم انطلقت الى الخارج.

وجدت سيارة ذاهبة الى «السيل» فقفزت اليها. وغادرتها أمام النادي الروسي في «كيما». ومضيت على قدمي الى حمام السباحة فولجته بعد أن ابتعت تذكرة.

خلعت ملابسي وارتديت المايوه. ووقفت أتأمل الموجودين الذين انتشروا حول الحوض فوق السور الحجري وتحت المظلات. كانت الرؤية صعبة بسبب أشعة الشمس فجعلت أبحث عن مظلة. وشعرت بالانظار تتجه إليَّ وتتابعني.

وجدت مائدة خالية كانت مظلتها مغلقة. جلست اليها دون ان أبسط المظلة. وشعرت بأن الانظار ما زالت مسلطة علي..

أشعلت سيجارة كان لها طعم الأشياء المحروقة. وأخذت أتأمل المستحمين. كان أغلبهم من الروس. تأكدت بعد قليل أن تانيا غير موجودة. أما فاليري فربما كان في الماء أو ممدداً بعيداً فوق السور. فقد كان هناك كثيرون في مثل قامته وحجمه.

وزعت اهتمامي بين مدخل الحمام والتعليقات الصادرة من مجموعة من الشبان المصريين تجلس خلفي. كانوا جلهم في ملابس الطريق الكاملة. وكانوا يتابعون فتاة روسية متناسقة الجسم ارتدت لباس استحمام أرجواني اللون. كانت دائبة الحركة بين الماء ومجموعات الشبان الروس التي تناثرت أسفل وفوق السور. وسمعت أحدهم يقسم أنه رأى شعز ما بين فخذيها.

ظهرت تانيا بعد ساعة. ورأيتها تتجه الى الكبائن بصحبة فتاة سمينة. ثم عادت في لباس أخضر اللون من قطعة واحدة وقفزت الى الماء.

نهضت واقفاً وسرت الى الناحية الأخرى من الحوض حيث المياه غير عميقة فنزلت الى الماء وجعلت أسبح قليلا. ورأيتها تغادر الحوض وتجلس على السور في الناحية المقابلة لمظلتي ولم يبد عليها أنها لحظت وجودي.

صعدت من الماء ووقفت أمام مائدتي أجفف صدري وساقي. ولمحت صديقتها تنضم اليها فوق السور. ثم قامت فجأة وقفزت الى الحوض.

ألقيت بالمنشفة فوق المائدة. ودرت حول حافة الحوض متجهاً الى حيث تجلس تانيا. وشعرت بأنظار الشبان المصريين تتبعني.

رأيتها ترفع رأسها في مواجهة الشمس وتغلق عينيها. وعندما اقتربت منها بدا

لي وجهها شديد الشحوب وقد ظهرت الغضون حول شفتيها.

جذبت مقعداً من أسفل مظلة مجاورة وجلست أمامها. وفتحت هي عينيها فظهرت عليها البغتة عندما رأتني. وأسرعت تضع نظارة شمسية وهي تتطلع حولها في اضطراب. وفي هذه اللحظة اقتربت منا صديقتها والماء يتساقط من جسدها. ووقفت الى جوارها تتأملني من خلف عوينات سوداء ذات اطار أحمر قبيح.

قدمتني تانيا الى صديقتها في لهجة من تقول: هذا هو الذي حدثتك عنه. وتمددت الصديقة على السور الى جوارها. فكرت أنها في الأغلب لا تعرف الانجليزية وبوسعي أن أتكلم مع تانيا بحرية. فقلت لها أني ذهبت الى منزلها مرة أخرى بالامس.

قالت: ما كان يجب أن تفعل.

قلت: لماذا؟

لم تجب.

تطلعت الى لباس استحمامها الذي ظهر عليه القدم وبدا مهدلا على جسدها. سألتها: أين كنت؟

أجابت: ذهبت مع فاليا الى أسوان وقضينا الليلة في كازينو على النيل.

سألت: من يكون فاليا؟

قالت: ألا تعرف؟ أنه اسم الدلع لفاليري. وأمالت رأسها على كتفها وتطلعت إليَّ باسمة. شعرت برغبة جارفة في أن أقبل شفتيها المنفرجتين.

تلفتُّ حولي فرأيت الأنظار متجهة الينا. كانت المجموعة المصرية قد كفَّت عن متابعة ذات المايوه الأحمر وركزت انتباهها على ابن بلدها الذي جرؤ على العبور الى الناحية الأخرى من الحوض.

قلت: هذا مكان غير مناسب للحديث. هل أراك الليلة؟

تلاشت ابتسامتها وقالت في وجوم: في وجود فاليري.

قلت منفعلا: ما هي حكاية فاليري هذا؟

قالت: انه أعز أصدقائي.

قلت: لكني لا أريد أن أراه.

قالت في حماسة: أنه شخص ممتاز وقد ساعدني في بداية مجيئي.

قلت: انه شديد الثقة بنفسه ولست أحب هذا النوع.

قالت: بالعكس هو ضعيف جداً وهو يتظاهر بهذه الثقة ليحمي نفسه.

انحنيت عليها ولمست ركبتها بأصبعي: تانيا أرجوك. لم أت لأناقش شخصية فاليري. قولي لي. ما الذي حدث. أنت لست كما كنت في آخر مرة... فماذا حدث؟

قالت: لم يحدث شيء.

قلت: اذن لماذا...

قالت: لا فائدة من أن نلتقي مرة أخرى. فأنت ستعود الى القاهرة وأنا سأرحل بعد عدة أشهر. والرسائل لا معنى لها وتصبح بعد قليل زائفة.

قلت: ربما كنت مخطئة. اسمعي. دعينا نلتقي هذا المساء ونتكلم في الأمر.

قالت: كلا. لا أريد. لقد ضقت ذرعاً بكل العلاقات.

تكلمت صديقتها لأول مرة وقالت بالانجليزية لتانيا: ماذا قلت؟

كررت تانيا الجملة. وتحولت الى الأخرى قائلة: لقد ضاقت بك. ثم أضافت: أنها مزحة فلا تغضب. واعتدلت جالسة ثم قامت واتجهت الى الحوض.

قامت تانيا بدورها وسارت الى مائدة مجاورة فأخذت من عليها علبة سجائر وكتاباً. وعندما عادت تبينت في الكتاب طبعة شعبية بالانجليزية من رواية «وزارة الرعب» لجراهام جرين.

قالت وهي تقلب صفحات الرواية: سأمتنع عن التدخين من غد وأركز على تحسين انجليزيتي.

نادت عليها رفيقتها من الحوض. فوضعت علبة السجائر والكتاب جانباً ومضت الى حافة الحوض ثم قفزت الى الماء وخرجت بعد قليل فوقفت تجفف نفسها أمام مائدة جلس تحتها رجلان روسيان.

لمحت أنور فجأة يقترب مني. وجذب مقعداً وهو يحييني ويسألني عما فعلته بالأمس.

قلت: وصلت الاستراحة بمعجزة.

قال وهو يبتسم مشيراً الى الحوض: وكيف الحال؟

قلت: لا بأس. اسمع عندما تجيء أرجو أن تتركنا.

قام أنور على الفور وسار مبتعداً. بعد لحظة أقبلت تانيا على مهل برفقة صديقتها. وتهالكتا على السور. وقالت الصديقة كم أنا عطشى.

قلت أني سأحضر لهما شيئاً يشرب. ذهبت الى البوفيه فابتعت ثلاث زجاجات

دافئة من المياه الغازية. ولمحتها تغادران السور وتجلسان الى مائدة بصحبة روسي فابتعت زجاجة رابعة. وقفلت عائداً بالزجاجات وأنا عاجز عن الرؤية في الشمس. وضعت الزجاجات على المائدة ثم قدمت واحدة الى كل من تانيا وصديقتها. ووضعت أخرى أمام الرجل فلم يعبأ بي. وواصل حديثا كان يدور بينهما. وسمعت اسم أنور يتردد وكلمتي: «أرابيسكي» و «باروسكي».

حملت زجاجتي وجلست أمامهم على حافة السور. ولحظت أن أنظار الموجودين حولنا من روس ومصريين مسلطة علينا.

نهضت تانيا بعد أن انتهت من زجاجتها فتمددت على السور بالقرب مني. وقفزت صديقتها الى الماء بينما ظل الرجل في مكانه دون أن يلمس زجاجته. كان يضع نظارة شمسية ذات عدستين عاكستين كالمرايا تجعل من المستحيل رؤية عينيه. لكن وجهه المتجهم كان ناحيتي.

برز رأس الصديقة من الماء بجوار حافة الحوض. ونادت على تانيا وقالت لها شيئا بالروسية في لهجة حادة. اعتدلت هذه جالسة ثم قالت لي:

ـ سأنزل الماء.

قلت: ألن أراك مرة أخرى.

قالت بلهجة قاطعة: كلا.

وقفت قائلا: حسنا. سأذهب. وأشرت بيدي مودعاً لصديقتها. فقالت هذه: أتمنى لك حظاً سعيداً.

حملت زجاجتي الفارغة الى المائدة فوضعتها بجوار زجاجة الروسي التي لم تمس. ومددت يدي اليه مودعاً فتجاهلني.

شعرت بالدماء تندفع الى وجهي. لم أدر ماذا أفعل. فاغتصبت ضحكة وأمسكت بساعده الأيمن وأجبرته على أن يبسط كفه وتصافحنا.

مضيت الى المدخل فارتديت ملابسي. ولحق بي أنور متسائلا عما حدث ولماذا انصرفت هكذا سريعاً. فقلت أن لدي موعداً.

غادرت الحمام ودرت حول سوره الخارجي في اتجاه الطريق العام. مررت بمحطة الخط الحديدي فتحولت اليها وصعدت الدرجات المؤدية الى رصيفها. اكتشفت أن حافة السور التي كنا نجلس فوقها أصبحت في مجال رؤيتي. فوقفت أتطلع اليها منتظراً القطار. ورأيت تانيا من بعيد ممددة فوقه. ثم قامت وجلست على مقعد من القماش.

وبعد قليل عادت تستلقي على السور. ووقفت أتطلع اليها حتى جاء القطار.

قبة الجامعة تربض في الظلام بغير أثر لضجة الصباح، وأمامها يقبع نصب الشهداء، ويمتد الشارع العريض الخالي من الكائنات تحف به الأشجار وأعمدة النور الشاهقة الارتفاع التي أغرقت المنطقة في ضوء أقوى من القمر، وعلى اليمين تهتز أشجار حديقة الحيوانات في غموض، وعبر الترام تصل الشوارع الجانبية المظلمة الى شاطيء النيل، وهنا يلسع البرد الأنوف ويدفع بالأيدي الى الجيوب، ومع ذلك يمكن المشي ساعات، وفي مناطق الضوء يمكن أن تلتقي العيون، وفي مناطق الظلام يمكن أن تتلامس الأكتاف، الطائر الصغير ما زال يحبو على الارض، وليس من سبيل غير الانزواء في ركن الاتوبيس الأنيق الذي خلا من الركاب، والاستسلام لصفعات الهواء البارد التي أثارها انطلاق السيارة الخفيفة مسرعة الى حيث ينتظر العجوز في لفاعته الصوفية وقد استقر فوق فراشه ملتجئاً الى كتب الأولين، وخطوتان فوق بساط ممزق تؤديان الى الفراش الحديدي الصغير الذي تفككت أسلاك مرتبته المعدنية، فأسفل أغطيته يمكن البكاء بلا توقف،

انطلقت في الطريق المعتاد الذي يمر بمحطة الكهرباء وعندما بلغت جسم السد تحولت الى اليسار. ومضيت فوق قطع ضخمة من الصخور الرمادية التي ظهرت بها عروق حمراء وبيضاء. وتذكرت أن هذه المنطقة كانت تغطيها الرمال منذ أيام.

كان بوسعي أن أتبين مبنى الهيئة ناحية اليمين على الشاطيء المقابل. وبدا أشبه بعلبة صغيرة من الكرتون. وفي امتداده يساراً كان هناك معبد «كلابشة» الذي يتجلى هو الآخر للرائي من أية نقطة في الموقع.

انتهت الصخور فجأة ووجدتني أخوض في رمال اختلطت بقطع الزلط الصغيرة. وما لبث الزلط ان أختفى وأصبحت اسير في مستوى واسع من الرمال الخالصة.

ارهقتني أشعة الشمس الملتهبة. فاحتميت بظل عربة «ماز» كانت تفرغ حمولتها من الطمي. ووقفت أجفف عرقي وأرقب بلدوزرا يتقدم من شحنة الطمي رافعاً درعه الامامي قليلا عن سطح الارض. توقف البلدوزر أمام كوم الطمي. وهبط درعه حتى لامس الارض. ثم تحرك البلدوزر من جديد فاكتسح درعه الطمي دافعاً اياه الى الامام. وظهر فجأة عدد من الصعايدة يحملون خراطيم المياه. ومضوا خلف البلدوزر يرشون الطمي المهد بالماء.

انتهت مهمة «الماز» فابتعدت عنها. وانطلقت السيارة تترنح في شبه طريق حتى اختفت عن مجال رؤيتي. لكن صوت محركها ظل يأتيني تتغير نغمته كلما تغيرت السرعة. وميزت كلا من عنفوان الحركة الاولى وحشرجة الحركة الرابعة التي يسمونها بالعجوز.

كان البلدوزر ما زال مستمراً في تمهيد الرمال. وكانت الضجة الصادرة عنه وحيدة النغمة لا تتغير ارتفاعاً أو انخفاضاً. ولا تتوقف الا عندما يرفع السائق يده عن مقبض ويضعها على مقبض آخر فيرتفع الدرع الامامي عن سطح الارض. ثم يتغير اتجاه البلدوزر ويهبط الدرع من جديد فتعود الضجة.

شهدت بلدوزرا يجر ضاغطا اسطوانيا كبيرا جعل يدكّ الطمي. تبعه آخر يجر صندوق الصخور الغريب. وظهرت في أعقابها فرقة الهراسات.

واصلت السير بجوار ماسورة رفيعة بيضاء اللون مؤلفة من عديد من الالتواءات والانحناءات. وانبثق تحت قدمي فجأة جانب من ماسورة تجريف فتتبعتها. لكنها ما لبثت أن أختفت أسفل طبقات الطمي.

انحدرت بي الارض الى مستوى من الرمال. وبرزت للعيان نهاية ماسورة التجريف السوداء. كانت الرمال تنساب منها مختلطة بالماء. وكان ثمة مضخة كبيرة تسحب المياه الى ماسورة تمتد في اتجاه مجرى النهر.

عبرت كوما من المواسير الصغيرة المفكوكة. ومررت من أمام كشك خشبي أصفر اللون بدت داخله منطقة رائعة من الظل. وعلى مقربة وقفت حفارة تدلت كباشتها الفارغة. كانت الحروف الاولى من اسم الاتحاد السوفياتي واضحة على جدارها وتحتها كتب أحدهم بطلاء أسود «عاش جمال عبد الناصر».

عدت أدراجي بضع خطوات الى الكشك ووقفت في مدخله حتى تعودت عيناي الظل. كانت هناك مائدة خشبية فوقها بضع ملفات انكب عليها شاب مصري.

رفع رأسه الي متسائلا فقلت وأنا أخطو الى الداخل:
ـ دخت من الشمس. هل يمكن أن أستريح عندك قليلا؟
أشار الى مقعد أمامه قائلا: تفضل.
جلست واضعاً قبعتي على ساقي. وأحسست به يتأمل ملابسي. وعندما تطلعت اليه حوّل بصره الى الورق المنتشر أمامه.

كان يرتدي قميصاً هفهافاً ويتصاعد منه عطر فاخر. وأحاطت بمعصمه ساعة

ذهبية. ووشى وجهه الوسيم بنوع الطبقة التي انحدر منها.

تشاغل بتقليب أوراقه ثم رفع وجهه وسألني: صحفي؟
أومأت برأسي. عاد الى أوراقه ثم تركها واستند بمرفقيه الى المائدة.

- أخذت أحاديث كثيرة؟
أجبت: يعني.
قال: وأكدوا لك جميعاً أنهم سعداء بوجودهم هنا في هذا الجحيم؟
قلت: لم يقل أحد أنه يود الرحيل.
قال: وماذا يحدث لو قال لك أحد أنه موجود برغمه. هل تستطيع أن تنشر كلامه؟
قلت: لم يحدث هذا بعد.
قال: واذا حدث؟
قلت: لا أعرف. لا أظن أن أحداً سيقول ذلك.
مال على المائدة ورفع يده الى صدره فدق عليه: أنا أقول لك.
تطلعت اليه صامتا.
قال: لست أريد البقاء هنا لحظة واحدة.
قلت: وماذا يقيدك بالبقاء؟

بسط ذراعيه حوله في حركة مسرحية: أمر تكليف يا بيه. لو تحركت من هنا دخلت السجن.
قلت: لكن التكليف على ما أظن لمدة معينة.
قال: أربع سنوات.
قلت: ستمر بسرعة. ثم أنك ستستفيد كثيراً.
قال: وسأخسر كثيراً. عندما جاءني أمر التكليف كنت قد بدأت اقف على رجلي. كان عندي مكتب هندسة وكنت اكسب. وفي خلال هذه السنوات الاربع كنت سأعوض شيئاً مما أخذته الحكومة.

تطلعت اليه عاجزاً عن الفهم. فابتسم قائلا: لم أعرفك بنفسي. وذكر اسماً يوحي بأنه لاحدى العائلات الاقطاعية القديمة.
قال: هل تنشر كلامي؟
قلت: لا أظن.
قال: ألم أقل لك.

نهضت واقفاً وأنا أقول: سأتركك الآن. وربما التقينا فيما بعد.

كان لا يزال يبتسم في شيء من السخرية وهو يرد: كما تحب.

غادرت الكشك ومررت بالحفارة التي تحمل اسم جمال عبد الناصر. وواصلت السير بين قطع الصخور الضخمة المتعددة الاشكال والالوان. أدركت أني خلفت جسم السد الرئيسي ورائي وبدأت أهبط جزءه الامامي.

أشرفت بعد قليل على شبه خليج يفصل بين السد على يميني والانفاق على يساري. كان هناك كوم من الاخشاب طافيا فوق سطح الماء. وبدا المكان غارقاً في هدوء شامل. وتعلق بضعة عمال بواجهة مبنى الانفاق فوق السلالم والسقالات وانهمكوا في أعمال اللحام. وفي أعلى استقرت الروافع التي طليت هياكلها باللون الاحمر الفاقع واتخذت قممها شكل الاهرامات.

سرت على حافة الخليج في مساحة من الصخور الدقيقة الحجم تتخللها الرمال. ومضى بعض الوقت قبل أن أبلغ المجرى الرئيسي للنهر.

وقفت أتأمل مياهه تنساب في هدوء وتراخ. كانت المياه عالية بعض الشيء عن المعتاد وقد اتخذت لوناً بنياً داكناً من أثر الغرين الذي جاء به الفيضان. وركن الى الشاطيء قارب صغير بمجذافين. وغير بعيد جلس رجل القرفصاء يقضي حاجته.

بدأت الرمال تحت قدمي تترك مكانها لصلصال جاف حفر فيه الجفاف خطوطاً في أشكال هندسية متكررة. انحنيت وتناولت قطعة من أهم مادة يتكوَّن منها السد وضغطتها بين أصابعي فتفتتت وتحولت الى تراب.

تحولت أرقى جسم السد من جديد جاعلا المعبد وجهتي. وتجاوزت مساحة واسعة من المياه الناعمة تلتها صخور ضخمة يكاد حجم الواحدة منها يبلغ حجم غرفة واسعة في منزل قديم. بلغت شبه هضبة استقر في أعلاها كوخ خشبي مفتوح الجوانب ذو سقف من الخيش تدلت بداخله قطع من اللحم المذبوح مغطاة بقماش. وجعل الجزار يصب عليها الماء من جردل معدني.

شعرت بقدمي شبه متصلبتين وألفيت ساعتي قد التصقت بجلد معصمي. تطلعت الى المياه التي كان الجزار يصبها بوفرة على اللحم ثم حولت بصري الى الأريكة الخشبية التي احتلها زبائنه. عندئذ لمحت مخلفات السيارات المتناثرة التي تحولت الى مقاه لشرب الشاي.

تقدمت من أقرب سيارة وأحنيت قامتي لأمر من تحت حاجز لعله كان فيما مضى

يحمل القماش الذي يغطي مؤخرتها. وتهالكت على قطعة من الحجر الى جوار عدد من الصعايدة في جلابيبهم المغبرة.

كان براد الشاي الكبير مستقراً فوق موقد كيروسين أمام البائع الذي لف رأسه بعمامة بيضاء ضخمة وجلس القرفصاء مسنداً ذراعيه الى ركبتيه وعيناه لا تفارقان فتحة البراد. وبدأ البخار يندفع في قوة منها لكن البائع لم يحرك ساكناً. وبعد قليل رفع البراد وصب منه سائلا أسود في كوبات صغيرة الحجم.

تناولت كوبي وانتظرت لحظات ثم أخذت منه رشفة. وتكشف السائل الاسود عن شاي حريف الطعم. انتهيت من كوبي بسرعة شاعراً بعطشي قد تضاعف. فطلبت من البائع كوباً آخر. وكان منهمكا في تسجيل حساب الزبائن في كراسته.

أعاد البائع البراد الى مكانه فوق الموقد. واشعلت سيجارة وأنا أصغي لحديث يدور بين الصعايدة حول «الطريشة».

كان أحدهم يقسم أنه رآها تقفز على رجل يمتطي جملا فتلدغه ويسقط جثة هامدة في الحال. وقال ان طولها لا يزيد عن نصف ذراع وأنها عمياء تسعى على الرائحة. وجادله الثاني قائلا انه رأى واحدة ميتة وتبين أن رأسها يعلوه قرنان صغيران وأسفل كل قرن عين صغيرة للغاية بلا جفون. وأكد أنها مبصرة. وتساءل ثالث عن الفرق بينها وبين الثعابين فقال الثاني الذي صار المرجع الاساسي في الامر أن لون جلدها أصفر مزركش بنقط بنية فاتحة.

تناولت من البائع كوب الشاي الثاني وارتشفته وأنا أتذكر ما سمعته من أن العلاج الوحيد المعروف للدغة «الطريشة» هو بتر العضو المصاب في الحال قبل أن يتسرب السم الى باقي الجسم.

انتهيت من الكوب فأعدته الى البائع وأعطيته قرشين. وظللت في مكاني بلا حماسة للنهوض.

تحاملت على نفسي بعد لحظات وغادرت السيارة. جعلت قمم الروافع التي تعلو مبنى الانفاق من ورائي واتجهت صوب المعبد.

دققت النظر في الصخور والرمال التي تتابعت تحت قدمي وأنا أفكر فيما سمعته عن «الطريشة». وأخذت أستعرض الاعضاء التي يمكن بترها من الجسم والاخرى التي يستحيل معها ذلك أو لا يمكن الحياة بدونها.

بدا المعبد أشبه بالسراب. فكلما أشرفت على أحد التلال الصخرية أو الرملية

خيل الي أني أصبحت قريباً منه وأن الخطوة التالية ستضعني على بابه. ومضت ساعتان كاملتان قبل أن أبلغ الشاطيء الغربي الذي يقوم المعبد عليه. كانت هناك عدة قوارب وباخرتان صغيرتان وواحدة كبيرة تحمل اسم رمسيس. وكانت بيضاء الطلاء أنيقة الشكل. وعلى سطحها استلقى نوبيان في جلبابين أبيضين نظيفين. وكان أحدهما ينصت الى رادية ترانزستور في يده بينما انهمك الثاني في حياكة طاقيته.

وقفت أتأمل النوبيين اللذين ران عليهما هدوء لم يبدده صوت الراديو. ثم تحولت أعبر الممشى التقليدي المنحدر الذي يفضي الى المعبد.

كان مدخل المعبد يتصدره عمودان تعلوهما زهرة اللوتس ويتوسطهما قرص الشمس. وكانت هناك لافتة تحمل تاريخ فكه ثم اعادة تركيبه في مكانه الجديد.

دلفت الى صحن غير مسقوف حفلت جدرانه بنقوش الآلهة. كان أحدهما قد زين وجهه بمنقار كبير وأحاطت به مفاتيح الحياة. ودارت بالصحن عدة أعمدة ذات تيجان على هيئة الزهور ونقوش يحمل بعضها طابعا مسيحيا. كانت كل الجدران والاعمدة تحمل آثار أرقام رسمت بالطباشير على مسافات متساوية ورموزاً أخرى حديثة بالطباشير لعلها من مخلفات عملية الفك والتركيب.

اجتزت الفناء الى بهو مسقوف أدى بي الى بهو ثان ثم غرفة كبيرة في الخلف. كانت الغرفة خالية تماماً يحمل جدارها الخلفي نقوشاً عديدة. وتبينت صورة «ايزيس» الجميلة التي كشفت عن ثديين ممتلئين بارزي الحلمتين.

أدركت أني أقف في قدس الأقداس مقر الاله الذي لم يكن يحظى بدخوله الا صفوة الكهنة. وحيث كانت الشعائر السرية تتم في الظلام بعيداً عن الشعب.

فيتطهر الكاهن في البركة المقدسة ويشعل المبخرة. ويتقدم نحو المذبح مطهراً الاماكن الملحقة به برائحة البخور. هنا يرقد التابوت الذي يحوي التمثال الخشبي المذهب للمعبود. ويفض الكاهن الختم المصنوع من الطين ويسحب المزلاج ويفتح المصراعين فيظهر التمثال المقدس. عندئذ يسجد الكاهن ويبخر التمثال ويدهنه بالطيب ويسبح بالاناشيد التعبدية. ويهب الكاهن الحياة للتمثال بأن يقدم اليه عين «حورس» التي انتزعها منه عدوه «ست» وعثرت عليها الآلهة. ويتبع العين بتمثال آلهة الحقيقة ابنة «رع». ثم يسحب المعبود من التابوت ويبدأ في تزيينه. فيبخره ويلبسه ثيابه ويعطره ثم يعيده الى داخل التابوت. ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة. وبعد تمام التطهير النهائي بالنطرون والمياه والتربنتينا يغلق التابوت ويسحب المزلاج ويضع الختم. ويتراجع الكاهن الى الخلف ووجهه للاله مزيلا آثار خطواته.

لمحت بابا صغيراً في أحد جدران الغرفة فاتجهت اليه. ودلفت منه الى ممر دائري عاد بي الى البهو الأول.

عثرت على درج جانبي ارتقيته. كان ضيقاً يأتيه الضوء من كوات في جدرانه عبارة عن فجوات طبيعية مائلة في مكان التقاء أحجار البناء. وانتهى بعد أربعين درجة بباب وضعني على سطح المعبد. اتجهت الى الحافة التي تطل على النيل. ووقفت فوق الواجهة مباشرة أتأمل السد. ورأيت قمم الروافع الثلاثة التي تعلو مبنى الانفاق قد اتحدت في هرم واحد.

عدت أهبط الدرج ثم غادرت المعبد من فجوة في جدار فنائه. كدت أتعثر في رجل يرتدي جلبابا أو عمامة استلقى على الارض. ونهض الرجل مضطرباً وهو يفتش في جيبه. وأخرج بضع اوراق وهو يقول: تذكرة؟

قلت أني لا أريد فتطلع إليَّ في بله ثم حوَّل بصره الى الثغرة التي بزغت منها. تركته يتأملها وانطلقت في طريق منحدر أفضى بي الى آخر شبه دائري مضيت فيه جاعلا قمم الروافع قبالتي.

توقفت بعد فترة أمام كباشة استقرت على الارض بينما كانت احدى القلابات تقترب منها بظهرها. ثم ارتفع الظهر وانهمرت حمولة الاسمنت في الكباشة. ومسح العامل الواقف الى جوار الكباشة عرقه وجعل يشير بيديه لسائق الحفارة. وارتفعت الكباشة في الهواء ثم قامت بدورة كاملة قبل أن تختفي عن بصري خلف تل من الاتربة.

بلغت بداية المستوى الرئيسي في السد. مضيت فوق الطريق شبه الممهد وأنا أتلفت بحثاً عن سيارة. ومرت بي عربة بارفورد قذفت في وجهي بعادمها الثقيل ثم أغرقتني في عاصفة من الغبار بعد أن ابتعدت.

لمحت بعد عدة خطوات شاحنة تجمع على ظهرها عدد من العمال فصعدت اليها انطلقت الشاحنة بمحاذاة ممرات التفتيش حتى بلغنا الضفة الشرقية واذا بها تتجه يساراً وتنهي رحلتها بعد عدة دورات في كاراج الحقن.

عدت أدراجي سيراً على الاقدام حتى المستوى الرئيسي ثم واصلت السير في اتجاه محطة الكهرباء أشرفت على خلاطة الاسمنت فوقفت أتأمل طابوراً من سيارات «الماز» أسفل خرطوم تندفع منه المياه في شدة. كانت كل سيارة تتقدم من الخرطوم بظهرها وهي ترفعه الى أعلى ليتسنى لعامل وقف على سلم بجوار الخرطوم أن يغسلها

جيداً بمياهه. عندئذ يهبط ظهرها وتنطلق خفيفة الى موقعها تحت قمع الخلاط.

تعلقت بباب عربة ذاهبة في طريق الاستراحة. وعندما بلغنا الكاراجات أطاح الهواء بقبعتي. فكرت بأن أتركها وشأنها من فرط التعب. لكن السائق كان قد شهد الحادث فأبطأ السيارة. وقفزت الى الطريق بينما استأنف هو سيره. فاستعدت قبعتي ومضيت على قدميّ حتى الاستراحة.

أحضر لي فقير في الصباح بعضاً من علب اللحم والسمك المحفوظ وعدة أرغفة من الخبز. ووقف يتأملني أعد حقيبتي وهو يهز رأسه في بطء.

قال: حتفوت على بلدي « بلانة ».

قلت: هي قبل أبو سنبل والا بعدها؟

قال: بعدها.

قلت: يمكن. وأشوف البيت اللي انت كنت عايش فيه.

قال مواصلا هز رأسه. ما حتلاقيه. المية غطت كل حاجة.

رفعت عيني اليه عندما لمست رنة الحزن في صوته. قلت بعد لحظة:

- لكن الكل بيقولوا ان المعيشة في القرى الجديدة أحسن بكثير من القديمة؟

قال: والنيل؟ البيوت الجديدة بعيدة عنه خالص... النيل ضاع منا خلاص. مش حنشوفه تاني أبداً.

أغلقت الحقيبة فانحنى عليها ورفعها الى كتفه. تبعته الى الخارج بعد أن تأكدت من وجود خطاب صيام الى زميله في جيبي.

كانت الشاحنة التي أرسلها لي عباس يقودها سائق نوبي. جلست الى جواره بعد أن أعطيت فقير نصف جنيه. انطلقنا في طريق متعرج مرصوف الى الميناء الذي أقيم على الشاطيء الشرقي في نقطة تواجه مرسي الباخرة رمسيس ومعبد « كلابشة ». وصلناه بعد دقائق فألفيناه مرسى صغيرا يضم سفينة قديمة مهجورة استقر الصندل الى جوارها.

مضيت الى كشك خشبي يحمل اسم الشركة صاحبة الصندل. بينما سار السائق بخطوات متمهلة الى حيث يدور الشاطيء صانعا خليجا صغيرا.

سألته: أنت متأكد من الموعد؟

قال: ما تبقى من شحن لن يستغرق أكثر من هذا.

قلت: بوسعي أن أنصرف الآن ثم أعود في الثالثة. فهل تضمن لي أنه لن يقوم قبل هذا الموعد؟

ضحك: كيف؟ ما أدراني ما سيحدث.

وقفت حائراً ثم استدرت ومضيت الى حيث وقف السائق. كان يتأمل عدداً من مراكب الصيد الصغيرة غطتها مياه الفيضان قال عندما رآني:

- شايف مراكبنا. سابوها كده من غير ما يحاولوا يشيلوها. ولما شكينا قالوا اننا مالناش عندهم حاجة لأننا أخذنا التعويضات.

وقفنا نتأمل أشرعة المراكب التي برزت من المياه السمراء وجعلت تتايل يمنة ويسرة ثم استدرنا عائدين الى الشاحنة.

قلت للسائق أني سأبقى فساعدني على انزال حقيبتي وانصرف. حملت الحقيبة الى الكشك فوضعتها بجوار صبي أسمر اللون اقتعد الارض أمام موقد الكيروسين المعهود. فوجئت به يقدم الي كوباً من الشاي. فاعتمدت بظهري على جدار الكشك ومضيت ارشف الشاي متأملا الصندل.

كانت هناك عارضة خشبية تصل بين الشاطيء وحافة الصندل. وفوقها تدافع عدد من الصعايدة ينقلون اليه أسلاكا حديدية. ووقف يرقبهم رجل عريض طوى ذيل جلبابه ودسه في سرواله الطويل. كان وجهه يحمل الملامح النوبية وان بدت بشرته قمحية. وسمعتهم ينادونه بعم مهدي.

انتهيت من كوبي فأعدته للصبي. وأعطيته قرشاً فرفض أن يأخذه قائلا لي ضيف. حملت حقيبتي وعبرت العارضة الى ظهر الصندل. ووجدت أكوام الرمال والزلط تكاد تغطي مساحته كلها. وكانت حركة الشحن المستمرة تحول دون الاستقرار بينها.

لمحت سطحاً معدنياً بارزاً على مقربة من أحد طرفي الصندل بدا بمعزل عن كل ما يجري حوله. وفوقه استلقى شاب في قميص من المربعات الملونة وبنطلون من قماش رخيص أزرق اللون. اتجهت اليه ورفعت حقيبتي فوضعتها فوقه. اكتشفت ان السطح ليس سوى ظهر القمرة التي تضم المحرك. وكان ظهر الراقد اليَّ فلم أرَ وجهه. وبدا نائماً.

جلست فوق حقيبتي معتمدا بذقني على ركبتي. وأخذت أرقب حركة العمال.

وصاح العمال: «نحن نموت جوعاً ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يوماً حتى الشهر القادم». وتجمعوا في

أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح يصيحون: «لن نعود الى أعمالنا. أبلغوا هذا الى رؤسائكم المجتمعين هناك». وتوجه الجائعون جماعات كبيرة نحو الحوانيت ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها. وقام أحدهم خطيبا: «لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش. ولم تعد لدينا ملابس نرتديها، ولم يبق لدينا زيت ولا سمك ولا خضار، أرسلوا لسيدنا فرعون أرسلوا لمليكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة».

أحسست بمن يرقبني. والتفت الى النائم فوجدته قد اعتدل على ظهره وطفق يتطلع اليّ.

هززت رأسي محييا فاعتدل جالساً. وانتصبت أمامي رأس حليقة كالسجناء والجنود. لكن شعر ذقنه كان طويلا. ورأيت مصباحاً كهربائياً يتدلى من خصره. والى جوار المصباح مطواة.

عرفني بنفسه قائلا انه جوال ويدعى ذهني. وذكرت له اسمي بدوري. وعندما سألني عما أعمل قلت أني صحفي.

سألني باهتمام: فين؟
ذكرت اسم مجلة. فانفعل فجأة وسألني عما اذا كنت أعرف أحد كتابها.
تطلعت اليه في حدة ثم قلت: أيوه أعرفه.
قال أنه تعرف عليه عندما كان في السجن.
سألته: وايه اللي وداك هناك؟
قال: كنت بأزور واحد قريبي.
قلت: ما قلتليش بتشتغل ايه.
قال: في شركة.
- هنا في السد؟
- لا. في القاهرة. أنا عضو كمان في جمعية الجوالة.

مد يده في جيبه فأخرج دفترا أخضر قدمه الي قائلا أنها بطاقة عضويته في الجوالة. تناولت الدفتر وألقيت عليه نظرة سريعة. كان يبدو جديداً للغاية وكانت الصورة الملصقة به تمثله بشعره المحلوق ونفس ملابسه.

قال: أنا قطعت حتى الآن عشرة آلاف كيلو. وقلت ما دام وصلت لهنا لازم أشوف أبو سنبل. وأنت؟

قلت له أن وجهتنا واحدة وأعدت اليه البطاقة ثم لزمت الصمت. وتابعت سربا من الطيور البيضاء ذات الاجنحة السوداء كان يطير فوق سطح الماء متجها الى السد.

اقترب منا عم مهدي فرحَّب بي قائلا: أهلا وسهلا بالافندي. ثم صاح منادياً على صبي الشاطىء: شاي للأفندي يا وله.

سألته عن موعد قيام الصندل.

قال: قريب باذن الله.

قلت: فاضل ايه؟

قال: مواسير الحديد والاخشاب. وبعدين الادوات الصحية. مش حيخدوا كتير.

جاء الصبي بكوبين من الشاي أعطاني أحدهما وقدم الثاني الى عم مهدي. وقدم هذا الكوب بدوره الى ذهني قائلا انه شرب لتوه. ثم غادرنا عائداً الى موقفه بجوار العارضة الخشبية.

قال ذهني ونحن نرتشف الشاي: كنت خايف أبقى لوحدي على الصندل.

لم أعلق.

أضاف بعد قليل أن مجموعة من الجوالة كانت معه بالامس ولكنهم تخلوا عنه اليوم وفضلوا العودة الى القاهرة.

ظهرت في مدخل الميناء باخرة تحمل العلم المصري توقفت لصق السفينة المهجورة. وما لبثت الحياة أن دبت في الاخيرة وتحولت الى مكاتب للجمرك والرقابة الصحية. وأصبحت معبرا الى الشاطيء لركاب الباخرة القادمة من السودان.

ظهر عدد من الاجانب على سطح الباخرة. وغادرتها فتاة شقراء رشيقة ترتدي بنطلوناً قذراً من بنطلونات رعاة البقر. وبرزت في الطابق الأعلى للباخرة شقراء أخرى في رداء قصير للغاية ووقفت على رأس السلم تتطلع في تردد الى خمسة مصريين اعتمدوا على سور السفينة الاخرى تحتها مباشرة بطابقين ورفعوا رؤوسهم الى ساقيها. وأخيراً استدارت وجعلت تهبط بجنبها.

فرغ العمال من نقل المواسير وبدأوا يجلبون الاخشاب. وانضم الينا فوق سطح المحرك نوبيان في جلبابين نظيفين من قماش سميك داكن اللون. وكان كل منهما يحمل لفافة من القماش.

كان أحدهما ممتلئاً شديد الوقار بادي الطيبة. وكان الثاني طويلا نحيفا شديد الخجل. وقدم لنا الوقور نفسه على أنه يعمل في ادارة الشركة بأبي سنبل ويدعى فهمي. أما الخجول فكان اسمه أحمد ويعمل في الورشة الميكانيكية بأبي سنبل أيضاً. وكان الاثنان في زيارة زوجتيهما وأولادهما في القرى الجديدة.

سألت فهمي عما اذا كان المعبدان قد فصلا عن الجبل فأجاب:

- الشغل ماشي.

وجهت السؤال بطريقة أخرى. التماثيل الكبيرة اللي في وش المعبد زي ما هي والا شالوها.

قال: التماثيل لسه موجودة.

مر عم مهدي بجوارنا فتوقف يحيي أبناء بلدته قائلا: ماسكاجيرو.

ورد عليه الاثنان: ماسكاجيرو.

سألته عن الوقت الذي ستستغرقه الرحلة.

أجاب: المسافة مش كبيرة.

قلت: يومين ولا تلاتة؟

قال وهو يتحرك مبتعداً: مش حيزيدوا باذن الله.

قال ذهني: مش أكثر من يومين.

قال فهمي: أربعة عشان الصندل ما بيمشيش بالليل.

قال أحمد: الصندل سريع.

سألت فهمي عمن يكون عم مهدي فقال انه مساعد الريس.

قلت: وفين الريس؟

أشار الى عجوز ضئيل الجسم وقف في الطرف الآخر من الصندل وقد غطّى رأسه بعمامة كبيرة بيضاء وبدت بشرته فاحمة السواد.

تجاوزت الساعة الثالثة وما زال العمل جارياً في نقل الأخشاب. ولم يبدأ بعد في الإسمنت والأدوات الصحية. وجعلت أنقل بصري بين العمال والمياه العالية والمعبد الذي استقر على الشاطيء الآخر.

اقترب مني فهمي زاحفاً فوق الصاج وقال مشيراً الى نقطة في الماء على مبعدة خطوة واحدة من شاطئنا: شايف الفنطاس ده؟

كان هناك فنطاس من الحديد يعلو على سطح الماء وتحته عدة درجات حديدية رفيعة.

سالني: شايف كم سلمة؟

عددت ثلاث عشرة درجة.

قال: السلم ده فيه مبت سلمة. كلهم الوقت تحت المية. اللي انت شايفه ده كان شطنا قبل السد. كان بيوصل لغاية نص البحر.

انتهى نقل الأخشاب ورأيت مجموعة من العمال تحمل أكياساً من الإسمنت الى الصندل. وجاء في أعقابهم شخص أسمر البشرة يرتدي جلباباً صوفياً داكن اللّون ويحمل في يده سلّة مخروطية من القش اختفت محتوياتها خلف ورق الصحف. وفي يده الأخرى استقرت حقيبة متوسطة الحجم.

تقدم منا الرجل في هدوء واضعاً حمله على أرض الصندل.ووجّهَ إلينا التحية في لهجة صعيدية أصيلة.

أفسحنا له مكاناً بجوارنا. فتربع وأخرج علبة بلمونت دار بها علينا. ولاحظت عمامته البنية النظيفة وجلبابه الذي صنع من قماش غير رخيص جرى كيه حديثاً ثم الحذاء ذا الرقبة. كان كل ما فيه ينطق بالاعتناء الشديد وربما أيضاً بقيراطين من الأرض.

دخنّا ونحن نتأمل باخرة خشبية متهالكة تقترب من الميناء في بطء ثم تتوقف خارجه. ولاحظت أن حركة الصعايدة قد هدأت عن ذي قبل لكنهم كانوا ما زالوا ينقلون أكياس الأسمنت

قلت: الظاهر مش منقولين من هنا النهار ده.

قال ذهني: يمكن الصندل يبيت هنا.

أشار الصعيدي الى الباخرة التي وقفت في عرض النهر وقال: مش ممكن. لازم نخلّي مكان للمركب.

شرع أحمد يفك لفافته وأخرج منها عدة أرغفة من الخبز المستدير. وبسط منشفة نظيفة على سطح الصاج ووضع الخبز فوقها. ثم أضاف اليه أربع بيضات مسلوقات وقطعة من الجبن وبضع حبات من الطماطم. وبحث طويلاً بين محتويات لفافته حتى عثر على قطعة صغيرةٍ مطوية من الورق تكشفت عن حفنةٍ من الملح المخلوط بالفلفل الأسود.

اعتدل فهمي بجوار زميله ودعانا الى مشاركتها طعامها. اقترب منها ذهني على الفور بينما أخرجت من حقيبتي علبة بولوبيف فتحها ذهني بمطواته. وجذب الصعيدي سلته ونزع غطاءها مخرجاً منها لفافة من الورق وسكيناً. وفتح اللّفافة ثم قطع بالسكين جزءاً من قطعة لحم ظهرت عليها حبات الفلفل الأسود. ومزق جانباً من لفافة الورق وضع فوقها قطعة اللحم وأضافها الى المائدة المشتركة. ثم قام الى حقيبته ففتحها وأخرج منها رغيفين من الخبز الشمسي السميك وضعها أمامنا.

ناديت على رمضان أن يأتي لنا بالشّاي. وسألت الصعيدي عن اسمه فقال أنه يدعى جرجس. وأضاف انه من سوهاج ويعمل في أبي سنبل.

حرّك رأسه حركة خفيفةً لم أفهم معها اذا كانت إجابته بالإيجاب أو النفي. وصدرت عن أحمد همهمةٌ غير مفهومة. سألتهم عمّا إذا كانوا يعيشون في عنابر فقال جرجس إنهم يقيمون في خيم لأن العنابر لم ينته بناؤها بعد.

لاحظت أن العمل يجري الآن في نقل الأدوات الصحيّة. وخلا الشاطىء إلا من بضع أحواضٍ من الخزف.

قلت: تبقى تعرف أحمد وفهمي؟

هبطت من فوق القمرة. وأعتمدت على حافة الصندل. أخرجت منديلي ودليته في الماء. ثم عصرته ومسحت به وجهي وعنقي. ودرتُ حول القمرة حتى أصبحت في الناحية الأخرى المطلّة على الشاطىء. رأيت الصعايدة قد شمروا ملابسهم وغاصوا في الماء يغتسلون. ولمحت رمضان بينهم. كان الكشك مغلقاً. ورأيت عاملاً يحمل آخر قطعةٍ من الأدوات الصحية ويعبر بها العارضة ثم يضعها على الرمال ويتهاوى الى جوارها مجفّفاً عرقه بساعدهِ.

اختفى عم مهدي في باب القمرة. وما لبث صوت المحرك أن ارتفع ثم توقف وعاد يتردد من جديد في خفقات مضطربة حتى استقرّ أخيراً على نغمته العالية. وظهر الريس عند مقدمة الصندل.

انتهى رمضان من الاغتسال فأسرع الى الكشك وتناول من الأرض موقد الكيروسين وكراسة ثم عاد جرياً الى الصندل فقفز الى سطحه. كان الصندل قد تحرك بالفعل وسقطت العارضة الخشبية في الماء.

أشعلت سيجارة وأنا آتأمّل الشاطيء والصعايدة الذين قاموا بشحن الصندل وجلسوا الآن بلا حركة يرقبون ابتعاده. تحولت أرقب الناحية الأخرى. رأيت أننا نسير بعرض المجرى في حذاء السد ونقترب بسرعة من الشاطيء الآخر أسفل المعبد. وسرعان ما رسينا بجوار الباخرة رمسيس.

سكت صوت المحرك واختفى الريس في قاع الصندل. ولحق به عم مهدي. ثم ظهر الإثنان من جديد وقد استبدلا ملابسها. وبدا الرّيس شخصاً آخر في رداءٍ أسود مهيب وعمة بيضاء تعددت لفائفها فوق رأسه.

عبر الرّيس الى الشاطىء ومشى بنشاطٍ وهو يلوك شيئاً بين فكيه الخاليين من الاسنان. وخلفه انطلق عم مهدي في رداء مماثل متنعلاً حذاء. وجاء في أعقابها

رمضان في جلباب أبيض نظيف وصندل. وانطلق الموكب الثلاثي على الشاطيء يتقدمه الريس ملوّحاً بيديه يرد تحية بحارة رمسيس وعدد من النوبيين والصعايدة يشربون الشاي على الشاطيء وسرعان ما اختفى الثلاثة عن الأنظار.

صعدت فوق القمرة وأنا أسأل: هم راحوا فين؟

أجاب جرجس: روحوا.

قلت: روحوا على فين؟

قال: على أسوان.

قلت: يعني إيه؟ إحنا مش حنمشي النهار ده؟

قال فهمي: لا حنبيت هنا. الدنيا خلاص ليلت.

شعرت بدمائي تفور.

قال فهمي: لو كنّا فضلنا في الناحية التانية للصبح كانت الشركة تكلفت عشرين جنيه.

قلت: طب ليه ما حدش قال، أنا كنت أفكر اننا ماشيين النهار ده.

قال جرجس: أنا ظنيت أنك عارف، ما دام الميكانيكي ما ظهرش يبقى مفيش سفر.

سألت: أي ميكانيكي؟

قال: اللي حيشغل الموتور.

- وعم مهدي؟

قال فهمي: عم مهدي مساعد الريس ومالوش دعوة بالموتور.

جلست فوق حقائبي وأشعلت سيجارة جديدة. وعندما انتهت هبطت الى مرحاض صغير بجوار باب القمرة. غسلت وجهي وأسناني. وتبعني الآخرون. ثم غادرنا الصندل الى غرزة الشاي الصغيرة على الشاطيء.

سألني ذهني ونحن نشرب الشاي عما اذا كنت سأبقى طويلاً في أبي سنبل.

أجبت: حسب الظروف.

- وحتنزل فين؟

قلت: في استراحة الشركة.

وتمنيت لو كنت واثقاً من ذلك حقيقة.

قال: وبعد كده؟

قلت: بعد كده؟ حأرجع.

قال: مش رايح السودان؟
قلت: السودان؟ ليه؟
قال: المسافة بين أبو سنبل والحدود ما تزيدش عن ثلاثين كيلو.
قلت بعد فترة: ولو حبيت أروح ما معيش بسبور.
ضحك قائلاً: ومين عاوز بسبور عشان يعدي الحدود.

إنتهينا من أكوابنا فاقترح جرجس أن نشرب دوراً آخر. وتباريت أنا وهو في تقديم السجائر للجميع.

عدنا الى الصندل فاستلقينا فوق ظهر القمرة. انتحى أحمد طرف السطح ورقد على جنبه واضعاً رأسه على ساعده. وبسط فهمي بطانية على الناحية الأخرى ونام فوقها. وحذا الصعيدي حذوه ثم دعانا أنا وذهني لأن نرقد فوق بطانيته.

رقدنا تحت شمس المغيب. وردد ذهني بصوت خشن أغنية لعبد الحليم. فسألته إن كان يعرف أغاني سيد درويش أو عبد الوهاب القديمة. لكنه لم يكن يذكرها. وحاولنا معاً ان نستعيد كلمات ولحن «ياما بنيت قصر الأماني» ولكننا فشلنا.

قال جرجس: أجولكم على لغز والشاطر يفسره.
قال ذهني: قول يا عم.
قال جرجس: يبجي ايه أخف الخفيف وأتجل التجيل؟
فكرت وقلت: الرمل.
قال ذهني: الهوا.
ضحك جرجس وقال: أخف الخفيف هو كلام الحبيب وأتجل التجيل كلام العدو.

فكر لحظة ثم استطرد: طب فسروا ده: شاب ركب أبوه ولبس أمه وأكل الحي من الميت.

لم أستطع أنا وذهني أن نفكر بإجابة. وقال جرجس:
- مفيش أبسط من كده. شاب رهن أبوه عشان يركب جمل ورهن أمه عشان يلبس ولما جاع شق بطن الجمل فلجى فيه جنين صاحي أكله.

أشعلنا سجائرنا. وتأملت سفح السد الذي ساده الهدوء التام. جعل ذهني يترنم مردداً «يا ليل يا عين». فسأله جرجس عما إذا كان يعرف قصة هذه العبارة. وعندما أجاب هذا بالنفي اعتدل جالساً في حماسة وروى لنا كيف انطلق شخص يدعى «ليل» سائحاً في البلاد بحثاً عن صديق. وعثر عليه الملك وهو يغربل الرمال فسأله

عن السبب فقال انه يبحث عن صديق. وعندئذٍ اصطفاه الملك صديقاً.

وقرّر الملك ذات يوم أن يسافر للحج. فقطع ليل شخصيته ووضعها في علبة وأغلقها وأعطاها للملك دون ان يطلعه على محتوياتها وطلب منه أن يرويها من ماء زمزم.

قاطعته متسائلاً عما يعني بشخصيته.
قال: لا مؤاخذة قضيبه.

كان الظلام قد انتشر تدريجياً. وظهرت فوق السد أضواء المصابيح الكهربائية. وصلت الى مسامعنا أصوات الشاحنات والقلابات التي تعمل فوقه دون ان نراها. وعلى اليمين تبدت حفارة كانت كباشتها تدور حولها بسرعة كأنما أفلت عقالها.

أخرجت من حقيبتي وسادة صغيرة من المطاط وضعتها تحت رأسي. واستلقيت في مواجهة السد. واستقبلت على وجهي نسمة خفيفة هبت فجأة.

أغمضت عيني وشردت وأنا أصغي بنصف انتباه لذهني وجرجس يغنيان معاً «يا بهية وخبريني على اللّي جتل يسن».

الحياة اصبحت مثيرة كما لم تكن من قبل، والورق الأبيض يتحول في الغرفة الصغيرة فوق السطح الى سلاح بلا طلقات، الخطر في كل لحظة وكل ركن، وكل مهمة فيها انتصار لا ينازع على العدو الرابض في الظلام، وتستيقظ المدينة في الصباح لتقرأ الرسالة المسطورة، لكن كلمة واحدة كانت كافية لفتح الجرح الذي لا يندمل، فإشارة اهتمام قد ترقى الى مرتبة العاطفة المفتقدة، وكيف يمكن تفسير الابتسامة والنظرة واللمسة؟ أو التعبير عما يجيش به القلب؟ ولم يبق الا التجوال على غير هدى في الشوارع التي تغشاها على أمل لقاء بالمصادفة، فمن السهل تبين القامة المشوقة وجدائل الشعر الأسود المسترسلة على الظهر، ولا بد أن يعكس زجاج المحلات تلألأ العينين العسليتين الضاحكتين، والبصر يمتد في لهفة الى كل ركن وفي كل اتجاه، وفي المقاهي تجمّع الناس يتابعون أنباء تأميم القناة، لكن الأذن تتلهف على نواح المغنين، ويتراءى وجهها في الصباح والمساء، في النوم واليقظة، وهناك لذّة لا تدانيها لذة في حفر الجرح الغائر الى الأعماق حتى تترسب الأحزان طبقات،

فتحت عيني فطالعتني النجمة الوحيدة وسط السماء. رفعت ساعدي وألقيت نظرة على ساعتي. وجدتها السابعة والنصف.

ظللت أتأمل النجمة التي انفردت بصفحة السماء. وغفوت على صوت جرجس يقول: اللي يعيش يا ما يشوف واللي يمشي يشوف أكثر.

استيقظت في الليل فطالعتني آلاف النجوم المتناثرة المتباينة الأحجام. رفعت رأسي قليلاً وتطلعت أمامي مباشرة فتراقصت في عيني أضواء السد. وأتتني ضجة العمل واضحة كما لو كنت أنام فوقه.

غفوت ثم استيقظت مرة أخرى على صوت حاد صادر من ذهني الذي كان ينام الى جواري. ظللت يقظاً حتى أدركت أن مصباحه المدلى من خصره يرتطم بسطح القمرة كلما تقلب.

في الفجر سمعت أحمد يقوم شاكياً من البرد وينام بجوار فهمي. وبدأت أشعر أنا الآخر بالبرد. فأخرجت من حقيبتي ملاءة التحفت بها جيداً.

امتلأ جسدي برضوض عديدة من أثر الصاج الصلب. وتزايد شعوري بالبرد فتطلعت الى ساعتي. وجدت أننا نقترب من السادسة فقررت النهوض.

رأيت فهمي وأحمد قد تمددا متقابلين على جنبيهما تغطيهما بطانية واحدة أحكماها حول جسديهما. وأبعداها عن وجهيهما بمرفقي ساعديهما المرفوعين فوق رأسيهما. التحفت بالملاءة ونزلت الى مرحاض القمرة فتبولت وشربت ثم أشعلت سيجارة. ومضيت الى حافة الصندل المواجهة للسد فجلست فوق صندوق من الحديد.

كان ضوء النهار ينتشر حولي بسرعة لكن المصابيح الكهربائية كانت ما تزال مشتعلة فوق السد. وظهرت عربة وحيدة مهجورة في أقصاه عند الحنية التي تفصله عن قناة التحويل.

شعرت بحركة خلفي في النهر فالتفت لأرى طابوراً من مراكب الصيد الشراعية يقترب في هدوء عائداً من رحلة كل ليلة. استقرت المراكب الى جوار الصندل ثم تجمع الصيادون في إحداها والتفوا حول موقد كيروسين انهمك أحدهم في اشعاله. وأحاطه آخر بحاجز من الصفيح يحجب عنه الهواء. ظلوا يرقبون الموقد في صمت حتى انتهى اعداد الشاي فصف أحدهم عدداً من الأكواب الزجاجية أمامه وصبّ فيها الشاي. وعندما شربوا تفرقوا من جديد في مراكبهم دون أن يتبادلوا كلمة واحدة.

انحنى صياد نوبي في مركب قريب مني على قاعه. وأخرج سمكة في حجم الكف مال بها على حافة المركب وضربها في الماء عدة مرات. ثم تناول خرقة من القماش دعك بها السمكة وقذف بها الى سلة من الليف تحت قدميه. وتناول سمكة أخرى.

راقبته وهو ينتقل بسرعة بين قاع المركب وحافته ومن سمكة الى أخرى. وشعر هو بي فرفع رأسه الي عندما رآني في الملاءة البيضاء التي لم تظهر منها سوى عويناتي تجمدت يده فوق السمكة التي كان يدعكها وتطلع اليّ مبهوتاً ثم عاد الى عمله.

هبت عليّ نسمة باردة فغادرت مكاني ودرت حول الصندل وجلست في الناحية الأخرى أسفل القمرة. وأحكمت الملاءة حول جسدي وأنا أتشمم رائحتها النظيفة. وبعث في ملمس الملاءة ورائحتها شعوراً بالانتشاء فتحسست ساقي الساخنة.

الصور مخبأة في كراسات الجبر والهندسة وكتب التاريخ والجغرافيا. يجري جمعها عاماً بعد عام، وكل يوم يجري التقليب بينها خلسة. كل واحدة وعد بتلك اللذة الغامضة في صدر المرأة وبين ساقيها، والكلمات ليس لها بعد معنى ملموس. وإن كانت تدفع بالدماء الى العروق حتى تفجر الينبوع فأصبح للأسى معنى.

رفعت رأسي فجأة الى أعلى فرأيت وجه فهمي يطل عليّ من فوق سطح القمرة. قال عندما التقت أعيننا: صباح الخير.

أبعدت يدي عن ساقي قائلا: يسعد صباحك.

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها. وتراجع فهمي هابطاً الى سطح الصندل من الناحية الأخرى ليغتسل. وقمت خلفه فغسلت أسناني. انتظرنا حتى انتهى الباقون من الاغتسال فغادرنا الصندل الى البر وجلسنا في مقهى الأمس.

أخرج جرجس من جيب جلبابه عدة قطع من البسكويت الصعيدي وزعها علينا. وجعلنا نغمس البسكويت في الشاي ونحن نرقب شجاراً عالياً يدور بين ثلاثة من البحارة الصعايدة على ظهر «رمسيس» وصبيّ نوبي كان منهمكاً في تنظيف سياجها. أدركت بعد لحظة أن الأمر لا يتعدى مزاحاً من جانب الصعايدة الذين لم يخفوا إعجابهم بوجه الصبي الوسيم وجسمه المشوق.

أصر جرجس على أن يدفع حساب الشاي، وعدنا الى الصندل. وما أن استقر كل منّا في مكانه حتى ظهر الريس على الشاطىء متقدماً في نشاط وتحت ذراعه لفافة من القماش وخلفه موكب الأمس.

(٣)

كان موكب الرّيس سرور يضم عدة وجوه جديدة: ثلاثة من البحارة في لبدهم المخروطية والميكانيكي ومساعده. وكان الميكانيكي طويل القامة يرتدي قميصاً وبنطلوناً وينقل قدميه في بطء. واختفى هو ومساعده الصبي في قمرة المحرك على الفور.

استقر عم سرور بجسمه الضئيل وحركاته العصبية في مقدمة الصندل يتطلع الى الأفق. وخلفه وقف مساعده عم مهدي. وانتحى البحارة الثلاثة ركناً على الرمال وسط الصندل.

تحركنا أخيراً ودار الصندل تاركاً السد من خلفه. وشرع يقترب من الضفة الشرقية للنهر. فتبدّت لنا بضعة بيوت متناثرة فوق مرتفع صخري بعيد عن الشاطيء. كانت أشبه بخط من الجدران البيضاء تتخلله فتحات سوداء. وعندما أصبحنا في محاذاتها تكشفت الفتحات عن أقبية مجوفة تعلو أسطح البيوت. ولم يكن هناك أثر لشيء حيّ.

عاد الصندل يبتعد عن الضفة الشرقية متجهاً الى وسط المجرى. وأحاطت بنا عشرات من الجزر الصغيرة. وتكلم أحمد فجأة قائلا انها بقايا البيوت التي غمرتها المياه.

سألت فهمي عن الأقبية التي تعلو الاسطح فقال انها مجرد فراغات للتهوية. خلفنا القرية الغريقة وراءنا واقتربنا من الشاطيء الشرقي مرة أخرى. سرنا في محاذاة

صفين من المرتفعات الصخرية تغلفها قشرة ناعمة من الرمال والاتربة. لم يكن هناك أثر لتلك الصخور الشرسة البارزة التي تسود منطقة السد حيث أزيلت قشرة الجبل.

أشرفنا بعد قليل على قرية ثانية تتألف من مجموعات من البيوت تعلو بعضها تلك الأقبية المجوفة. كان بعضها الآخر يبدو أقرب الى رسوم الأطفال.

كانت البيوت متناثرة فوق حافة الماء مباشرة. ولصقها من الخلف كان يمتد الشاطىء الجبلي.

تساءل ذهني: أمال السوق كان فين؟
قال فهمي: سوق؟ ما كانش عندنا. البضايع كانت بتلف بيها مراكب.
قلت: ليه هو ما كانش فيه سكة عربيات؟
قال فهمي: الناس اللي كانت عايشة هنا عمرها ما شافت عربية.

قلت: طب وكانوا عايشين إزاي. فين الزراعة؟
قال: كان فيه. انما البحر هنا ضيق خالص. ولما علوا الخزان أول مرة غرقت الزراعة والسواقي. ما فضلش إلا حاجة بسيطة.

مرّ بنا مركب صيد عائد الى اسوان. واستدرت أتابعه ببصري فرأيته يختفي خلف حنية في النهر.. ووراء هذه الحنية كانت الضفتان تلتقيان في خط واحد من الجبال المتجهمة.

أبطأ الصندل سرعته ومضى يدور في بطء حول كتلة ضخمة من الصخور برزت وسط المجرى. وبدت لي الصخور في صورة جماعة من المماليك الذين لجأوا الى النوبة فراراً من مذابح محمد علي وقد تجمعوا لبحث أمر خطير وأحنوا رؤوسهم التي تغطيها عمائم ضخمة.

انحنى بنا النهر ليضعنا تحت أقدام قرية تتألف من بيوت عائمة تحيط بها المياه من كل جانب. كانت البيوت كلها تحمل طلاء أصفر اللون فيما عدا منزلاً واحداً كبيراً ذا سور حجري بدا أشبه بالقصر طلي بلون أبيض تعترضه مثلثات داكنة فوق النوافذ.

سقطت أشعة الشمس فوقنا عمودية. ولم تكن ثمة وسيلة لتفاديها. المكان الوحيد الذي كان يمكن ان يقينا منها هو الكهف الذي قبع فيه الميكانيكي ومساعده أو المظلة التي أقامها عم سرور من قطع الخيش فوق مقدمة الصندل. ولم يكن جرجس يعبأ بالشمس التي عجزت عن اختراق عمامته الثقيلة. وكان النوبيان أيضاً بمأمن

منها. أما قبعتي المصنوعة من القش فقد فشلت في حمايتي من الأشعة النارية. ولم يبد على ذهني أنه يبالي بالشمس رغم انه كان عاري الرأس حليقها.

تحول السطح المعدني الذي تكومنا فوقه بمرور الوقت الى لوح ملتهب أصبح من العسير الجلوس فوقه أو السير عليه بغير حذاء.

في الواحدة والنصف أصبحنا امام « بيت الوالي ». كانت البلدة الصغيرة تمتد على حافة الماء وقد تناثرت وسطه قمم أشجار النخيل. وحفر الماء لنفسه طريقاً داخل البلدة وحول المعبد الذي استقر بعد نقله على مسافة آمناً من زحف النهر.

لم يكن بوسعي ان أتبيّن شيئاً من أول معبد أمر رمسيس الثاني بنحته في الصخر وسجل على جدرانه تفاصيل حملته على النوبة.

فلم يكد الأمر يستقر للملك في الداخل حتى سار جنوباً فأعاد الأمن الى ربوعه. وكان عهد خلفه معروفاً بالهدوء والسلام اذ عني بتشييد المباني والمعابد الا أنه من الثابت الآن انه أرسل أيضاً احدى الحملات الى النوبة ولو أن هذا لا يغير من حقيقة اهتمامه بالبناء وجلب المحاصيل منها. ودعت ظروف المحافظة على السلام من جاء بعده الى ارسال حملة بحرية الى النوبة عادت بسبعة آلاف أسير ومائة ألف رأس من الماشية. وعملت مصر وقتها على استرضاء القبائل النوبية والتعامل معها تجارياً واقتصادياً الى جانب روابط المصاهرة فضلا عن استخدام القوات النوبية في الجيش المصري. واضطرت الظروف ملوك الأسرة التالية الى اعادة غزو النوبة وفتح مناجم الذهب. وأمر الملك بتسجيل حملته على جدران المعابد فنقش الفنانون موكبه سائراً فوق جثث النوبيين وقد علق زعماؤهم في مقدمته.

دوى صوت انفجار قريب وانقطع ضجيج المحرك. وفوجئنا بالمياه تصعد الينا فوق سطح القمرة.

قفز جرجس واقفاً وهو يقول: ماسورة التبريد طقت.

راقبت المياه التي انتشرت فوق الصاج وهي تجف سريعاً بتأثير سخونته. ثم تبعت الآخرين الى قاع الصندل الذي توقف عن السير.

كان البحاروة الثلاثة قد بسطوا صحيفة فوق الرمال ووضعوا فوقها طعامهم. ولمحت حبات البصل التي انداحت جوانبها كاشفة عن قلوبها. وأتتني رائحته المثيرة.

وجه أحدهم التحية الى فهمي ودعانا الى مشاركتهم فشكرناهم وسألت فهمي عنه فقال انهم خفراء في أبي سنبل.

ارتفع صوت المحرك من جديد. واستأنف الصندل سيره فعدنا الى أماكننا. وتولى جرجس اعداد المائدة التي أضاف اليها كل منّا شيئاً عدا ذهني.

قال جرجس ونحن نأكل انه يخشى أن يطالبه المصري بنقود.

سألته: أي مصري؟

قال: الميكانيكي. المصريين دايماً كده.

أشرت الى حيث كان الثلاثة بمعزل عن ناظرنا وسألته:

- ودول كمان؟

قال: أبداً. دول فلاحين. الميكانيكي ابن البلد ولابس أفرنجي.

أزلت بضع فتات من الجبن سقطت على قميصي. وأخرج جرجس من سلته براداً صغيراً قديماً وضعه أمامي في زهو. وأتبعه بصندوق صغير للشاي ومنديل احتوى على قليل من السكر وملعقة وكوب من الزجاج. حمل الشاي والسكر في يد والبراد في اليد الأخرى وهبط الى سطح الصندل قائلاً انه سيعد الشاي عند الميكانيكي.

كان المجرى دائم الانحناء. وشعرت أننا نتجه يسرة. وظهرت يمنة قرية صنعت منازلها من الصلصال ورسمت على جدرانها نقوش بيضاء تمثل ورق اللعب.

عاد جرجس حاملاً براد الشاي وكوبين آخرين من الزجاج قال انه أخذهما من الميكانيكي وانه دعاه ليشاركنا شرب الشاي.

أقبل الميكانيكي فأفسحنا له مكاناً بيننا. واقتعد الأرض متربعاً. وبدا رجلاً هادىء الطبع خجولاً بعض الشيء في الحلقة الرابعة.

صب جرجس الشاي وتطوع ذهني بأن يحمل كوبين الى كل من الريس ومساعده. سألت الميكانيكي عما إذا كان من القاهرة فقال انه من قرية خارجها. قال انه يعمل في هذه المنطقة منذ بدأت عمليات انقاذ الآثار وشارك في نقل أغلب المعابد.

استفسرت منه عن العمل في تقطيع المعبدين فقال أن الواجهة ما زالت كما هي وانهم ربما بدأوا في تقطيعها في الشهر القادم.

مررنا ببضعة بيوت على الضفة الشرقية انهارت واجهاتها الأمامية وظهرت الغرف الداخلية الفارغة كأنها عائمة فوق سطح الماء. قال فهمي أنها قرية «كلابشة»

فاعترض الميكانيكي قائلاً أننا تركنا «كلابشة» خلفنا منذ نصف ساعة أما هذه فهي «دندور». وأضاف:

- كان هنا معبد ع الشط الغربي. وكان بتوع الآثار مهتمين به لأنه كان فيه آثار كنيسة وجامع.

أشرفنا على قرية جديدة عندما صب جرجس الدور الثاني. كانت واجهات منازلها خالية من أية نقوش أو زخارف. وقال الميكانيكي مشيراً بيده الى نقطة على الضفة الغربية وسط أطلال المنازل:

- دي جرف حسين. بصوا بعيد هناك. أهو ده اللي فضل من المعبد.

لم أستطع أن أتبين البقايا التي أشار اليها. وقال أن معبد «جرف حسين» هو الوحيد الذي لم يتمكن الخبراء من نقله أو رفعه لأنه منحوت في الصخر الحي ومتآكل. لكنه نقل في صندله أجزاء كثيرة منه منها ست تماثيل لرمسيس الثاني.

راقبنا البيوت العائمة تتناقص حتى تلاشت. وشعرت فجأة أن طنين المحرك الرتيب لا يحتمل. فسألت الميكانيكي عما إذا كنّا سنواصل السفر بالليل.

قال: لا طبعاً. السفر بالليل خطر.

قلت: وحنقف فين؟

قال: الريس هو اللّي يعرف. يمكن في وادي السبوع.

عدت أسأل: وامتى نوصل وادي السبوع؟

نهض واقفاً وهو يقول: أحسن تسأل الريس سرور. يعطيكم العافية يا رجالة.

تبعت الميكانيكي الى قاع الصندل بعد أن تصلبت ركبتاي من طول ثنيها أثناء الجلوس. اقتربت من حيث جلس البحاروة الثلاثة على الرمال بمنأى عن ضجة المحرك. وكنت عازفاً عن الحديث فدرت بأكوام الرمال والزلط حتى أصبحت في الناحية الأخرى. وتهالكت خلفهم على الرمال.

تناولت قطعتي زلط في يدي. كانت مكونات كل قطعة واضحة للرؤية على سطحها الأملس الذي تتدرج ألوانه وتتنوع. بين الرملي والرمادي والاسود والأحمر. وما لبثت سخونة الرمال تحتي أن أجبرتني على النهوض. فوقفت في أعياء شاعراً بأعين البحاروة الثلاثة على ظهري.

لمحت ذهني يشير اليّ فاتجهت نحوه. أمسك بساعدي عندما أصبحت بجواره وتلفت حوله هامساً:

- الرّيس سرور عاوز منّا فلوس.

قلت: بتاعت ايه؟

قال: أجرة أو أتاوة. لما وديتله الشاي سألني عنك وقال أنه خد مرة جنيه من واحد أفندي زيك.

- وقلتله ايه؟

ضحك وقال: إنك في مهمة سرّية. وأنا المساعد بتاعك. وعطيته صورة خطيرة عنك فسكت على طول.

كانت الساعة قد بلغت السادسة وبدأت أشعة الشمس تفقد جزءاً كبيراً من قوتها. واتسع مجرى النهر فجأة. ولم يعد بإمكاني أن أرى تفاصيل الشاطئين بوضوح. وما لبث المجرى أن ضاق وظهر أمامنا خط من الصخور الشرسة أعقبتها قرية طويلة امتلأت بالنخيل.

في السادسة والنصف عاد المجرى يتسع اتساعاً هائلاً. وأصبحنا نسير في شبه بحيرة. راقبت الشمس وهي تختفي خلف سحابةٍ داكنة صانعة زجزاجاً ذهبياً في طرفها الأول وضوءاً مكتوماً في الطرف الآخر. ثم تبدت لحظة من خلال فجوةٍ وسط السحابة ثم اختفت من جديد في ثناياها.

بدا الشاطيء الغربي مؤلفاً من مرتفعات صخرية صغيرة متناثرة كالكثبان أو الأثداء المتكررة. أما الشرقي فلم يبد منه لفترة طويلة غير مرتفع واحد. ثم ظهر كثيب عالٍ تلته أرض فضاء جاءت بعدها سلسلة من الهضاب الشبيهة بالشاطيء الغربي.

أوشكت الشمس على الظهور من طرف السحابة الأسفل. وما لبثت ان تجلّت قوساً متوهجاً كالبدر. وأخذت السحابة تتحلل أمام وهجها حتى تلاشت وتبدى قرص الشمس كاملا.

كان القرص في البداية أصفر اللون ثم ما لبث أن اكتسب لوناً برتقالياً وهو يهبط مقترباً من الهضاب الصخرية حتى التقى بها. واستقر القرص فوق قمم الهضاب لحظة كأنما سيتدحرج فوق خطها الممتد يسرة لكنه واصل الهبوط بسرعة. واختفى نصفه خلف تل من الصخور. ثم حجبه تماماً عن ناظرينا. لكن وجوده كان ملموساً فقد أحاط بهالةٍ من ضوئه.

تجاوزنا التل الذي أعقبته فسحة من الأرض فتجلى قرص الشمس من جديد.

ولكنه جعل يهبط في بطء خلف الأفق حتى لم تعد تبدو منه سوى حافته. ثم اختفى كليةً.

أصبحنا نسير في بحيرة هائلة الاتساع. ومر بنا عم مهدي ذاهباً الى المرحاض. سألته عن الساعة التي سيقف فيها الصندل بالليل فأجاب وهو يلوك شيئاً ما في فمه.

ـ علم الله.

بصق في النهر سائلاً أسود ثم رفع طرف جلبابه واختفى في المرحاض. وخرج بعد لحظات فدار حول القمرة وجلس القرفصاء على حافة الصندل وشرع يتوضأ.

استعد النوبيان للإقتداء به. بينما بقي جرجس ممدداً على سطح القمرة العاري مغطياً عينيه بمرفقه.

قفزت الى قاع الصندل ومضيت فاستلقيت فوق الرمال. كانت حرارة النهار قد أوشكت ان تتلاشى. وبعث في ملمس الرمال الدافىء شعوراً حسياً. وجاءتني أصوات البحارة الثلاثة من خلفي في حديث متقطع عن الزراعة. وفوقي امتدت صفحة السماء دانية شديدة الصفاء. وبدت ضجة المحرك نائية.

في السابعة والنصف تماماً بزغت النجمة الوحيدة. خيّل اليّ أنها كانت تتجه الى الغرب ثم توقفت. وفكرت بأن أقوم لأسأل أحداً عنها. فلا بدّ أن الريس يعرفها. ولعلّها تكون نجمة الشعرى اليانية التي كانت تظهر لقدماء المصريين مع حلول الفيضان. أو الدب القطبي الشهير الذي يسترشد به البحارة والتائهون. لكني لم أجد حماسة للقيام. وأحسست أن أية إجابة أحصل عليها لن تغيّر من الأمر شيئاً.

انفردت النجمة بالسماء طوال نصف ساعة الى جانب القمر الذي بزغ نصفاً. وفي الثامنة ظهرت مجموعة جديدة من النجوم الصغيرة المتناثرة. لكنها ظلت محتفظة بمسافة واضحة لا تتغير بينها وبين النجمة الكبيرة. واستمر وضع هذه ثابتاً نصف ساعة أخرى. ثم اختفت.

تناولت قطعتين متقاربتي الحجم من الزلط. تحسست سطحها الزجاجي الملمس وحوافها المستديرة الناعمة ثم ضربتها الواحدة بالأخرى متوقعاً أن ينبثق منها الشرر. لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

حبات الزلط التي استقرت امام المنزل تلتمع في ضوء القمر، وتلاشت الضجة التي كان يصنعها عمال البناء في المنزل المجاور طول النهار، وأصبح مبنى مدرسة اليهود المقابل كتلة من الظلام الصامت، والشارع يمتد صعوداً الى مجاهل ينطلق اليها في الصباح المبكر عمال مسرعون ما زال أثر النوم في عيونهم يحملون طعامهم في مناديل معقودة تحت أباطهم، يهبطون منها في المساء متثاقلي الخطى منهكين، يتبعهم جنود الانجليز نشطين مشمري الأكمام يسيرون في مجموعات كدأبهم، وتوارى عن الأنظار الكناس الوحيد الذي كان هنا بالنهار، وكان قش مكنسته لا يفتأ ينفصل عن يدها الخشبية فيقتعد الرصيف وينهمك في تثبيته بلفائف من الخرق وقد تدلّى ذيل طاقيته الصفراء على ظهره، والأرض لم تعد ترسل لهيباً لكنها ما تزال دافئة، وما زال يمكن تبين خطوط الطباشير التي صنعت مستطيلات متعاقبة تنتهي بنصف دائرة، الشاطر هو الذي كان ينقل بقدمه قطعة الطوب من مستطيل الى آخر دون أن يمس خطوط الطباشير، وأغلب الأولاد انصرفوا ولم يبـق إلا اثنين أو ثلاثة من أخلص الخلصاء استلقوا فوق الزلط والرمل أو لعلهم بلا أهل والأرجح أن قيظ اليوم قد ألان قلوب آبائهم الحجرية فسمحوا بالبقاء الى هذا الوقت في الشارع، ومن النافذة المظلمة المفتوحة التي لا تعلو عن الأرض إلا بضع أقدام تأتي همهمة بعيدة هادئة هي أصوات الأسرة في الصالة المضاءة التي يلتمع بلاطها النظيف ويفصلها باب عن دورة المياه مازال زجاجه سليماً. فالشرخ حدث بعد ذلك، ولأن النظام كان ما يزال يسود البيت فلا بد وأن ينطلق في أية لحظة الصوت الصارم من النافذة آمراً بالعودة، ولن تفلح معه أية توسلات، ولن يكون هناك مفر من الاستجابة والمضي الى الداخل في تثاقل للإغتسال ثم الإلتجاء الى طيّات الفراش الذي يستقر بين النافذة وباب الغرفة، مرتباً منسقاً يعلوه غطاء من الدانتيلا المتشابكة أثار الالتفاف به عارياً ذات مرة دغدغة غامضة، وكل ما يمكن عمله الآن هو التوسل الى الله في فسحة من الوقت حتى يمكن حك قطع الزلط الواحدة بالأخرى، فربما تولد عنها مرة ثانية ذلك الشرر الملون الرائع،

جاءني صوت ذهني يدعوني لتناول العشاء. فمضيت اليهم وألفيتهم قد تحلقوا في الظلام حول اناء من الألومنيوم. أفسح لي ذهني مكاناً بجواره. ودسّ جرجس في يدي قطعة من خبزه المتحجر.

خلع ذهني مصباحه من خصره وأضاءه مسلطاً شعاعه على الإناء. غمسنا أصابعنا فيه واحداً بعد الآخر. ثم شربنا الشاي وهبطنا الى قاع الصندل فاغتسلنا وتبولنا. وعندما عدت الى سطح القمرة ألفيت جرجس قد بسط بطانيته. فاستلقينا عليها ثلاثتنا بينما انتحى النوبيان جانباً.

أخذ ذهني يردد مقاطع غير كاملة من أغاني عبد الحليم حافظ. واعتمد جرجس على موقفه يدخن مجارياً ذهني في الغناء بين الحين والآخر دون حماسة.

انتهزت لحظة صمت فيها ذهني فطلبت من جرجس أن يحكي لنا عن قريته.

قال: لا. أحكيلكم حكاية.

قلت: يبقى أحسن.

انطلق جرجس يحكي إحدى حكايات الشاطر حسن. وأخذت أتنقل بعيني بين آلاف النقاط البيضاء اللامعة المتناثرة على صفحة السماء. وأتاني طنين المحرك رتيباً مملاً.

حاولت أن أتذكر من سمعت حكاية الشاطر حسن لأول مرة. لكنني عجزت وقررت في النهاية انها ربما كانت أمي. كان جرجس يصف الآن كيف وقف الشاطر حسن حائراً أمام الطرق الثلاثة. وكيف أعانته طيبة قلبه وقوة ايمانه على اختيار سكة السلامة. وكيف انتصر بعد ذلك على مكائد الغولة وزوجة أبيه.

هبت نسمة هواء خفيفة فأغلقت عينيّ مستسلماً لها. وبدأ النعاس يداعب جفوني وجرجس يصف كيف فاز الشاطر حسن ببنت السلطان. ولعلّي غفوت لحظة تنبهت بعدها على صوت جرجس يأتي نائياً عبر طنين المحرك. أدركت أن الشاطر حسن أصبح هو السلطان والناس تقيم الأفراح أربعين ليلة وليلة والأنوار تضيء مآذن المساجد. ومشى السلطان الجديد بين الناس يعاهدهم على أن يحكم بالعدل ويستشير رؤساءهم في كل أمر. لكن الرؤساء قالوا أن ما تجلّى من حكمته وأمانته وإيمانه يجعله في غير حاجة الى مشورتهم.

غفوت طويلا فيما يبدو. ولا أعرف اذا كنت تنبهت قليلا بعد ذلك أو أني كنت أحلم. لكن شيئاً مرعباً كان يحدث في قصة الشاطر حسن. فقد نصبت المشانق وسالت الدماء ولم يعد أحد يأمن على نفسه.

أردت أن أعرف كيف بدأ هذا كله. وأدركت أني لو بذلت مجهوداً لفعلت. فقد ذكر جرجس كل شيء في حكايته. لكنني كنت عاجزاً عن التذكر. وبدلاً من ذلك رأيتني أقف مع سعيد الذي كان يحمل حقيبتي. كنت أعرف انه يريد أن يفتشها من وراء ظهري. وجعلت أبحث عن قبعتي في منزل يجري نقل الأثاث اليه. فهمت أن صديقاً لي يتزوج. وتوافد بقية الأصدقاء وأنا ما زلت أبحث عن قبعتي. ورأيتني أقف في بهو أمام باب يصدر من خلفه طنين مزعج. كانت بجواري مائدة صفت عليها عدة قبعات متشابهة. واحترت في أيها تخصني.

أفقت على يد تهزني بالحاح. وسمعت فهمي يقول أننا وصلنا «أبريم».

وقفت على قدمي بصعوبةٍ شاعراً بنفسي كالثمل. كان المحرك ما زال يطن ورأيت الصندل يشق طريقه بين سفن شراعية كبيرة وصنادل أخرى. ثم كفّ المحرك عن الطنين. وظل الصندل يتقدم في بطء من الشاطيء الذي تجمع عنده عدة رجال يحملون مصابيح من الزيت وتناثرت خلفهم عدة خيام.

رسا الصّندل أخيراً الى الشاطىء. وعلت أصوات التحيات المتبادلة. سمعت أحد الواقفين على الشاطيء يسأل عن أحمد وعمّا إذا كان قد أحضر الأمانة معه. تلفت أبحث عنه فوجدته ما زال ممدداً في مكانه يتطلع الى السماء بعينين مفتوحتين.

طلب مني ذهني سيجارة فأعطيته واحدة وأشعلت لنفسي أخرى. وسمعت جرجس يقول فجأة:

- دي وادي السبوع مش أبريم.

قال فهمي الذي كان متربعاً بجواري يتفرج على الشاطيء: أبداً دي أبريم زي ما قلت.

لكن صوته كان خالياً من رنة الاقتناع.

قال جرجس بثقة: اسمع كلامي دي وادي السبوع. أنا اشتغلت هنا لما كانوا بينقلوا المعبد وعارف الشط ده حتة حتة. أبريم مفيهاش معابد. والمعبد اللّي كان هنا كان لازق في الجبل وجدامه صفين سبوعة.

لزم فهمي الصمت فقلت له مهوناً أن القرى النوبية متشابهة وكذلك المعابد.

قال جرجس: المعبد يظهر كان في يوم من الأيام كنيسة لأن الصليب كان في كل حته. وكان في رسم للأديس بطرس.

هبطت الى قاع الصندل لاتبول. وسمعت الميكانيكي يقول أنه سيعود بعد عشرة أيام.

أشعلت سيجارة عندما صعدت الى سطح القمرة. وجلست أدخن بين ذهني وجرجس.

قلت: باين علينا حنبيت هنا.

تطلع إليّ جرجس في دهشة وقال: طبعاً.

ألقيت بعقب السيجارة الى الماء. واستلقيت على البطانية. وسرعان ما رحت في

النوم. استيقظت في السادسة صباحاً على صوت المحرك. وشعرت بالصندل يستأنف سيره قبل أن أغفو من جديد.

استيقظت مرة أخرى بعد ساعة. وهبطت الى المرحاض لكن رائحة المكان وضيقه أصابتني بامساك. فغسلت أسناني. وتلفت حولي بحثاً عن مكان أضع فيه نظارتي لأغسل وجهي. وسمعت صوت جرجس يقول:

- إديهالي.

أعطيته النظارة وغسلت وجهي. وعندما تحولت اليه كان منهمكاً في تنظيفها بمنديل ثم قدمها الي فشكرته.

سألني اذا كنت أريد أن أشرب شاياً فقلت: طبعاً. ودي عاوزه كلام.

قال: يبقى أجيب وأبورم الميكانيكي.

ذهبنا معاً الى قمرة المحرك. ووجدنا صبيّ الميكانيكي منهمكاً في تنظيفها. سألته عن الميكانيكي فقال انه يشرب الشاي عند الريس سرور. أخذت منه الموقد فأصر جرجس أن يحمله عني. وجعلنا نبحث عن مكان في منجى عن تيارات الهواء. ولم نجد أفضل من الرمال فمهدنا له مكاناً وسطها بحيث أحاطت به من ثلاث جهات. وتولى جرجس إشعاله بينما أحضرت البراد والشاي والسكر.

سألني جرجس وهو يضع البراد على النار عمّا إذا كنت أعرف ذهني منذ وقت طويل. قلت إنّي تعرفت به على الصندل.

قال: أنا مش مستريحله.

قلت: قصدك ايه؟

قال: باين عليه من رجال المباحث السرية.

قلت: يا شيخ.

قال: طب مسافر كده ليه؟ وفين عفشه؟

قلت: أصحابه ضحكوا عليه.

سكت ثم قال بعد لحظة: انت لازم يكون معاك شخص أمين تعتمد عليه.

لم أفهم ما يعنيه فلم أعلق. انتهى الشاي فحمل جرجس البراد الى مجلسنا بينما حملت أنا الموقد الى قمرة الميكانيكي. وعندما عدت كان مجرى النهر ينحني الى اليمين انحناءة حادة. وظهرت على الشاطيء الغربي بقايا قرية «كورسكو» التي اكتشفت بها لوحات صخرية من نقش انسان العصر الحجري.

كانت منازل القرية بيضاء متلاصقة تعلو كل منها فوهة سوداء مستطيلة الشكل. ظلت الفوهات السوداء تحدق الينا في صمت حتى تجاوزنا القرية. وواصل المجرى اتجاهه يميناً.

أثاث غرفة الضيوف اختفى، ولم يعد بالمنزل كله غير فراش واحد وتملية خشبية وضعت في الصالة، تمرح الصراصير في جنباتها، ومن قبل كان هنا بوفيه خشبي تصف فوق رخامته في الصيف أطباق البالوظة تعلوها قطع الثلج لنأكلها عندما تغيب الشمس. ونجلس الى جوار النافذة نطل على مدرسة اليهود الساكنة وحديقة مدرسة الراهبات التي تتوسطها ساحة دائرية للباتيناج، وفي طرف الشارع يرش بائع الورد المياه فترقد الأتربة على الأرض وتأتي نسمات الهواء رطبة منعشة، واذا مرّ بائع التين الشوكي ناديناه، وكل هذا مضى الى غير رجعة، فلم يعد في المنزل غير العجوز الذي وقف بملابسه الداخلية منفرج الساقين، وانحنى ماداً يده ليحكم رباط حزام الفتاق، وتقلص وجهه من ألم الحزام الذي يدور بوسطه وبين فخذيه ضاغطاً على خصيتيه.

وصلنا «عمدة» بعد ساعة. وبدا معبدها بعد نقله الى أعلى وسط الجبال كوابور طحين صغير. لم يكن هناك أثر لمنزل واحد على هذه الناحية. ويبدو أن القرية كلها كانت تقع على الضفة الغربية. كانت أسطح بعض منازلها على شكل القارب. ورأيت منزلا أتخذ بابه شكل السهم المصوب الى السماء.

عدت أتأمل المعبد الذي كنّا نبتعد عنه في سرعة. وسرعان ما تلاشى خلف كتلة ضخمة من الصخور. كان للكتلة شكل غريب أقرب الى طفل عارٍ من أطفال «ميكل أنجلو» المتلئين جلس فوق الجبال كاشفاً عن أجزائه الحميمة. وتمثلت طفلا كبيراً يلعب ويبني بيوتاً ثم يزيحها بيده فتتهاوى.

اتجهت الى مقدمة الصندل. ومررت بالبحارة الثلاثة الذين رقدوا على الرمال بملابسهم الكاملة. كان أحدهم نصف مضطجع وقد شبك يديه خلف رأسه بينما تطلع الاثنان الآخران الى الأفق في صمت.

حييتهم ثم مضيت الى حيث احتمى الريس سرور من الشمس تحت قطعة من الخيش نصبت فوق عصى خشبية. ورحب بي العجوز طالباً منّي أن أجلس.

جلست على شبه وسادة صنعت من أكياس الخيش وأنا أسأله عن الاحوال.

رفع يده الى فمه وقبلها ظهراً لبطن قائلاً: نحمده. البحر وسع بعد السد ببركة ريسنا جمال. الريس ده والله نبي.

سألته عن موعد وصولنا الى «أبي سنبل» فأجاب: علم الله. إحنا في البحر ملك أيديه. فيه ملايكة شايلين البحر على سلاسل وفي أيديهم كل حاجة.

قدمت اليه سيجارة فقال ان المسافة من «عمدة» الى «أبي سنبل» لا تزيد عن عشر ساعات. سألته عن موعد العودة فابتسم في براءةٍ وقال:

- لما نخلص تفريغ.

ذكرت له ما سمعته أمس عن لسان الميكانيكي فأبدى دهشته. وسألني بعد قليل:

- إلا قولي. هو الأخ اللّي معاك اسمه ايه؟

قلت: ذهني.

سأل: هو قبطي؟

كدت أقول إني لا أعرف ثم تذكرت أن ذهني قال له اننا نعمل معاً فأجبت بالنفي.

انضم الينا جرجس حاملاً كوبين من الشاي لي وللريس سرور. وجلسنا ثلاثتنا نرتشف الشاي وندخن ونتأمل صخور الشاطئين في انتظار ظهور بقايا القرى.

كانت القرية التالية هي «الدر». وظهر لنا منها في البداية مجموعة من البيوت ناصعة البياض ثم مسجد لونت جدرانه وانتصبت الى جواره مئذنة بيضاء كبرج حمام. ثم رأينا بقايا معبد رمسيس الثاني التي تناثرت على الشاطيء بعد تقطيعه. والى الداخل قليلاً استقرت رافعة هوائية في حضن الجبل. وظهرت كلابتها الحديدية عالية في الهواء تتدلى منها قطعة مربعة من الصخور حزمت بالحبال. كانت الكلابة تقترب من مكان مرتفع على سطح الجبل توجهها صيحات نفر قليل من الرجال تجمعوا على الشاطيء.

لا يعرف على وجه التحديد متى سيطرت على ذهن رمسيس الثاني فكرة الألوهية. وربما كان ذلك في العام الرابع والثلاثين من حكمه عندما أوشك معبد «أبي سنبل» الكبير على التمام. واتبع رمسيس في التبشير بعبادته أسلوب تصويره بين الآلهة أولاً كواحد منها ثم عمد الى انتحال أشخاص بعضها. ومن مناظره الطريفة كذلك أن يصور بناسوته في حضرة شخصه الآلي يتعبد اليه أو يتلقى منه البركات.

ومهما يكن من شيء فإن معبد «الدر» كان قمة ما وصلت اليه عبادته من التطور والاكتمال. فقد عبد في هذا المعبد على صورة «رع» نفسه كأنما اتحد معه فأصبحا الهاً واحداً أو أنه يمثله على الأرض.

وهو المعبد الذي انفرد بين معابد النوبة بأن اقتصرت القاعة الثانية فيه على منظرين متقابلين للزورق المقدس وللملك الاله دون ان يظهر زورق الاله «رع» ذاته أي أن زورق رمسيس قد تكرر حيث كان ينبغي ان يصور زورق الاله.

ومن أبرز الصور وأهمها في هذا المعبد تعبيراً عن ألوهية رمسيس واتحاده في شخص رع صورة تعبر عن اسمه (أوسر ماعت رع) مثل فيها الملك من وراء زورق الاله قائماً فوق رأسه قرص الشمس «رع» وفي يمناه صولجان يعبر عن لفظ «أوسر» وفي يسراه ريشة تعبر عن لفظ «ماعت» وكان اسم الملك هذا يكتب كثيراً بهذا الشكل حيث يصور الصولجان والريشة في يدي «رع» في هيئة انسان له رأس الصقر المتوج بقرص الشمس. وبذلك حل شخص رمسيس محل «رع» الذي يكون الجزء الثالث من إسم الملك.

وفضلاً عن ذلك ورد في نصوص المعبد أن الاله «رع حراختي» إنما يعبد ضيفاً فيه. بمعنى أن المعبد انما قصد به عبادة شخص رمسيس مع تسميته باسم بيت «رع».

كذلك صور رمسيس وهو في الطريق الى أبيه «رع».

وبذلك فقد كان «رع» هو الأب ورمسيس هو الابن وهما اله واحد.

كان مجرى النهر يتسع ويضيق بصفة مستمرة. وكانت انحناءاته المتكررة توحي الينا دائماً بأننا نجتاز بحيرة مغلقة. فإذا ما تطلعنا الى الأمام أو الخلف بدت الجبال الممتدة على الشاطئين كأنما تلتقي في خط واحد.

قال لي جرجس فجأة ونحن نتمشى على ظهر الصندل:

- ايه رأيك تأخذني معاك مصر؟

قلت: تعال.

قال: كلام جد؟

قلت: جد. إنما حتسيب شغلك إزاي في أبو سنبل؟

هز كتفيه في غير مبالاة: أنا باشتغل غفير بتلاتاشر جنيه. دول يكفوا بأيه. أنا عندي أربع عيال.

قلت: وفاكر الحال في مصر حيكون أحسن؟

قال: على الأقل أكون معاك. أمشي معاك مطرح متروح.

أردت أن أضحك لكني لم أفعل. تذكرت ما كنت أتجاهله دائماً وهو أن أول

شيء سيتعين عليّ عمله عند عودتي الى القاهرة هو البحث عن عمل. لكن كيف أقول ذلك لجرجس؟

قلت: بس لازم تعرف إني لي طريقة يمكن ما تريحش. يعني زي ما تقول كده رزقي من يوم ليوم. مبشتغلش ثابت في أي حتة. أزهق بسرعة.

قال بحماسة: أنا كمان أحب يكون رزقي من يوم ليوم.

قلت: انت عندك أولاد مسؤول عنهم وأنا مش مسؤول عن حد.

قال: يا سيدي لهم ربهم. انت محتاج لحد أمين زي ما قلتلك الصبح يشوف راحتك. يوضبلك حاجتك. يكون يعني مساعد لك.

قلت: طب وعاز تيجي معايا إمتى؟

قال على الفور: انزل معاك وانت مروح مصر.

قلت: لا أنا أقولك. اديني مهلة أتدبر فيها. أنزل أنا الاول أشوف الجو وبعدين أبعتلك.

تطلع اليّ في استياء طفل صغير.

مضيت قائلاً: عشان تيجي على رواقة. أكون شفتلك شغلانةكده ولا كده تشيلك شوية في الأول لغاية منشوف نعمل ايه بعد كده.

تفحصني بعينيه كأنما يسبر غوري. ثم لانت ملامح وجهه وأخرج مفكرة صغيرة بالية من جيبه وفتح إحدى صفحاتها مقدماً إياها لي:

- اكتب لي اسمك وعنوانك.

استندت الى حافة الصندل وكتبت له اسمي وعنوان أحد أصدقائي.

قال: أنا اسمي جرجس مدبولي. والعنوان أبو سنبل وبس.

قلت: حاجة سهلة.

قال: لازم تكتبه.

أخرجت مفكرتي وسجلت اسمه وعنوانه. تحولت أستأنف المشي فأمسك بذراعي ورأيته يضع يده الأخرى في صدر جلبابه ويخرج شيئاً أطبق راحته عليه.

تطلعت الى يده المقبضة. وبسط هو أصابعه فطالعتني صورة ملونة في حجم راحة اليد. لم أتمكن من تبين تفاصيل الصورة لأنه أغلق يده بسرعة وأعاد الصورة الى مكانها في صدره قائلاً:

- اذا نسيتني افتكر الحاجة.

وأدركت أن الصورة للعذراء.

لحظت أننا نمر بقرية جديدة. ورأيت على الشاطيء الغربي بضعة بيوت ملونة الواجهة. سألت جرجس عن القرية فقال انها ربما كانت «توماس».

عدنا الى مكاننا فوق القمرة. وألفينا ذهني منهمكاً في إعداد طعام الغداء. تمددت على السطح الساخن. وبدا لي صوت المحرك أعلى من ذي قبل.

انتهى ذهني من اعداد الطعام. واستقر الإناء بيننا. وكنا في هذه اللحظة نقترب من قرية «ابريم».

أسفل الصخر على الشاطيء نحتت خمسة هياكل فرعونية منها واحد لرمسيس الثاني. أما القلعة القائمة الى الآن فتعود الى العصر الروماني. وقد أقام بها النوبيون حامية حتى أجلاهم عنها القائد الروماني «بترونيوس» بعد أن هزمهم في الدكة.

وفي القرن السادس عشر أقام الأتراك في «أبريم» حامية من الجنود وبنوا المدينة التي نجد الآن بقاياها حتى أجلاهم عنها في أوائل القرن التاسع عشر المماليك الذين جاءوا الى هذه المنطقة فراراً من إرهاب محمد علي.

وفي جنوب المدينة تقع الكنيسة التي لا تزال رغم تحويلها الى مسجد على يد المماليك تحتفظ بكثير من عناصرها المعمارية. وبداخل الكنيسة يوجد سرداب يؤدي الى كنيسة أخرى. ويبدو ان الكنيسة الاولى تعود الى عهد المسيحيين الأوائل عندما كانوا يتعرضون للإضطهاد وقد بنوا الكنيسة الداخلية لتكون بمثابة مخبأ. ومما يؤدي ذلك أن «ابريم» تضم آثار مدينة كاملة من العهد المسيحي مؤلفة من أبراج وشوارع مقببة بها منافذ للضوء.

في الساعة الخامسة أبطأ الصندل من سرعته واقترب من الشاطيء الشرقي. نهضت واقفاً فوق سطح القمرة فرأيتنا نزحف الى جوار مجموعة من قمم النخيل برزت فوق سطح الماء.

كان ثمة جرس في الصندل يدق محذراً. وتحول الصندل يمنة ثم يسرة شاقاً طريقه في حذر وبطء بين قمم النخيل. وعلى الناحيتين وقف عم سرور والميكانيكي ومساعداهما حاملين المناشير. وجعلوا يهوون بها على جريد النخيل يفصلونه عن جذوعه ثم يلقون به وبما يحمل من بلح في قاع الصندل.

هبطت من مكاني واقتربت منهم. وقال لي الريس سرور:

- بلح ضاني. أحسن م الابريمي.

كان هناك كوم من البلح الداكن في لون البن المحروق عند قدميه. تناولت

واحدة فإذا بها ناضجة تماماً. وانفصلت قشرتها بين أصابعي بسهولة.

لحت ذهني يخلع ملابسه حتى صار في لباسه الداخلي ثم قفز الى الماء. وصاح به سرور محذراً أن يقترب من ريش السكان وإلا مزقه أرباً.

غطس ذهني بين النخيل واختفى لحظة عن الأنظار ثم ظهر حاملاً حفنة من البلح الأحمر. كرر هذه العملية عدة مرات. ثم صعد الى الصندل بعد أن استحم.

شرع الصندل يتحرك مبتعداً عن أشجار النخيل. وتعلقت جريدتان من جريد النخيل بحافة الصندل ثم مالتا عليها. وازداد ميلها مع حركة الصندل كما لو كانتا تتشبّثان به. جذبها الصندل معه فامتدت كل منها الى أقصاها وتوترت. وظهرت عليها ثلاث درجات من اللّون تبدأ بالأخضر الذي ما يلبث ان تشوبه صفرة جافة تتحول الى لون الطين أسفل ذلك.

انتظرت أن تنفصل الجريدتان عن النخلة وتسقطان في قاع الصندل. لكن الذي حدث كان هو العكس. فقد تخلص منها الصندل وسقطتا في الماء.

جلسنا فوق القمرة نأكل البلح الأحمر الذي غسله جرجس. كان فهمي قد أحضر بعضاً من البلح الأسود الذي جمعه سرور ومساعده. وأقبل عليه قائلاً أنه أحسن أنواع البلح. ورفض أحمد أن يمس شيئاً منه.

قال ذهني وهو يقذف بنوى البلح الى الماء: تعرفوا وأنا بجيب البلح اتهيألي أني حاقع من فوق النخلة.

ضحكنا أنا وجرجس. ولم يبد على أحمد أنه سمع شيئاً. أما فهمي فقد ظهرت على شفتيه بداية ابتسامة مؤدبة.

اقتربنا من مجموعة أخرى من أشجار النخيل. وتكررت حملة البلح سوى أن ذهني لم ينزل الماء هذه المرة. وبقي الى جواري على حافة الصندل.

استأنف الصندل مسيرته. ومررنا «بتوشكة» التي دارت فيها المعركة الفاصلة بين ثوار السودان والجيش الانجليزي عام ١٨٨٩.

أعطيت ذهني سيجارة وأشعلت واحدة. وتابعت الشمس تغرب حتى اختفت وبزغ القمر في الشرق. بحثت عن النجمة الوحيدة دون جدوى ثم رأيتها فجأة أمامي واهنة صغيرة.

شرع المجرى يضيق. ومررنا ببقايا قرية كانت تضم فيما يبدو بيوتاً كثيرة ومدرسة.

تحول اليّ ذهني فجأة وسألني عمّا اذا كنت دخلت السجن.

فوجئت بالسؤال وأجبت بالإيجاب.

قال: أنا برضه حزرت. امتى؟

ذكرت له التاريخ.

قال: أنا كمان كنت معتقل.

قلت: وبتشتغل برضه موظف في شركة؟

قال في خجل: إنت صدقت؟ أبداً. من يوم ما خرجت من المعتقل وأنا بدور على شغل من غير فايدة.

- وقبل المعتقل؟

- اشتغلت سواق. واشتغلت كاتب عند تاجر جملة. اضطريت أسيب المدرسة لما أبويا مات عشان أصرف على أمي وخواتي.

- وكنت عايش فين؟ في القاهرة؟

- أيوه. في العباسية.

- فين في العباسية؟

- قريب من ميدان عبده باشا. جنب مدرسة ابتدائي قديمة.

الرصيف المرصع بالحصى الملون، والسور المؤلف من ألواح عالية من الصفيح طليت باللون الأسود، وبائع البطاطا المشوية عند الباب الخلفي، وحنفي الذي نبت شاربه وأودع يده في جيب بنطلونه، وعبد السلام أفندي رابضٌ خلف مكتبه المرتفع يقرض القشور الجلدية التي تكونت فوق يديه السمينتين وغطتها آثار الطباشير، ويشير بعصاته الى الالتواءات والجنادل على خارطة النيل، وعندما نتعثر أو نختلف عن إحضار كوبونات الكيروسين ينهال بها على أيدينا التي نبسطها أمامه ظهراً لبطن،

سألته: صحيح ناوي تعدي الحدود؟

أجاب: طبعاً.

قلت: ليه؟

قال: ليه؟ بقى مانتش فاهم إني هربان.

- من ايه؟

- فيه أمر باعتقالي.

- عملت ايه؟

- ولا حاجة. كنت أقدر أعمل ايه يعني إذا كان الكل بياخدوا أرباح ومبسوطين وبيقولوا آمين وأنا مش لاقي شغل.
- يمكن اتكلمت.

لاح نور مرتعش في الأفق. وسمعت جرجس يصيح: والله وصلنا يا رجاله.
قال ذهني بهدوء: ما تيجي معايا.
قلت: السودان؟
قال: السودان دي مرحلة. المهم نعدي الحدود.
قلت: نسافر إزاي من غير لا فلوس ولا حاجة خالص.
قال: بسيطة. نتصرف. نتضيف ع الناس لغاية الخرطوم. الناس هنا لسه كرما. حاعمل شنط صفيح نقدر نعبىء فيها الميه ونبيعها. لغاية الخرطوم مش محتاجين مليم واحد. وبعد كده نقدر نروح أي حته. الكنغو مثلا.
قلت: ونعمل ايه في الكنغو؟
- نحارب.

تطلعت اليه لحظة ثم هززت رأسي: لا يا عم. أنا حاربت كفاية.
- وعاوز تستريح؟
- استنى للسنة الجاية. يمكن آجي معك.
قال: ما هو دلوقت يا بلاش.
قلت: مقدرش. فيه شوية حاجات عاوز أفكر فيها على مهلي وشوية حاجات عاوز أشوفها. ثم ما تنساش النسوان. أنا عشت كتير من غير نسوان ومقدرش أفضل كده على طول.
قال: تعال معايا وفكر زي ما أنت عاوز في السكة. أما النسوان فحتقابلنا في كل حتة.
وضعت يدي على ذراعه: اسمع. انت حتعمل ايه دلوقت؟
قال: مش عارف. تقدر تأخذني معاك في الاستراحة؟ عاوز أبات الليلة والصبح أشوف سكة الحدود وبعدين أقوم بالليل.
قلت: ما ظنش أقدر آخذك معايا. أنا نفسي مش ضامن ياخدوني.
قال: ايه رأيك في جرجس؟
قلت: ماله. كويس.
قال: أنا قلبي مش مستريحله. أصله نضيف قوي. وعنده قميص وبنطلون.
قلت: ما تبقاش عبيط.

قال: بافكر أبات عنده في الخيمة اللي بينام فيها.

قلت: فكرة كويسة. وبعدين بكره أشوفك بالليل عند جرجس ونبقى نكمل كلامنا. تعال دلوقت أعطيك علبة الجبنة اللّي معايا وشوية شاي وسكر.

أعطيت ذهني كل ما تبقى لديّ من الطعام وأنا أشعر بنظرات جرجس غير راضية. وجلسنا ندخن ونحن نتأمل أنوار الشاطىء تزداد وضوحاً.

توقفت ضجة المحرك أخيراً فشعرت بالصداع. واقترب الصندل في بطء من الشاطيء فقمت متثاقلاً لأحمل حقيبتي. وقال انه لا بد أن يراني في الغد فوعدته بأن أمر على خيمته في المساء.

وقفنا ننتظر حتى انتهيت عملية الارساء. وامتدت عارضة الى الشاطيء الرملي الذي تجمع عنده نفر من الرجال.

أشار جرجس الى فجوة هائلة في الجبل على مبعدة قرابة مائة خطوة بها أنوار قوية. وقال: المعبد هناك.

انتقلنا الى الشاطيء ومشينا بضع خطوات في شبه ظلام. بلغنا بداية طريق ينتجه يمنة. وتوقفنا تحت أسفل مصباح كهربائي يعلو عموداً خشبياً.

وضع جرجس حقيبته وسلته على الأرض قائلاً انه سيذهب لإحضار سيارة. وانطلق ذهني برفقته فوضعت حقيبتي على الارض وجلست فوقها.

سمعت خلفي وقع أقدام ورأيت البحاروة الثلاثة يجدون السير حاملين أقفاصهم وسلالهم. مروا من أمامي فحيوني ثم انطلقوا صعدا في الطريق المؤدي الى الداخل. ذكرت أني لم ألمح كلا من فهمي وأحمد منذ رسا الصندل.

تابعت البحاروة الثلاثة حتى اختفوا عن ناظري خلف منحنى في نهاية الطريق. وأوشكت أن أتحول ببصري عندما ظهر عند المنحنى شخصان آخران يسيران على مهل. وعندما اقتربا منّي بعض الشيء تبينت في أحدهما ضابط بوليس شاب. وكان الثاني في الملابس المدنية.

كانا يسيران على الجانب الآخر من الطريق وقد انهمكا في الحديث. وعندما صارا أمامي ألقى ضابط الشرطة بنظره نحوي. ثم توقف عن المسير وانقطع حبل الحديث بينهما. وما لبث أن استدار ومن خلفه رفيقه. وانطلقنا متمهلين في الطريق الذي جاءا منه. واتصل حبل الحديث بينهما مرة أخرى.

أشعلت سيجارة أخذت منها نفسين. وكان طعم الدخان مراً فألقيت بها جانباً.

أقبلت بعد لحظات شاحنة مسرعة من الطريق المنحدر. ولمحت ذهني معتلياً ظهرها. فوقفت حاملاً حقيبتي. وعندما توقفت الشاحنة أمامي رأيت جرجس الى جوار السائق. وأشار لي أن أصعد بجواره.

درت حول الشاحنة وصعدت الى جوار جرجس. انطلقت بضع خطوات ثم دارت عائدة من حيث جاءت. وصعدت الطريق في بطء وجهد. وما لبث الطريق أن استقام فانطلقت مسرعة.

كان الظلام يغطّي هذا الجزء من الطريق. ولم أستطع أن أتبين شيئاً من حولي سوى هياكل الجبال التي امتدت على مرمى البصر. وظهرت بضعة أنوار خافتة على مبعدة.

أخذ الطريق في الصعود مرة أخرى. وأقبلنا على شبه هضبة استقر في طرفها مبنى مضاء أشبه بشاليه خشبي. وقال جرجس أننا وصلنا.

توقفت السيارة بالقرب من الشاليه. ورأيت شخصاً في قميص وبنطلون واقفاً في مدخله الذي يعلو عن الأرض بضع درجات. حملت حقيبتي وغادرت الشاحنة وأنا أقول لجرجس:

ـ حافوت عليك بكرة بالليل.

ابتعدت عن الشاحنة وانتظرت حتى استأنفت سيرها وانطلقت بسرعة مثيرة عاصفة من الغبار. ولوحت بيدي لذهني الذي انفرد بظهرها ووقف منفرج الساقين وقد مال بجسمه الى الأمام واعتمد بساعديه على ظهر قمرة السائق.

تابعته ببصري حتى اختفى.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

(٢)

رحّب بي الشاب الذي كان يقف أمام باب الاستراحة عندما قلت له أني صحفي. وقادني الى صالة صغيرة بها أريكة ومائدة أحاطت بها مقاعد بعد أن عرفني بأنه مهندس بناء ويدعى رفعت. جلست على مقعد واضعاً حقيبتي على الأرض بينما بقي هو واقفاً.

شعرت انه حائر لا يدري ماذا يفعل بي. وأدركت أنه على الأقل لن يسألني عما يثبت مهنتي.

قلت إني كنت مضطراً للسفر بسرعة ولم يكن لدي وقت لاخطارهم بقدومي. لكن موظفي الشركة في اسوان أكدوا لي أن هناك مكاناً يمكنني الاقامة فيه يوماً أو يومين.

أسرع رفعت يقول وهو يستقر أمامي على الأريكة: طبعاً. طبعاً. على الرحب والسعة.

سألته إن كان يعرف مهندس آثار يدعى خليل فقال:

- أجل أعرفه.

ولحظت أنه وجم بعض الشيء.

أسرعت أقول: أنا شخصياً لا أعرفه لكنني أحمل له خطاباً من صديق له.

لم يعقب بشيء وتحول الى شاب بدين ولج الصالة فقدمنا الى بعض. ودب

النشاط في الشاب البدين الذي يدعى حلمي عندما علم بأني صحفي وقال وهو يجلس بجوار رفعت:

- أنا لديّ شكوى من الصحافة.

قلت: ما هي؟

قال: انتم لا تحترمون الانسان الذي يعمل في شرف وصمت.

أراد رفعت أن يخفف من وقع كلماته فقال: بعض الصحفيين وليس كلهم.

قلت: ممكن.

قال حلمي: هل قرأت سيادتك الموضوع الذي نشرته المجلة المصورة عن أبي سنبل؟

قلت: لا أذكر. أظن قرأته.

هزّ أصبعه في وجهي: هل هذه هي أبو سنبل؟

سألت: ماذا كان في المقال؟

قال رفعت: صحفي مخنث أمضى هنا بضعة أيام وأكرمناه للآخر. وظلّ طوال الوقت يطارد بنتاً المانية ويصورها بالبكيني على الجبل وفي البحر. وعندما عاد كتب أن المهندسين المصريين هنا لا شاغل لهم غير هذه البنت.

قلت: ولم يكتب عن احد منكم أو عن الدور البطولي الذي تقومون به في صيانة تاريخنا؟

قال: ولا كلمة.

قلت: ليس له حق. لكن ليس معنى هذا أن كل الصحفيين على شاكلته.

تراجع حلمي قائلاً: طبعاً لا. انما حادثة كهذه تجعلنا نفقد ثقتنا في الصحافة كلها.

كنت منهمكاً أشعر برائحتي لا تطاق وأتوق الى حمام وفراش آدمي.

قلت: لقد جئت لأعطي الصورة الحقيقية عن العاملين في هذا المكان النائي.

لم يعقب أحدهما فسألت: بالمناسبة. أي مرحلة بلغها العمل في المعبد؟

قال رفعت: المعبدان انتهى فصلهما من الجبل تقريباً. وبدأوا يقطعون أجزاء منهما.

سألت: هل قطعوا الواجهة؟

أجاب: لا. ما زالت كما هي. لقد بدأوا يقطعون من الخلف.

قلت: لقد أردت أن أرى الواجهة قبل قطعها.

قال: ستراها غداً.

سألت: ومتى سينتهي نقل المعبدين؟

قال: بعد ست سنوات.

أبديت دهشتي فقال: العمل هنا لا يقل أهمية عن السد العالي نفسه. بل اننا أقمنا سداً كاملاً أمام المعبدين ليحميها من ارتفاع المياه. وكل العمليات الموجودة في السد موجودة عندنا. حفر وتفجير ونقل وردم وحقن.

قلت: وتنويان البقاء طول هذه المدة؟

بدا على رفعت التفكير بينما قال حلمي: الواجب يحتم علينا البقاء رغم الغربة. ورغم أننا لا نستفيد مادياً.

ألقيت نظرة على ساعتي فوجدتها بلغت العاشرة.

قلت أنني متشوق لحديثهما لكنّي متعب وأريد أن أحلق ذقني واستحم. قام رفعت على الفور معتذراً بأنه لم يلتفت الى ذلك. حملت حقيبتي وتبعته الى ممر صغير به عدة أبواب مغلقة على الجانبين. وفتح أول باب وأضاء النور فرأيت أمامي حجرة ذات فراشين جديدين يفصل بينهما جهاز تكييف.

قال: هذه غرفة الضيوف. أما أنا وحلمي فننام في آخر الممر وبجوارنا مباشرة الحمام.

أخرجت أدوات الحلاقة وملابس داخلية نظيفة وأسرعت الى الحمام. وجدت صعوبة في استخدام الصابون لما تجمد على جسدي من عرق. وعندما عدت الى الحجرة شعرت بأني جائع. وفكرت بأنه بما أنّي قادم لإعطاء الصورة الحقيقية عن العاملين هنا فلا شك أني أستحق عشاء على الأقل.

ارتديت بيجامتي وخرجت الى الردهة فألفيتها خالية. لمحت رفعت في المطبخ المتفرع منها. ابتدرني قائلاً انه يعد لي عشاء ثم أضاف:

- العشاء بسيط لأننا لم نكن مستعدين.

جلست الى المائدة في الصالة. وأتيت على الطعام الذي تألف من الجبن الرومي ومحشي ورق العنب. وعندما أويت الى حجرتي ألفيت رفعت قد ترك لي علبة فواكه محفوظة وطبقاً وشوكة.

كانت العلبة مثلجة فأكلت محتوياتها بعد أن أدرت جهاز التكييف. ثم أشعلت سيجارة واضطجعت على الفراش مستنداً برأسي الى الحائط المجاور له. دخنت حتى انتهت السيجارة فأغلقت النور واندسست بين طيات الفراش.

كانت الأغطية نظيفة ناعمة والمرتبة وثيرة. تمرغت بينها عدة مرات وأنا استنشق هواء الغرفة البارد ثم غفوت.

حلمت أني مع أبي الذي أعرف أنه مات. كان يتطلع الى صورة تمثله شاباً ممتلئاً في ملابس عسكرية تتألف من سروال أبيض منتفخ الجانبين وسترة صفراء. وكان يحمل بندقية الى كتفه. ووقف الى جواره ضابط انجليزي. فهمت أن الصورة التقطت في السودان. ويحكي أبي شيئاً عن الصورة ولكني متأكد بشكل ما أنه لا يقول الحقيقة. انه يتحدث عن كيتشنر. لكني لا أريد أن أوجه اليه أي سؤال فما جدوى أن أخدش ذكرى هي كل ما يحمل معه. لكني أفهم الآن حقيقة هذه الأشياء التي تروى. تبدت لي الصورة مثبتة في مصراع دولاب كبير من المعدن يتألف من ثلاثة مصاريع. وكانت هناك رسوم عدة محفورة على المصراعين الآخرين صنعها الضباط المصريون والانجليز الذين عملوا في السودان. ثم يظهر الدولاب محمولاً على عربة كارو. وأفكر بأنه لا بدّ وأن أحصل على أحد المصاريع الثلاثة وبالذات الذي يحمل صورة أبي فأنا أحق به من عمتي التي أخذتها جميعاً.

استيقظت في السابعة صباحاً. وألفيت حلمي جالساً الى المائدة في انتظار الإفطار: جلست الى جواره وانضم الينا رفعت بعد قليل.

سألني رفعت عما أريد أن أفعله اليوم. قلت أني أريد أن أرى المعبدين ولهذا يجب أن أعثر على خليل.

قال: لا بد أن تقابل رئيسنا أولا. تعال معنا الى المكاتب. وهناك ستلتقي بخليل لأنه يمر علينا صباح كل يوم.

أفطرنا وشربنا الشاي ثم رافقتها الى مكتبها. كان في شاليه خشبي مماثل للإستراحة. وخلفه كانت تمتد مساحة شاسعة من الأرض الصخرية وفي نهايتها المساكن المخصصة للأجانب. رأيت مجموعة من الخيام على مسافة خلف الاستراحة قدرت أنها تلك المخصصة للعمال.

أخذني رفعت الى غرفة واسعة بها عدة مكاتب جلس الى أكبرها شخص أصلع يضع على عينيه نظارة طبية ذات عدستين سوداوين. وقدمني اليه على أنه رئيسهم. فمد هذا يده اليّ وهو جالس دون ان ينطق بشيء.

استأذن رفعت في الإنصراف فجلست فوق مقعد بجوار مكتب الرئيس. وانتظرت أن يتحدث اليّ لكنه انهمك في قراءة إحدى الأوراق. ولم يرفع عينيه عنها

الا مرة واحدة رد فيها على سؤال لأحد الموظفين بوقار شديد وحسم.

مرت بضع دقائق. وما لبث الرئيس ان مد يده ودق جرساً مثبتاً الى الحائط القريب. وطلب من الفراش أن يحضر لي قهوة. جاءت القهوة فارتشفتها في صمت وأنا أتطلع اليه منتظراً فرصة للحديث. ورأيته يبسط أمامي جدولاً كبيراً من الورق المقوى يحمل في أعلاه ما يشير الى أنه تقرير يومي عن العمل فقلت:

- لم أكن أتصور أن لديكم تقريراً يومياً عن العمل مثل السد تماماً.

ابتسم الرئيس في شيء من الزهو وتشاغل بقراءة بيانات الجدول.

قلت بعد لحظة أن رفعت وفهمي حدثاني بالأمس عن الأثر السيء الذي تركه موضوع المجلة المصورة. فقال على الفور:

- كلنا غضبنا من الصورة التي قدمتها المجلة عن المهندسين المصريين.

ثم أضاف: تعرف أن رختنا عندما ذهبت الى القاهرة رفضت أن تقابله؟

سألت: من هي رختنا؟

قال: الألمانية التي نشر صورها.

ولج الغرفة شاب هادىء على شيء من الوسامة تطلع حوله ثم اتجه اليّ. وقال انه سمع من رفعت أني أبحث عنه.

أعطيته الخطاب فجلس على المقعد المقابل بعد ان وجه التحية للرئيس. قرأ الخطاب على مهل ثم وضعه في جيبه ونهض واقفاً وهو يقول: هيا بنا.

نهضت بسرعة وودعت الرئيس الاصلع ثم انطلقت خلف خليل.

قال عندما أصبحنا في الطريق: طبعاً تريد ان ترى المعبدين الآن؟

قلت: طبعاً.

انطلقنا في الطريق الذي صعدته بالشاحنة أمس. وقال خليل:

- لن يفوتك الكثير من المعبد الكبير. فنحن لم نمس الواجهة بعد. كل ما فعلناه أننا فصلنا المعبد تماماً عن الجبل الذي شيّد فيه. وبدأنا نقطع أجزاء من سطحه.

وقفنا نتطلع حولنا بحثاً عن سيارة. وسألني:

- قل لي. ماذا تعرف عن رمسيس الثاني؟

قلت: ليس كثيراً. ما زلت أذكر من أيام المدرسة أنه خاض معركة كبيرة في آسيا وانتصر فيها على الحثيين.

قال: بالعكس لقد هزموه شر هزيمة لكنه زعم عند عودته أنه انتصر عليهم.

قلت: أذكر ايضاً أنه عاش كثيراً.

قال: ٩٢ عاماً.

قلت: وكان زير نساء.

قال: ٢٣ زوجة و١٧٨ من الأولاد والبنات.

قلت: وأنه بنى أبي سنبل وسلسلة كبيرة من المعابد على طول النيل.

قال: واغتصب كثيراً من المعابد التي بناها أسلافه. بل أزال اسم أبيه من أحد المعابد ووضع اسمه مكانه.

سألت: أوديب؟

أجاب: ربما. لكنه أزال أيضاً كل أثر لشقيقه الأكبر عندما تولى ونقش في أبيدوس انه اكبر أبناء أبيه.

قلت: انه اذن فرعون الأكاذيب.

أوقفنا سيارة جيب حملتنا الى الشاطيء. ومضينا على أقدامنا بين رمال السد الصغير الذي أقيم لحماية العمل من مياه السد العالي. أشرفنا بعد خطوات على الجانب الأيمن للجبل الذي حفر فيه المعبد. وتبدت الفجوة الضخمة التي لحتها بالأمس وقد تناثر في انحاء متفرقة منها عدد من الرجال والروافع وحفارتان.

أصبحنا أخيراً أمام المعبد. مشينا قرابة العشرين متراً بين الرمال أسفل سيقان تمثالين ضخمين ثم توقفنا أمام الرحبة المؤدية الى مدخل المعبد. ورفعت رأسي الى أعلى.

كان هناك مستطيل محفور في جدار الواجهة على ارتفاع أكثر من ثلاثين متراً فوقي مباشرة. واستقر في المستطيل تمثال بالحجم العادي لإنسان له وجه صقر وعلى رأسه قرص الشمس الشهير.

أوضح لي خليل ان التمثال للآله «رع حور أختي» رب المشرق الذي شيد المعبد له في الأصل قبل أن تسيطر فكرة الألوهية على رمسيس.

حولت بصري الى التمثالين الهائلين اللذين استقرا على يميني. كان ارتفاع الواحد منها لا يقل عن عشرين متراً. وتناثرت بين أقدامها مجموعة من التماثيل الصغيرة أقربها لامرأة مستديرة الوجه غليظة الشفتين في ثوب شفاف. وكان هناك تناسق واضح في الصورة التي استقرت بها أطراف شعرها فوق قمة ثدييها.

قال لي خليل ان المرأة هي نفرتاري أقرب زوجات رمسيس اليه والتي بنى لها المعبد الصغير. أما بقية التاثيل المتناثرة بين الأقدام فكانت لأمه وأولاده.

عدت ببصري الى رمسيس الذي جلس في حجمه الهائل واضعاً يديه فوق ركبتيه. تراجعت بضع خطوات وصعدت ببصري فوق الساق الضخمة حتى الإطار البيضاوي الذي زين الساعد أسفل الكتف. كانت هناك مجموعة من الرموز محفورة داخله قال خليل انها تؤلف اسم الملك.

استقرت عيناي على الوجه الذي تدلت من ذقنه لحية منتظمة الاضلاع وبرزت من جبهته أفعى منتفخة العنق متحفزة وعلا رأسه التاج.

كنت أرى الوجه من مكاني بزاوية جانبية. وعبر هالة الشعر المستعار التي احاطت به وتدلت على جانبي صدره استطعت ان أتبين سمات الهدوء والإطمئنان التي رانت عليه والابتسامة الخفيفة التي امتدت من العينين الى الشفتين الحسيتين.

انصتوا الى كلماتي ـ ها هي الثروات التي تملكونها. اني أنا رمسيس الذي أخلق وأهب الحياة للأجيال... ان أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس... اني أدعم مركزكم لتقولوا ان حبكم لي هو الذي يدفعكم الى العمل من أجلي... طالما أنتم على قيد الحياة فانكم تعملون من أجلي رجلاً واحداً.

كان التمثال الواقع الى يساري مجرداً من الرأس والصدر. وبدا مكان الذراع اليسرى في التمثال الأخير فارغاً. وظهرت على التاثيل كلها آثار الآلاف الأربعة من الأعوام التي مرت على نحتها.

قال خليل: وانت تنظر من هنا تشعر أن التاثيل تحتفظ بالنسب العادية لجسم الانسان. أما اذا نظرت للتمثال مواجهة من فوق رافعة ستجد الرأس كبيراً والاكتاف ضيقة والأرداف صغيرة.

سألت: وماذا يعني هذا؟

قال: معناه أن الذين نحتوا هذا المعبد كانوا يعرفون الابعاد الحقيقية لجسم الانسان أي فن المنظور.

عدت أرفع رأسي الى قمة الواجهة فرأيت صفاً من القرود يمتد بعضها فوق رؤوس التاثيل. كانت القرود مقتعدة القرفصاء تتطلع الى الأمام في الاتجاه نفسه الذي تتطلع اليه التاثيل.

قال خليل: كان رمسيس يخشى غروب الشمس لأنها تغرب في العالم السفلي. لهذا

صمم المدخل بحيث تسقط عليه أولى أشعتها. وكانت القرود في وضعها هذا أول من يلمح الشمس عند شروقها فتهلل لرؤياها حتى يطمئن الملك.

جذبني خليل من ذراعي وخطونا الى الأمام وهو يشير الى قاعدة التمثال الأول على يميني.

كان هناك شريط من الرموز في أعلى القاعدة الحجرية التي ترتفع خمسة أمتار تبينت بينها تلك المكونة لاسم رمسيس. وتحتها كان هناك نقش يمثل عدداً من الرجال ركعوا على ركبهم وظهر خط من الحبال يربط بين أعناقهم. وكانت هناك حبال أخرى معقودة على أذرعتهم. ومن آذانهم تدلت أقراط مستديرة كبيرة الحجم. كانت وجوههم تنطق بأنهم من أهالي النوبة.

مضينا لصق الحائط حتى نهايته ثم ولجنا المدخل وسرنا في ردهة ضيقة. وما لبث نور الشمس ان اختفى. وحل محله ضوء المصابيح الكهربائية الضعيف.

أشرفنا على صالة مستطيلة الشكل انتشرت بها الدعامات المعدنية وزين سقفها بالنسر المجنح تارة وبالنجوم تارة أخرى فضلا عن اسم رمسيس. وكانت هناك أربعة تماثيل متشابهة على كل من جانبي الصالة تمثل رمسيس عاقداً يديه على صدره في هيئة «أزوريس» إمام الشهداء ورمز الخلود وآله الحساب. وبدت ملامحه هنا مجردة من تلك الوسامة التي تميز بها تمثاله الضخم في الخارج.

درنا حول التماثيل التي أعطت ظهرها للجدار الشمالي. ووقفنا نتأمل النقوش التي حفل بها هذا الجدار.

قال خليل: هذه قصة معركة قادش.

أشار الى لوحة ضخمة تصدرها رمسيس الثاني في ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي جالساً فوق عرشه. ووقف خلفه حامل المظلة الذي لم تبلغ قامته ارتفاع عرش فرعون. وأمامه انحنى طابور من القادة العسكريين في حجم حامل المظلة. وفوقهم شريط من راكبي العربات التي تجرّها الجياد ويعتليها المحاربون بأقواسهم وسهامهم.

وفي منظر مجاور ظهر الجيش المصري في صفوف متوازية من المشاة يليهم نافخو المزامير النحاسية والضباط ثم عربة رمسيس يتقدمها اثنان من حملة المظلات على أقدامها الى جانب أسد طليق. وفي مكان آخر بدا المعسكر المصري مكتظاً بالجند والعربات الحربية. وفي الوسط أقيمت خيمة كبيرة للملك حولها ثلاثة خيام أخرى أصغر منها. أما أسد الملك فقد ربض ناعساً على الأرض بعد أن قيدت قدمه الى

قوس. وحلت أربطة الخيل لاطعامها ورفعت الأحمال عن ظهور الحمير التي كانت تتمرغ في التراب وتنهق وتجري وترفس بأرجلها.

وكان هناك بعض عمال بقيادة جندي انهمكوا في إزالة الأتربة بمكانيس صغيرة ورش المياه. وسار آخرون خلف عربات تجرها الثيران. والى جانب أكواخ استقرت سقوفها على أعمدة جواد أدخل رأسه في مخلاة بينما كان أحد السياس يعنى بأمر جوادين وجلس قائد عربة داخل صندوقها غارقاً في النوم. ووقف جندي يرتوي.

قال خليل: لم يكن هؤلاء المساكين يشعرون بالخطر المحدق بهم. وأشار الى منظر مجاور ضم فرعون جالساً على عرشه وتحت قدميه اثنان من أسرى الأعداء يجري جلدهما.

أضاف: اعترف الأسيران بالمكان الذي عسكر فيه ملك الحثيين. لكن اعترافهما كان خدعة. واندفع الجيش المصري الى الكمين الذي نصب له.

أخذ جلالته يطمئن ياوره وكان جلالته لا يخشى شيئاً، وقد تركه جنده بحثا عن الغنائم بدلا من أن يأخذوا أماكنهم في المعركة. لم يكن هناك أمير ولا ياور ولا دليل ولا ضابط... وقد سمعت استغاثة الملك في كل مكان حتى وصلت «طيبة» واستجاب لها حليف عظيم يفوق الملايين. فأخذ رمسيس يطلق سهامه على ميمنته ويحصن ميسرته. عندئذ انقلبت عربات الاعداء البالغ عددها ٢٥٠٠ عربة بخيولها. وكان الجند المفزوعون خوفا عاجزين عن استعمال أيديهم في القتال وقد خفقت قلوبهم في صدورهم فكانوا لا يعرفون كيف يصوبون ولا كيف يقبضون على السيف، وقد ألقى بهم الملك في الماء كالتماسيح. والجند الذين كانوا يزحفون على بطونهم لم تقم لهم قائمة... وارتدوا مهزومين مبهورين من فرط شجاعة فرعون وكانوا يصيحون «لينج بنفسه من يستطيع..» وجرى جلالته وراءهم مثل العقاب.

عين لي خليل مكان رمسيس على الجدار. كان يقف فوق عربته باسطا ساعده الأيمن الذي يحمل القوس الى نهايته بينما انثنى الآخر خلف رأسه ممسكا بالسهم. وشب الجواد بقدميه الاماميتين. وأحاط به جنود العدو من كل جانب. وظهرت جيادهم التي اخترقتها سهام الملك وقد تعثرت وسقطت وهوى ركابها الى الأرض. ثم ظهرت العربة الملكية في طريق العودة بعد النصر وخلفها الأسرى الذين تجلى الهلع على وجوههم.

قال: لقد نجا رمسيس من الموت في هذه المعركة بفضل حرسه الخاص من الجنود الذين أحاطوا به من كل جانب. لكن النقوش لا تشير اليهم بحرف. أما هو فقد صب

اللوم كله فيما حدث على جنوده ووصفهم بأنهم جبناء مع أن المسؤولية كلها تقع عليه.

ـ كيف؟

ـ هو الذي اتخذ قرار الحرب. وأسرع بجيشه دون أن ينتظر حتى تلحق به بقية قواته. وهو الذي صدق رواية الاسيرين ولم يعبأ بأن يتحقق من صدقها.

لم يكن أحد منكم هناك. لم يكن معي قائد أو ضابط مركبة أو ضابط من المشاة ولا حامل درع. فقد تركني مشاتي وفرساني فريسة أمام العدو... لم يقف أحد بجانبي ويضع يده في يدي وأنا أحارب العدو... ان الاجانب الذين شاهدونني سوف يخلدون اسمي حتى في البلاد النائية التي لم يسمع بها أحد.

استدار خليل الى الجدار المقابل قائلا:

ـ وهذه كذبة أخرى.

اقتربنا من الجدار بعد أن مرقنا من خلال تماثيل رمسيس المتقابلة. كانت هناك عدة مناظر تمثل رمسيس وهو يحرق البخور أو يتعبد أمام الآلهة. كما ظهر في عجلته الحربية يطلق سهامه على احدى القلاع التي يتساقط منها الاعداء بينما يطلب آخرون الرحمة ويحاول أحد الرعاة اخفاء ماشيته.

كان النقش الذي عناه خليل يمثل فرعون وقد وطأ باحدى قدميه رأس جندي من الاعداء استلقى على الارض بينما أمسك بذراع جندي آخر أمامه وطعنه بالرمح في صدره. وأشار خليل الى رأس الجندي الذي ارتمى على الارض. كان وجهه الى أسفل بينما استقرت قدم رمسيس في الصندل فوقها.

قال: هل ترى الانف واللحية؟

استطعت أن أتبين لحية صغيرة مدببة وأنفاً محدوداً. وكانت اللحية نفسها والانف واضحة في وجه الرجل الذي تلقى طعنة فرعون.

قال: هذه سمات الليبيين المميزة. والثابت أن رمسيس لم يلتق بهم في موقعة واحدة.

ابتعدنا عن الحائط وغادرنا القاعة الى أخرى تصغرها حجما وتحتوي على أربعة أعمدة مربعة عليها نقوش تمثل رمسيس مع الآلهة.

كان رمسيس فوق أحدها يحرق البخور في حضرة المعبودة «ايزيس» وعلى عمود آخر كانت المعبودة «موت» تقربه منها وتمد يدها اليمنى فتمسك بساعده الأيسر

بينما ختفى ساعدها الآخر خلف ظهره وهمت باحتضانه.

جذبني خليل الى نقش ظهر فيه رسمان متاثلان لرمسيس يواجه أحدهما الآخر.

قال: رمسيس الملك يتعبد لرمسيس الاله.

انتقلنا الى نقش غير واضح التفاصيل بسبب ازدحامه بالاشكال والرموز. لكني سرعان ما تبينت جسم «ايزيس» الرشيق وبجوارها ملتصقاً بها جسم رمسيس المألوف ثم شخص آخر له تاج مرتفع يتألف من مخروطين متجاورين وامتد عضوه التناسلي أمامه على الحائط.

أوضح لي خليل أن الاله الآخر هو المختص بالنسل. وجذب انتباهي الى أن جسم رمسيس يغطي مساحة كبيرة من النقوش ثم قال:

ـ عندما سيطرت على رمسيس فكرة الألوهية كان بناء المعبد قد أوشك أن يتم. وصدرت الأوامر للرسامين بأن يحشروا الاله الجديد حشرا بين الآلهة الاخرى. فكان هذا النقش وأيضا ذاك.

كان يعني نقشاً وضع فيه الاله الجديد في مساحة ضيقة بين «آمون» و «موت». كانت الاخيرة جالسة على مقعد خلف زوجها فجعلت واقفة لافساح مكان لرمسيس. وظهرت آثار أقدامها عندما كانت تجلس بينما أصبحت أقدامها الجديدة منخفضة عن المستوى الذي استقرت عنده أقدام الآلهة الآخرين.

قال خليل ونحن نغادر القاعة الى غرفة صغيرة تليها: هذا هو قدس الأقداس. أهم مكان في المعبد وآخر أجزائه.

كانت هناك أربعة تماثيل متجاورة تجلس في كبرياء فوق منصة حجرية تواجه الداخل. وكان بوسع الآلهة الأربعة من مكانها هذا أن ترى مدخل المعبد الذي يبعد عنها أكثر من ستين مترا.

كانت التماثيل التي نحتت مباشرة من حائط الجبل تمثل صاحب الدار اله المشرق واثنين من ضيوفه هما «رع» و«بتاح» بالاضافة الى رمسيس الذي قرر أن ينضم اليهم. وكانت ثمة بقية ملحوظة من الالوان الاصلية للاحجار وهي الازرق والبرتقالي والاحمر والاخضر.

عدنا أدراجنا على مهل وقد بدأت أشعر بشيء من الدوار. فلم تفلح محطة التهوية التي أقيمت داخل المعبد في تبديد ما تراكم فيه من عفونة على مر الزمن.

نقلت بصري بين الجدران والاعمدة والسقوف التي ما زال الصخر يحملها كما نحتها الفنانون القدامى. كانت كل نقطة في سطح الصخر محفورة وأغلب الحفر ملوناً.

سألت خليل: كم عدد الذين اشتغلوا في بناء هذا المعبد؟

أجاب: لا أقل من عشرين ألفاً عملوا ثلاثين سنة بلا انقطاع.

ـ كلهم نحاتون؟

ـ أبداً. كانت هناك أعداد غفيرة من رجال الجيش والشرطة وخدم المعابد والكهنة والاسرى والعبيد. وبين هؤلاء كلهم قرابة المائة من الحجارين والنحاتين وعدد محدود من الرسامين والحفارين بعدد أصابع اليدين.

كانوا يعملون في ضوء مصابيح زيت الخروع. بعضهم بالمطارق والآخرون بالأزاميل بينما يشتغل غيرهم بأدوات الصقل. ويقبض الرسامون على أقلام من الغاب في يد والمحبرة في اليد الاخرى ويبدأون تخطيط الكتابة الهيروغليفية التي ستنقش على الحجر وتلون فيما بعد بالازرق والاخضر. وفي الوقت نفسه يغمس النقاش فرشاته استعداداً للتلوين. وكانوا يعملون جميعاً وهم وقوف أو جلوس على مقاعد بلا مساند. على أن أكثر العمليات صعوبة كانت هي النحت مباشرة من صخور الجبل. فقد كان على النحات أن يرى خلال الصخر ما يحتوي عليه من أشكال ولم تكن الضربة الحية تسمح بترف الخطأ والتصحيح فلم يكن بوسعه أن يعيد لصق أجزاء محطمة.

قادني خليل الى درج حديدي ضيق أشبه بسلالم الحرائق ارتقيناه الى سطح المعبد. ووقفنا في الشمس فوق صف القرود التي تزين أعلى الواجهة. كان السطح يمتد أمامنا حوالي ستين مترا ثم ينتهي فجأة في الفراغ اذ تخلص المعبد نهائياً من الجبل المنحوت فيه. وظهر سفح الجبل عمودياً أملس كأنه جزء من طورطة هائلة قطعت بعناية شديدة.

قال خليل أن نسف الجبل المحيط بالمعبد كان معقداً للغاية ودقيقاً. فقد كان الخوف دائماً أن يحدث صدع في المعبد. ولهذا كان الخبراء يدخلون بالديناميت الى أعماق بعيدة في بطن الجبل. وعندما تم فصل المعبد تماماً جرت عملية ازالة القشرة الرقيقة التي تبقت على جدرانه من آثار الجبل. ثم بدأ تقطيع أحجار المبنى بواسطة منشار كهربائي.

تطلّع خليل الى ساعته وقال: لا أظن أننا نستطيع زيارة المعبد الآخر الآن. فهناك تفجير سيجري بعد قليل.

قلت ونحن نهبط الدرج الحديدي: نذهب غداً إذن.

أصبحنا خارج المعبد فمضينا ببطء أسفل أقدام رمسيس الضخمة. واشتد بي الصداع فشكوت لخليل. واقترح أن نذهب الى غرفته في العوامة ليعطيني مسكناً.

ومضينا الى الشاطىء وصعدنا العوامة المخصصة لموظفي مصلحة الآثار. وعندما بلغنا سطحها تناهى الى سمعنا صوت انفجار عنيف على الشاطيء. تطلع خليل الى نقطة على يسارنا تبعد مائتي متر وينتهي عندها مدى الرؤية على الشاطيء. ورأيت سحابة من الاتربة الناجمة عن الانفجار تتجمع فوقها وترتفع عالياً في السماء ثم تتلاشى.

قال ونحن ننطلق في ممر ضيق تناثرت القمرات على جانبيه: ربما كان هذا آخر تفجير في جدار المعبد الصغير.

كانت حجرته أنيقة تنم عن ذوق أوروبي. وكانت هناك عدة صور على الحائط لفتاة أوروبية بالبكيني وقد ظهرت واجهة «أبي سنبل» في مؤخرة احداها.

سألته وأنا ابتلع قرصين قدمها لي: سويدية؟

ابتسم في شيء من الزهو: أجل. كانت هنا في أجازة لدى والدها الخبير. وأصبحنا صديقين.

قلت يبدو أنك لا تضيع وقتك هنا.

قال: السويديون عندهم حرية. الواحدة منهم تمشي وتنام معك وكل شيء بعلم زوجها.

قلت: هل تعمل كثيرات منهن هنا.

قلت: أجل. بقينا ثلاثة أيام نطالب بأن يعطونا أسلحة دون جدوى.

قال: وبعد ذلك؟

قلت: لا شيء. انضممنا الى فرقة للمقاومة الشعبية في الحي.

وصدقنا حقاً أننا سنقاتل. وعلى باب المدرسة القديمة وقف شاب يحمل بندقية يسألك عن كلمة السر بصوت متوتر. وفي الداخل جلس الضابط السابق في ملابسه العسكرية يأكل الكباب، وحوله الحواريون من أعضاء الهيئة التي تضم كل الشعب، وتولى التدريب عريف

قال أنه من رجال الثورة. ثم أعطونا البنادق الجديدة التي لم تلمسها اصبع من قبل، وطفنا بشوارع الحي يتقدمنا ضابط آخر أصبح فيا بعد من نجوم السينما، وتجمع السكان في النوافذ والشرفات يصفقون لنا، وزغردت النسوة، بعد ذلك تحدثت الصحف عن الانتصار الشعبي الرائع،

ملأ الطبيب كؤوسنا من جديد وهو يقول:

- فكروا لنا في نخب.

قال خليل: نشرب نخب أنفسنا.

قال الطبيب: نريد شيئاً آخر أكثر أهمية. رمسيس الثاني مثلا.

قلت: أو الفنانين الذين نحتوا تماثيله.

قال الطبيب: لكننا لا نعرفهم. ما رأي الآثار؟

قال خليل: ليست عندي أية فكرة.

أنا العليم بسر الكلمات المقدسة.. أنا سيد الاسرار.. أعرف تماماً الاوضاع الدقيقة لتمثال الرجل ووقفة المرأة.. وكيف يتهيأ الرجل ليطعن بالحربة. أنا عليم بنظرة العين الخاطفة، بالدهشة الطارئة التي تعتري الشخص الذي يستيقظ من نومه، بحركة ذراع رامي الرمح وهو يرفع ذراعه بمدى ميل جسم انسان يجري، أعرف سر تركيبات لا تقوى النيران على حرقها... ولا تستطيع المياه اذابتها.

أجاب: أبداً. في كل أبي سنبل ثلاث فتيات عاملات. واحدة لبنانية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية هي أحلاهن.

قلت: رختا؟

قال: أجل كيف عرفت؟

حكيت له.

قال: سآخذك اليهن في المساء.

سألت: والسويديات؟

قال: الموجودات هنا زوجات فقط. وأنا أقضي معهن كل وقتي لأني أعرف اللغة.

- تعلمتها هنا؟

- أبداً. في السويد. قضيت هناك عدة أشهر تعلمت خلالها مبادىء اللغة.

- هذا رائع. لا بد أن تحكي لي مرة عن حياتك هناك.

- خسارة أنك لم تأت منذ شهر. كانت هنا شلة سويديات. وكنا نخرج في لنشات. وعندما نبتعد عن أبي سنبل كن يخلعن البكيني نفسه.

أشعلت سيجارة وأنا أتصور المنظر. وسألني ونحن نتأهب لمغادرة الغرفة:

- ألم تشعر بالجوع بعد؟

أومأت برأسي. وقال عندما هبطنا الى الشاطيء انه سيذهب معي لأنهم يتناولون طعامهم في النادي القريب من استراحة الشركة.

رأيت مجموعة من الرجال الذين غطوا رؤوسهم بقبعات من الفلين وقد تجمعوا على مستوى مرتفع قليلا من الصخور.

قال خليل.

- تعال أعرفك بالدكتور شوقي رئيسنا.

صعدنا اليهم وسط الصخور. كانوا يقفون الى جوار فتحة أشبه بالكهف متحلقين حول رجل ضخم متقدم في السن أبيض شعر الرأس. وكان هذا يفحص بضعة نقوش على الصخور بدت لي أشبه بعبث الأطفال.

قال ذو الشعر الأبيض ان بعض النقوش ترمز الى الثيران وبعضها الآخر الى الغزال. وانحنى فوق نقش غير واضح ثم أضاف:

- آه... هنا أسد مرتفع الذيل. هذه الرسوم من قبل التاريخ.

سرَت همهمة في المجموعة. وقال خليل:

- معنا هنا صحفي ليسجل هذا الاكتشاف.

قال ذو الشعر الأبيض في استهانة:

- ليست لهذه الرسوم أية قيمة. فقد عثرنا على الآلاف منها في كل مكان. هل تعرفون لماذا ينتمي رسم الاسد هذا الى عصر ما قبل التاريخ؟ لان الفراعنة رسموه وذيله دائر على كفله في الاتجاه إلى أسفل علامة الوداعة.

تحول الدكتور شوقي عن الكهف وبدأ يهبط الصخور ونحن في أعقابه. وجذبني خليل من ذراعي مقترباً منه ثم قدمني اليه في زهو كما لو كان يعرض عليه اكتشافاً أثرياً.

سألته عما اذا كان قد تم انقاذ كل الآثار القديمة في النوبة أم أن بعضها سيتعرض للغرق.

أجاب في حدة: لن يغرق شيء.

قلت: لكني سمعت أن بعض الآثار لن يمكن انقاذها ومنها كنيسة تضم صوراً للتعذيب الذي كان يتعرض له المسيحيون الاوائل.

قال: لقد اخترنا أهم النقوش الصخرية التي يمكن قطعها وعرضها في معارض واهداؤها. وكل المعابد تم انقاذها.

قلت: ومعبد جرف حسين؟

تردد قليلا ثم قال: معبد جرف حسين ليست له قيمة لكننا أخذنا منه كل ما هو مهم. اسمع، هذا المعبد يستحيل رفعه. ولم يكن من الممكن رفع كل النقوش الموجودة على الجدران لكننا اكتفينا بالأهم وتصوير الباقي.

لحظت في صوته رنة غضب. ولمحت خليل يغمز لي بعينه فشكرته. تركته يواصل طريقه بين الصخور نحو الشاطيء وتبعت خليل الى حيث وقفت سيارة جيب عند أول الطريق المؤدي الى الجبل. وجاء في أعقابنا بعض من كانوا يقفون حول الدكتور شوقي وفي مقدمتهم بدين بارز البطن يرتدي شورتاً أصفر.

جلست بين السائق وخليل بينما تزاحم الآخرون على المقعد الخلفي. وعندما شرع البدين في الصعود صاحوا فيه انه يأخذ مكان ثلاثة. فتراجع وظل خارج السيارة حتى جلسوا جميعاً. ولم يعد ثمة مكان له فاستند على حافة المقعد بجانب من فخذه الأيمن وتعلق في سقف العربة بيده اليمنى تاركاً بقية جسمه في الهواء.

كان له شارب صغير للغاية على الطراز الهتلري أضفى على وجهه السمين طابعاً غريباً. وكانت حدقتاه صفراوين لهما نظرة ثابتة. ولحظت ان حافة الشورت الذي يرتديه بالية. وقدرت أنه في الخامسة والاربعين أو الخمسين.

تحركت العربة فسمعنا صوتاً يصيح بنا أن نقف. والتفت الى الوراء فرأيت عم مهدي مساعد الريس سرور يجري محاولا اللحاق بنا. وما لبث أن تعلق بالسيارة واحتل منها على الناحية اليمنى المكان نفسه الذي احتله ذو الشورت الأصفر على الناحية اليسرى.

سأله السائق الى أين يريد الذهاب فقال لاهثا أنه يريد الصعود الى أعلى لشراء رطل لحم من الجمعية التعاونية.

واصلت السيارة مسيرها ومضت تصعد الطريق الصخري في صعوبة. وارتفع صوت من خلفي قائلا:

- لو شاءت الحكومة لكانت وفرت المبالغ التي انفقت على رصف هذا الطريق.

سأل آخر: كيف؟

أجاب: كان بوسع مصلحة الآثار أن تتولى العملية بتكاليف لا تذكر.

تطلع الجميع الى ذي الشورت الأصفر وانفجروا ضاحكين.

أتت السيارة بعد عدة خطوات فقال الصوت الأول: يا الله حسن الختام.

تحول اليه خليل قائلا: يجب أن نتحمل مصائبنا. ثم وجه حديثه لذي الشورت الأصفر في صوت جاد:

- لا تفقد ثقتك في العلم. المؤكد انهم سيخترعون في المستقبل العربة المتينة التي تحملك دون أن تشكو.

قال آخر. لكنه على ضخامته يتمتع برشاقة الغزلان. انظر كيف يجلس بنصف فخذ.

قال الصوت الاول على الفور: لن يحسبوا قوة السيارة الجديدة بالحصان. سيجعلونها قوة عشرين فخذ ومائة والف وهلم جرا.

لم ينبس ذو الشورت الاصفر بشيء وظل يتطلع أمامه بنظرة ثابتة كأنه ليس معنا. وعندما أصبحنا على مسافة ثلاثين مترا من استراحة الشركة انفجر أحد اطارات السيارة. وغادرنا السيارة فاكتشفنا أن الاطار الذي انفجر كان في الناحية التي اعتمد عليها ذو الشورت الاصفر.

قال عم مهدي ضاحكاً: الحمد الله أنا مش السبب. أنا كنت في الناحية الثانية.

مشينا حتى الاستراحة. وسألت عم مهدي عن موعد قيام الصندل في رحلة العودة فقال: بعد أسبوع.

اتفقت مع خليل على أن يمر بعد الظهر ثم ولجت الاستراحة وتابعوا هم المسير. تناولت طعام الغذاء بمفردي من يد عجوز نوبي. وأويت الى غرفتي فاستغرقت في نوم عميق أفقت منه وقد أوشكت الشمس على الغروب.

خرجت الى الردهة الخارجية فوجدتها خالية. ولمحت العجوز النوبي في المطبخ فطلبت منه أن يعد لي شاياً. جلست في الردهة أتصفح مجموعة من صحف الأيام الماضية وأنا أرتشف الشاي. عثرت على عدد من المجلة التي يعمل بها سعيد فقرأت التاريخ وقلبت صفحاتها بسرعة دون أن أعثر على مقال له.

وصل خليل بعد أن ساد الظلام. غادرنا الاستراحة ثم درنا من حولها ومضينا مسافة في أرض فضاء. وبعد قليل أصبحنا نسير بين فيلات صغيرة أشبه بشاليهات المصايف قال خليل انها مخصصة للاجانب.

لم أستطع أن أتبين شيئاً من خلال نوافذ الشاليهات التي لم تكن تعلو عن الارض كثيراً. فقد كان أغلبها مظلماً أو مسدل الستائر.

تذكرت رد فعل رفعت أمس عندما ذكرت اسم خليل أمامه. فسألته عما اذا كان هناك شيء بينهما. ظل صامتا بعض الوقت ثم قال:

ـ تشاجرنا مرة بسبب فتاة سويدية ثم سوينا الامر.

قلت: على فكرة. هل تأخذ مرتباً جيداً هنا؟

قال: طبعاً. كلنا هنا نأخذ مرتباتنا بزيادة مائة وخمسين في المائة.

سألت: وموظفو الشركة أيضاً مثل رفعت وحلمي؟

أجاب: وهم أيضاً.

مررنا بمنزل أسدلت على نافذته المضاءة ستارة حمراء. ثم عبرنا شارعاً ومضينا وسط مجموعة أخرى من الشاليهات حتى وصلنا الشاليه المخصص للبنات.

دق خليل جرس الباب الخارجي مسافة دون نتيجة. درنا حول الشاليه فرأينا أحدى النوافذ مضاءة وقد أسدلت ستارتها. وقال خليل انها غرفة الفتاة الفرنسية وأنها ليست جميلة لكنها متعلقة بملاحظ ايطالي لا تدعه يفارقها.

عدنا الى الشارع واقترح خليل أن نذهب الى النادي الافرنجي لعلنا نعثر فيه على الفتاتين الأخريين. وألفينا النادي مغلقاً. ورأينا من خلال نوافذه عجوزا ايطالية منهمكة في اعداد مجموعة كبيرة من الستائر.

عرض علي خليل أن نزور صديقاً له هو طبيب المستشفى فوافقت. كان لمستشفى بجوار الاستراحة الاخرى المخصصة لموظفي مصلحة الآثار وقد ألحق به مسكن

الطبيب. ووجدنا هذا مضاء وبابه مفتوحاً على مصراعيه. اجتزنا صالة خاوية الا من ثلاجة وولجنا غرفة تسودها الفوضى جلس في وسطها الى مائدة صغيرة شاب أصلع قصير القامة محتقن الوجه وأمامه زجاجة من الخمر.

قام الشاب مرحبا بنا. وأصر على أن أجلس فوق المقعد الوحيد بالغرفة بينما استقر خليل على الفراش الذي تناثرت فوقه الملابس وتدلت أغطيته على الارض.

غادر الطبيب الغرفة وعاد يحمل كوبين من الزجاج واناء به قطع الثلج. ووضع قطعتين من الثلج في كل كوب أضاف اليهما مقداراً من سائل الزبيب الذي احتوت عليه الزجاجة. ثم أضاف قليلا من الماء فاتخذ السائل على الفور لون اللبن.

قدم الى كلٍ منا كوباً وحمل كوبه فأنضم الى خليل على الفراش. ورآني أتأمل عدداً وفيراً من زجاجات الخمر الفارغة صفت الى جوار الحائط فقال:

ـ ليس هنا مرضى ولا نساء. ولم يبق غير القمار والخمر. وأنا لا أحب القمار.

قلت: فهمت أن خليلاً احتكر لعبة النساء.

ضحك وقال: هو الذي أفهمك هذا؟ ضحك عليك. خليل لا هم له الا تحويش راتبه.

قال خليل: في عرفك من لا يشرب كل ليلة متهم بأنه يحوش نقوده.

قلت: ألم يبلغكم الوباء الذي انتشر في السد في الاسبوعين الماضيين؟

قال: أبداً. المستوى الصحي هنا مرتفع. تعرف لماذا؟

قلت: لماذا؟

قال: هنا عدد كبير من الاوروبيين. وهؤلاء صحتهم ممتازة لأنهم تربوا على الزبدة.

قدمت اليه سيجارة وأشعلت واحدة. استطرد بعد أن جذب عدة أنفاس عميقة:

ـ أقول لك الحق.. أنا لم أخلق للشراب ولا للطب.. أنا خلقت للسياسة.

قلت: وماذا يمنعك من الاشتغال بها؟

تطلع الي باستغراب ثم ضحك: كيف؟ أليست أمور البلد في أيد أمينة ولا مجال لغيرها؟

سألت: أليس هنا اتحاد اشتراكي؟

قال: طبعاً توجد لجنة رئيسها هو المقاول الذي يأتي بالأنفار.

وتناول كأسه وهو يقول:

- نشرب في صحة المقاولين.. حكام المستقبل.

كان مذاق الزبيب المثلج لطيفاً فأفرغت كأسي كله.

قال خليل: رأيي أن السياسة نصب.

تجاهله الطبيب ومال برأسه ناحيتي: عندما كنت في الجامعة كانت هموم البلد تعنينا أكثر من الآن. كنا نفكر بكل شيء ونتابع كل شيء. ونحلم بيوم التخرج لنذهب الى الريف ونداوي الفلاحين الذين يعيشون كالحيوانات.

وضع كأسه على المائدة ثم أضاف:

- أنا هنا الآن لأني أريد أن أجمع شيئا من المال أفتح به عيادة خاصة. فهذه هي اللغة الوحيدة التي تتكلمها البلد كلها الآن.

لحظات الغروب على العشب الاخضر تحت الساعة العالية التي يردد الراديو دقاتها الرصينة طول اليوم، رعشة القلب لابتسامة فتاة، الكتب التي تظل مغلقة الصفحات حتى ليلة الامتحان، وفي البداية كان هناك من يحملون على الاعناق وتشق أيديهم الهواء من اليمين الى اليسار مع الشعارات المنغمة، فما زالت الجدران تسمع صدى أول هتاف بسقوط الملك، عندما كانت الصحف تتخاطفها الأيدي من الباعة، رعاياك يا مولاي، الثورة الثورة الثورة، ولم تنقطع حلقات النقاش وجرائد الحائط. لكن سيارات الشرطة وصلت الى أبواب المدرجات، وساد الساحة هدوء الموت الاصفر،

قال لي الطبيب: يهيأ لي أني رأيتك من قبل.

قلت: أين؟

قال: ربما أيام العدوان الثلاثي. في معسكرات الجامعة.. كنت هناك؟

سألني الطبيب: لماذا لا يعجبك رمسيس الثاني؟ انه اكثر شخصية تتمثل فيه عبرة التاريخ.

تساءلت: كيف؟

قال: ألم يحك لك خليل عن تاريخه؟ سبعون سنة من السلطة أي الكذب والفجور والقتل والادعاء والغرور والاستبعاد. وها هو ما زال يعيش حتى أيامنا. ونحن الآن نعمل ليل نهار ليخلد اسمه. تماما كما أراد.

قلت: ولماذا لا نقول أننا نخلد الفنان المجهول الذي نحت هذه التماثيل؟

انفجر ضاحكاً: الفنان المجهول. كالجندي المجهول. الضحية التي ينساها الانسان بسرعة البرق.

قال خليل: نشرب نخب الحكيم الفرعوني الذي قال: لا أحد سيأخذ بضائعه معه ولا أحد ذهب سيعود ثانية.

قال الطبيب: واحد آخر مجهول. لا. أنا مصر على رمسيس الثاني.

قلت: نشرب.

شربنا في صحة رمسيس الثاني. ووقف خليل قائلا ان الوقت متأخر ولا بد له من الذهاب الى عوامته. ونهضت بدوري.

تمسك الطبيب ببقائنا وقال انه ما زالت هناك عدة أنخاب أخرى لنفرتاري وبقية الزوجات الخمس اللاتي كن مفضلات من بين حريم رمسيس. لكن خليل أصر على الانصراف قائلا انه مضطر لأن يمشي حتى العوامة.

تحول الى الطبيب: اذن تبقى أنت لنفرغ الزجاجة معاً.

قلت اني أفضل الانصراف لأستيقظ مبكراً.

سألني: الى متى ستبقى معنا؟

قلت: الصندل الذي جئت عليه سيعود بعد أسبوع.

قال: اذن سنلتقي مرة أخرى.

انطلقنا الى الخارج. ورافقت خليل مرحلة من الطريق ثم ودعته بعد أن تواعدنا على اللقاء في الصباح. عدت أدراجي الى الاستراحة. وما أن بلغتها حتى تجاوزتها وواصلت السير الى الخيم.

كانت أغلب الخيم مظلمة تكشف فتحاتها عن الرجال الذين رقدوا على الارض وغطوا في النوم. وعثرت على واحدة مضاءة تحلق فيها عدد من الرجال حول مصباح زيتي. سألتهم عن جرجس فأشاروا الى خيمة مجاورة.

ألفيت الخيمة مظلمة. ووقفت في مدخلها أتأمل شخصاً ممدداً بداخلها يصدر عنه غطيط منتظم.

ناديت على جرجس بصوت مرتفع عدة مرات ثم رددت اسم ذهني. لكن النائم لم يتحرك فاستدرت وكررت عائداً الى الاستراحة.

(١)

عندما ولجت الردهة في الصباح فوجئت بفهمي يحييني قائلاً:

- صباح الخير يا بيه. الفطار جاهز.

تمتمت رداً مبهماً على تحيته وجلست الى المائدة. جعلت أرقبه وهو يضع الفول والجبن والمربى ثم يجلب الماء الساخن والشاي. اختلست نظرة الى وجهه فرأيته جامداً لا يعبر عن شيء ولا يحمل سوى تلك النظرة المؤدبة المعهودة في مطاعم الدرجة الاولى. واحترت في السبب الذي جعله يخفي عني مهنته الحقيقية.

سألته عن أحمد بعد لحظة فأجاب.

- بخير.

قلت: هو فين؟

قال: في الورشة.

لعل أحمد ميكانيكي حقاً كما قال.

انضم الى رفعت وأقبل على الطعام بحماسة. سألني عما فعلت بالامس فحكيت له. وظهر عليه الاستياء عندما سمع بذهابنا الى مسكن البنات.

قال: ولماذا أخذك اليهن؟

قلت: أنا الذي طلبت. فكرت في عمل حديث معهن. ثلاث بنات يعملن في أبي سنبل. هذا موضوع جذاب.

قال: هو يريد أن يستغلك ليتقرب اليهن.

لم أعلق بشيء ولزم هو الصمت.

قلت بعد لحظة اني ذاهب الى المعبد الصغير. فسألني ان كانت لدي سيارة. وعندما علم أني أنوي الذهاب الى الشاطيء سيراً على الاقدام عرض أن يضعني في سيارة تابعة للشركة ستذهب الى الشاطيء بعد قليل.

أقلّتني السيارة حتى عوامة خليل. كان ينتظرني أمام مدخلها. فانطلقنا على أقدامنا بحذاء الشاطيء. مررنا من أسفل أقدام رمسيس الذي يتصدر واجهة المعبد الكبير وواصلنا السير مائتي متر أخرى حتى بلغنا المعبد الآخر.

كانت أطراف أعمدة التخريم ترتفع فوق الجبل الذي يحتضن المعبد. ولمحت عاملا انحنى بكل جسده خلف مثقاب كهربائي كان يرتجف بشدة وهو يزحف داخل الصخر في بطء.

لاحظت أن واجهة المعبد أكثر اتساقاً من واجهة المعبد الكبير. وربما كان السبب هو صغر كل من حجمها وحجم التماثيل المكونة لها. كانت مزينة بستة تماثيل منها أربعة لرمسيس الثاني تمثله واقفاً عاري الصدر وقد التف الازار الشهير حول وسطه وفخذيه. وبدا وجهه أقرب الى صورته في التماثيل الداخلية للمعبد الكبير. لكن الابتسامة ذاتها كانت هناك.

كان التمثالان الآخران لنفرتاري في ثوب شفاف كشف عن ثدييها بينما أحاط شعرها بوجهها وتدلى على كتفيها. واستقر فوق رأسها تاج على هيئة قرص الشمس بين ريشتين. وحول سيقان التماثيل الضخمة وقف أطفال صغار في ارتفاع الركبة.

علق خليل على تماثيل الواجهة ونحن نجتاز المدخل الذي انتصب رمسيس على جانبيه:

- انها أول مرة يسمح فيها رمسيس لامرأة أن تقف الى جواره في نفس حجمه. ويقال أنها كانت أحب زوجاته اليه. ولعلها كانت ذات نفوذ سياسي.

ولجنا قاعة تحف بها ثلاثة أعمدة على كل جانب وكانت قمة كل عمود يزينها في الناحية التي تطل على الصالة رأس امرأة بأذني بقرة وشعر غزير انسدل في دوائر فوق كتفيها. ظننت الرأس لنفرتاري لكن خليل قال انها للآلهة «حتحور» التي خصص المعبد لعبادتها.

كانت جوانب الاعمدة تمثل الملك والملكة بصحبة الآلهة المختلفة. وعلى الجدار

الشرقي ظهر رمسيس على يمين المدخل ويساره يضرب أعداءه أمام الاله «رع حور آختي» تارة وأمام «آمون رع» تارة أخرى.

وكان هناك منظر يمثل اثنتين من الآلهة تضعان على رأس نفرتاري التي توسطتهما في ثوب شفاف التاج المؤلف من قرص الشمس بين ريشتين. وبدا وجه الملكة رائع الجمال بأنف مستقيم. وكانت هناك بقية من الالوان القديمة التي غطته في يوم من الايام ميزت بينها الذهبي والاحمر والاسود والكحلي.

اكتشفت ان العديد من السياح الاجانب الذين زاروا المعبد قد سجلوا أسماءهم في أماكن مختلفة من الجدران ابتغاء للخلود ولا ريب فغطوا بذلك أجزاء من النقوش الاصلية.

غادرنا القاعة من باب زينت جبهته بقرص الشمس تبرز منه حيتان وينتشر من جانبيه جناحا صقر. واجتزنا صالة عرضية الى المكان المعهود في أقصى كل معبد: قدس الأقداس.

كانت جدران هذه الغرفة محلاة بمناظر تمثل رمسيس يحرق البخور في حضرة المعبود وزوجته الى جانبه تهز في يد آلة موسيقية وتحمل في الاخرى بعضاً من زهر اللوتس. وظهرت خطوط فخذيها واضحة تحت الثوب الشفاف.

استقر تمثال الآلهة «حتحور» في مركز الصدارة من قدس الأقداس. وبدت في صورة امرأة فاتنة دقيقة الجسم يرتفع فوق رأسها قرنا بقرة يحيطان بقرص الشمس.

استفسرت من خليل عن تخصص «حتحور» بين الآلهة فأجاب:

- لم أقل لك؟ انها آلهة المتعة الجنسية.

قلت: لا أستطيع أن أتصور هؤلاء الناس يمارسون الغرام.

قال ونحن نتجه الى الخارج. أنت مخطيء. فقد كان بينهم عشاق مشهورون. وعلى ما أذكر توجد بردية تحدث فيها صاحبها عن سواد شعر حبيبته وحمرة شفتيها التي طغت على حمرة البلح الناضج. رغم أنهم لم يكونوا يعرفون التقبيل بالشفاه.

- كيف كان التقبيل لديهم اذن؟

قال: كانوا يكتفون بحك الانف.

أصبحنا في الخارج وسقطت علينا أشعة الشمس حارة ملتهبة. أسرعت أضع قبعتي على رأسي واستأنف خليل حديثه ونحن نسير على الشاطيء:

- فيما عدا هذا كانوا مثلنا تماماً. فهناك حكاية عن زوجة كاهن من كهنة رع

كانت تخونه وانجبت من عشيقها ثلاثة أولاد وعندما اكتشف زوجها الحقيقة قالت له ان الاله «رع» هو نفسه والد الأطفال الثلاثة. وحكاية أخرى عن واحدة أغوت شقيق زوجها لكنه رفض الاستسلام لها فانتقمت منه بأن زعمت لزوجها أنه راودها عن نفسها.

كنا قد بلغنا منتصف المسافة بين المعبدين. وتحولت أتأمل الصخور التي تصل بينهما. كانت قمتها تبدو متجهمة غير متناسقة. وفي عدد من الأماكن على السفح تجلى فعل الرياح على مر الاعوام في خطوط طولية متعاقبة على هيئة طبقات.

سألت خليل: بأي المعبدين كان الناس يبدأون زيارتهم؟

أجاب: كان لكل معبد عيده الخاص الذي يأتيه فيه الناس من الضفة الاخرى.

وكانوا يحتشدون من البقاع كافة لهذا الغرض ليتقربوا الى المعبود ويسألوه العون في مشاكلهم. ويقبل الملك فوق محفة تتألف من مقعد كبير ذي مساند جانبية. وعلى قفاه يتدلى شعر مستعار يحوطه أكليل معقود من الخلف يلتف فوقه ثعبان من الذهب انتفخ عنقه فانتصب وسط الجبين. ويتربع تاج الوجهين فوق رأسه الذي تحميه من أشعة الشمس مظلات من ريش النعام يحملها أبناء الملك وكبار رجال الدولة. وعند باب المعبد ينتظر الكهنة عراة الصدور حليقي شعر الرأس واللحية والشارب. هؤلاء وحدهم الذين يتمتعون بحق دخول قدس الأقداس ورؤية الآلهة. ويدخل الملك وصحبه الى حضرة المعبود بينما ينتظر أفراد الشعب في الخارج: النسوة تحرك الصاجات والمغنيات ينشدن والرجال يعزفون على الناي والآخرون يرقصون ويصفقون بأيديهم. وعندما ينتهي الاحتفال الديني ويخرج الملك الى الموكب المقدس الذي ينتظره في النيل يبدأ العيد الحقيقي فيستسلم الآلاف للملذات ويتناولون كميات وفيرة من النبيذ.

صحبت خليل الى مكتبه بالعوامة بعد أن وعدني بفنجان من القهوة. جلست الى جوار المكتب في غرفة واسعة صفت فيها عدة مكاتب بحذاء جدرانها. وتركني خليل بعض الوقت ليتبادل الحديث مع أوروبي مرح لوحت الشمس وجهه كان يجلس الى المكتب المقابل.

أحضر فراش نوبي فنجان القهوة وكوباً من الماء المثلج. اشعلت سيجارة. وما لبث خليل أن انضم اليَّ.

قال وهو يجلس الى مكتبه: خبير سويدي. كان يقيم هو وزوجته تحت. وكنت أراها كل ليلة من الشاطيء قبل النوم وهي عارية تماماً.

لمعت اليه متسائلا فاستطرد باسماً:

لسويديون ينامون دائماً عرايا. أتعرف ماذا كان يحدث كل ليلة؟ كان الرجل جته عدة دقائق ثم يتركها وينصرف الى غرفته.

ت: دون أن ينام معها؟

: الرجل السويدي لا ينام مع زوجته الا مرة واحدة في الشهر ليحافظ على عمل.

وماذا تفعل النساء؟

لك أن تتخيل. في أول أسبوع لي في السويد كنت أقيم عند رجل له بنتان. طرقت بابي احداهما. وبعد ربع ساعة دخلت الثانية عارية.

لت سيجارة ثانية وأنا أقول: وقضيتم الليلة ثلاثتكم معاً؟

حك: طبعاً.

لاب؟

لا شيء. البنت السويدية تأخذك في حجرتها بعلم أبيها وبرضاه.

ت وأنا أنهض واقفاً وأتناول قبعتي: في المرة القادمة عندما تذهب الى هناك تأخذني معك.

: الى أين أنت ذاهب الآن؟

ت: أريد أن أشتري سجايرا وصابونا.

: عليك أن تذهب الى المستعمرة. انتظر حتى أجد لك سيارة.

درنا العوامة الى الشاطيء. كانت هناك سيارة جيب بلا سائق. فوقفنا في نتظر.

: لو رأيت عمالنا الصعايدة عندما كانت شلة السويديات هنا لمت من . كانت السويديات يستلقين خارج الشاليهات بالبكيني. ويقف الصعايدة الذين شيئاً مثل هذا من قبل... يقفون أمامهن ساعات بلا حراك أو عمل.

ت: سنذهب بعد الظهر الى منزل البنات؟

: لا مانع. سأمر عليك.

كني ومضى الى العوامة بحثا عن السائق. ولمحت أمامها ذا الشورت الكاكي الفلين يتبادل الحديث مع شاب صغير وقد أمسك بذراعه. كان يشير بأصبعه لمعبد والشاب يهز رأسه نفيا. ثم صعد الشاب الى العوامة بينما انطلق البدين د بمفرده. وظهر خليل وبرفقته السائق.

أقلني السائق الى مستعمرة الاجانب وأنزلني أمام الجمعية التعاونية. وألفيت في الداخل عدداً كبيراً من المصريين أغلبهم من العمال وبينهم بعض الأجانب.

تعلقت عيناي بفتاة أجنبية رائعة البشرة. كان جسدها نحيفاً وشعرها أشقر قصيراً. وبدت شفتاها رقيقتين للغاية. وعلا بشرة ساعديها وساقيها زغب أشقر خفيف. وكانت حركاتها تنم عن اعتداد شديد بالنفس.

كانت تحاول التحدث الى البائع الذي انهمك في شجار حاد مع أحد العمال. وفجأة انفجرت فيه صائحة بالانجليزية: أنا أكلمك يا حيوان ويجب أن ترد علي.

أجاب لها البائع طلباتها وانصرفت. واشتريت أنا سجائراً وصابونا ثم انطلقت في الطريق المؤدي الى الاستراحة وأنا أتطلع حولي يمنة ويسرة لكني لم ألمح شيئاً من تلك المخلوقات التي زعم خليل أنها تظهر للرائي في البكيني.

وضعت السجائر والصابون في حجرتي وعدت الى الخارج. مشيت حتى الخيم وبحثت عن جرجس فقال لي أحد العمال انه في الورشة التي تقع خلف الخيم.

وجدت جرجس يعاون أحمد في تشحيم محرك سيارة. وكان الاثنان يرتديان سروالين أفرنجيين. رحبا بي ومضى أحمد ليعد لنا الشاي. فانتهزت الفرصة لأسأل جرجس عن ذهني.

قال في صوت خافت: سافر امبارح.
قلت: سافر خلاص؟
قال: تلاجيه الوجت عدا الحدود.
قلت: كنت عاوز أشوفه قبل ما يسافر.
قال: احنا استنظرناك امبارح بالليل.
قلت: أنا جيت لكن ما لقيتش حد.
قال: لازم جيت متأخر. كان لازم تجوم بدري.
قلت: انت رحت معاه؟
قال: وصلته حبه.
عاد أحمد بالشاي وقدمت اليهما السجائر.
قال أحمد: عرفت انك شفت فهمي النهارده الصبح.
قلت: أيوه.

انتهينا من الشاي فغادرتها واعداً بزيارتها مرة أخرى. وعدت الى الاستراحة

فأخذت حماماً. ثم تناولت طعام الغذاء بمفردي. وكان فهمي هو الذي قدمه لي.

غفوت ساعة بعد الغذاء. وحلمت أني على ظهر مركب أمام «وادي السبوع» كان الشاطيء حافلا بتماثيل ملونة زاهية لاناث جميلات. وعلى ظهر المركب استلقت عدة نساء قبيحات عرضن أجزاء من أجسادهن للشمس. كانت احداهن تشاركني الغطاء. وشعرت بها تداعب قدمي بأصبع قدمها فداعبتها بدوري. ثم رأيت ثدياً عارياً لواحدة أخرى فحولت وجهي أدباً. وكنت أعرف أنهن يتقربن إليَّ كي أنشر صورهن في الصحيفة.

أخذت حماماً عندما استيقظت. ولم أجد أحداً في الصالة أو المطبخ. فأعددت لنفسي كوباً من الشاي حملته الى الخارج وجلست أحتسيه على درج الاستراحة.

كانت حرارة الشمس ما تزال قوية. لكن مساحة الظل كانت كبيرة. وقدرت أن الشمس ستختفي بعد ساعة.

أعادتني سخونة الجو الى الداخل. ذهبت الى حجرتي وفتحت كلا من مصراعي النافذة الخشبي والزجاجي. تركت المصراع الخشبي مفتوحاً وأعدت اغلاق الزجاجي. ومرت من أمامي شاحنة تمدد ثلاثة من الصعايدة فوق ظهرها وراحوا في سبات عميق.

وقفت خلف النافذة أدخن وأتأمل الطريق بينما جهاز التكييف يطنّ في أذني. لم يكن هناك أثر لأحد من الأحياء فيما حولي. ولم أر أية مبان على الناحية المقابلة. وكانت الرمال والصخور تغطيانها وتتدرجان ارتفاعا حتى مدى البصر.

وأدركت أني بلغت نهاية رحلتي.

قلت لخليل ونحن نبتعد عن الاستراحة في اتجاه بيوت الأجانب:

ـ الا تعرف طريقة للسفر؟ الصندل لا يقوم قبل أسبوع وأنا أريد العودة الى القاهرة بأسرع وقت.

قال: الباخرة مسافرة غداً. لماذا لم تقل لي قبل الآن؟
سألت: ليس هناك مكان؟
قال: غالباً. لكني سأدبر لك واحداً من تحت الأرض.
وضع يده في جيب قميصه الأعلى. وأخرج صورة فوتوغرافية قدمها لي وهو يقول:

- هذه صورتي فربما احتجتها اذا كنت ستكتب شيئاً.
أخذتها منه باهتمام قائلا: كنت سأطلبها منك. طبعاً سأحتاجها.
بلغنا منزل البنات وقرعنا الجرس دون أن يجيبنا أحد كما حدث بالامس.
قال: آه. نسيت أن فيلما يعرض اليوم. لعلهم هناك الآن. تحب أن تذهب؟
قلت إني لا أمانع.

انطلقنا الى النادي الافرنجي الذي يعرض به الفيلم. وكان ملوناً يقوم ببطولته جيمس ماسون في دور الامير الشجاع سير براك. ألفينا العرض قد بدأ فأخذنا مقاعدنا في الظلام. وعندما انتهى العرض واضيئت الأنوار تحولت أتأمل جمهور المتفرجين. كان معظمهم من الاجانب وبينهم عدد ضئيل من النساء. وأشار خليل الى فتاة طويلة ممشوقة القوام وقال:

- هذه هي ريجنا.

كانت ريجنا جديرة حقاً بالضجة التي أثيرت حولها. ورأيتها تغادر الصالة معتمدة على ذراع شاب رياضي في مثل قامتها ذي ملامح ايطالية. سألني خليل اذا كنت أريد أن أتحدث اليها أو الى غيرها فأجبت بأني فقدت اهتمامي وأني أريد أن أتمشى في الهواء الطلق.

مضينا في اتجاه الاستراحة. ومررنا بحانوت حلاق ثم شاليه جلس في مدخله المضاء رجل وامرأة متقابلين. واقتعدت الأرض بجوارهما امرأة ترتدي شورتا. كانت قد مدت ساقيها العاريتين أمامها فانعكس الضوء عليهما. وقال خليل انهم ايطاليون.
سألته ان كان قد جرب الايطاليات فأجاب:
- كلا. اليونانيات فقط.
- هل توجد هنا يونانيات؟
- أبداً. هذا كان في الاسكندرية.
قلت: احك لي.

قال: كنا في الصيف وأخذت شقة في عمارة مزدحمة. ثم اكتشفت أن هناك يونانية رائعة الجمال تسكن تحتي بمفردها. والتقينا عدة مرات في المصعد فتبادلنا التحية بالفرنسية. وفي يوم عدت بالليل مبكراً وشربت زجاجة نبيذ «تليماك» ثم لبست أشيك ملابسي ونزلت اليها. ضربت الجرس وكانت الساعة عشرة. ففتحت لي الباب. كانت ترتدي قميص نوم شفاف من النايلون.

قاطعته: وفتحت الباب هكذا دون أن ترتدي روباً أو تغطي نفسها؟

قال: هذا ما حدث. اعتذرت عن دق الجرس وقلت لها إني فقدت مفتاحي وكنت في حفلة وإني متعب. سألتها ان كان بوسعي أن أستريح عندها قليلا فقالت تفضل. جلست في الصالة وسألتني اذا كنت أحب أن أشرب شاياً أو قهوة فقلت إني لا أريد شيئاً. وجلست أمامي فقمت وجلست الى جوارها. أخذت أتأمل ساقيها وكانتا أروع ساقين رأيتها في حياتي. وقالت لي انها رأت سيارتي وانها تريد أن أعلمها القيادة.

قاطعته مرة أخرى: لم تقل لي أن عندك سيارة.
قال: هذه كانت سيارة أحد أصدقائي.
قلت: وبعدين؟
قال: سألتها عن زوجها فقالت انه في اليونان. وجدت نفسي دون أن أشعر أضع يدي على ساقها وأتحسسها وأنا أقول لها: ساقاك رائعتان. فقالت بهدوء: لقد شربت كثيراً يا مسيو خليل. انطلقت يدي رغماً عني تتحسس فخذها. فأمسكت بها وجعلت تضغط عليها. المرأة عندما تفعل ذلك تكون قد انتهت. انحنيت فوقها وأملتها على الاريكة. وصرت كل يوم معها عندي وعندها وفي السيارة. وجن الضباط الذين كانوا يسكنون في العمارة.

كنا قد تمهلنا أسفل أحد مصابيح الطريق. وسألني وانت. ألم تجرب الاجنبيات؟

هززت كتفي.

انحنينا على خارطة مدينتها وقد تلامست اكتافنا، وحولنا الدائرة الزجاجية التي تتألف منها قمة البرج، وخلفها كتلة من الظلام تفصلها عن أنوار القاهرة، وعندما حاولنا أن نرى المدينة من خلف الزجاج لم نطالع سوى وجهينا، وتمددت فوق رمال الشاطيء ثم انحنت وابعدت حافة القطعة السفلى من المايوه عن جسمها وتطلعت هناك، وفي ظلام السيارة شعت عيناها بالضوء، وكان الآخر يجلس الى جوارها من الناحية الاخرى واضعاً ذراعه على حافة المقعد خلف رأسها، وقال بيتا من الشعر فضحكت ساخرة وقالت: ها هو شاعر جديد.

توقفت أمام الاستراحة. وعرض علي خليل أن نذهب الى صديقه الطبيب فأعتذرت بأني أريد أن أنام مبكراً.

قال: سأبعث اليك في الصباح بسيارة تأتي بك. وسأكون قد أعددت كل شيء.

شكرته وانتظرت حتى سار بضع خطوات فولجت الاستراحة.

كان حلمي جالساً في الصالة وفي حجره بعض الأوراق. وبدا منهمكاً فيا يشبه الحسابات. جلست أمامه بعد أن قدمت اليه سيجارة وأشعلت واحدة. جعلت أرقبه وهو يلصق طوابع دمغه على أوراقه.

قلت بعد لحظة: سأسافر في الصباح.

قال: لا شك أنك مللت هذا المكان. ولك حق.

قلت: كان بودي أن أواصل السفر حتى حدود السودان لأرى بقية المعابد. لكن الوقت لا يكفي.

أتى رفعت من الخارج فحيانا وجلس. سأله حلمي عن الاخبار فقال ان السلطات أعادت اليوم وراء الحدود بعض اللاجئين الأفريقيين.

استفسرت عن الموضوع فذكر لي حلمي ان اللاجئين القادمين من تشاد يعبرون الحدود خلسة كل يوم ويسلمون أنفسهم الى أقرب نقطة شرطة فترحلهم الى أسوان.

سألت: ولماذا اذن أعادوهم اليوم؟

هزَّ كتفيه وقال: لا أعلم. ربما كانوا خطرين.

قال رفعت: لا أفهم لماذا يهجرون بلادهم أصلا.

نهضت واقفاً وأنا أتمطى. وقال حلمي لرفعت إني راحل في الصباح.

قال رفعت: لكنك لم تجر معنا أية أحاديث.

قلت: لقد كتبت كل شيء ولا تنقصني سوى صوركما.

أخرج رفعت من محفظة نقوده صورة فوتوغرافية له وناولها لي. وقام حلمي الى الداخل فأحضر صورة له.

تبادلنا تحية المساء وأويت الى غرفتي. أعددت حقيبتي ثم أشعلت سيجارة واستلقيت على الفراش.

تناولت رواية «كيرواك» وبدأت أقرأ لكني وضعتها جانباً بعد فترة. واسترجعت مغامرة خليل مع اليونانية. كانت حكايته جذابة رغم شكي في صحتها. ومضيت أتذكر حكايات مماثلة سمعتها أو قرأتها.

تحسست ساقي بيدي ثم أشعلت سيجارة أخرى بعد أن أطفأت النور. ودخنت في الظلام حتى انتهت السيجارة فوضعتها في المطفأة.

نمت على وجهي حتى الصباح. وحلمت أني وذهني محاصران في مكان ما ونريد

BIBLIOTHECA ALEXA

أن نتسلل منه. وأسير أنا في المقدمة ولكني أفاجأ باثنين من الزنوج يرتديان جلبابين أبيضين بحرسان المكان. وأقف أمامهما في الظلام واضحاً وأنا في رعب من أن يرياني وهما يرياني أخيراً ويجريان ورائي فأستسلم لهما شاعراً بعجزي عن المقاومة. لكني أبذل محاولة يائسة فأمسك برقبة أحدهما. وأرى ذهني ممسكا برقبة الثاني. واذا بالرقبة التي في يدي تلين كانبوبة من المطاط وأفعصها فتندفع منها الدماء وتتحول الى شيء كقربة من الجلد أفرغ ما بها. وأطوح بها بعيداً. ويتغير الليل فجأة الى نهار. وأجري في طريق حاشد بالمارة وأنا أنظر الى يدي الملوثتين بالدماء وأفكر بأن التخلص منها صعب وأن أمري لا بد سينكشف وأجري نحو ذهني الذي دلى يديه في مكان ما وغسلها. وننطلق معاً جرياً ونحن واثقين من أننا قد أفلتنا ونهنيء أنفسنا بالنجاة. واذا بالسيارات تحاصرنا ويقبضون علينا. وأقول لذهني انها غلطته فقد استنجد بالشرطة في الصباح لأمر ما وأعطاهم أسماءنا وأوصافنا فأتاح لهم فرصة اصطيادنا.

أيقظني فهمي في الصباح قائلا أن هناك سيارة تنتظرني. اغتسلت بسرعة بينما حمل حقيبتي الى السيارة. أردت أن أمضي بغير افطار لكنه أصر أن أتناول كوبا من الشاي وقطعة من الجبن. وأخيراً صافحته مودعاً وودعت كلا من حلمي ورفعت. وأخذت مكاني الى جوار السائق.

أدار السائق المحرك وسار بضع خطوات الى الامام. ثم قام بنصف دورة الى اليسار وضعته في الاتجاه المعاكس على الجانب الآخر من الطريق. وضغط مفتاح السرعة فانطلقت السيارة بأقصى سرعتها.

أخذ الجبل الصخري يتراجع من ورائنا. وأحاطت بنا الصخور والرمال المستوية من كل جانب. وما لبث النهر أن تجلى لأعيننا. وامتد الشاطيء الرملي الضيق تحت أقدامنا وفي أقصاه ناحية اليسار كانت الباخرة تستعد للاقلاع.

موسكو ـ ٢٤ يناير/كانون الثاني ١٩٧٣

كتبت هذه الرواية على فترات متقطعة بين اكتوبر/تشرين الاول ١٩٦٦ ويناير/كانون الثاني ١٩٧٣ في الاماكن التالية على التوالي: القاهرة، برلين، شاطيء البحر الاسود، موسكو. وأهم هذه الفترات وأثرها اتصالا هي الفترة الاخيرة التي امتدت من يوليو/تموز ١٩٧٢ حتى يناير/كانون الثاني ١٩٧٣.

وتستند الرواية الى رحلة قام بها المؤلف الى كل من موقع العمل في السد العالي وأبي سنبل في ضيف عام ١٩٦٥ ووضع عنها كتاباً بالاشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد صدر في القاهرة عام ١٩٦٧ بعنوان «انسان السد العالي». والمفروض أن أحداث الرواية تجري بعد عام من تحويل مجرى النيل الذي تم في مايو/آيار ١٩٦٤. وفي ذلك الحين كانت واجهتا معبدي أبي سنبل مغطاتين بالرمال وقد بدأ تقطيع الاجزاء العليا منها. وقد تجاوز المؤلف عن ذلك لاعتبارات فنية.

وقد استعان المؤلف بالمطبوعات والنشرات المختلفة الصادرة عن هيئة السد العالي وشركة المقاولين العرب ووزارة الثقافة ومركز تسجيل الآثار المصرية. ورجع الى عدة مراجع في التاريخ الفرعوني يذكر على رأسها «الحياة المصرية في عهد الرعامسة» تأليف بيير مونتيه ترجمة عزيز منصور ونشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ و«العمارة في مصر القديمة» للدكتور أور شكري (الهيئة العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠) كما استفاد فائدة كبيرة من المقال الممتاز الذي نشر بمجلة المجلة القاهرية - سبتمبر ١٩٦٥ بعنوان «عبادة رمسيس الثاني وعبادته في معابد النوبة» لاحمد عبد الحميد يوسف. وقد ضمن الرواية احدى الفقرات الكاملة عن هذا المقال وهي الخاصة بمعبد الدر. واستفاد المؤلف أيضاً من الكتاب الممتاز The agony and The ecstasy تأليف Irving stone الذي يدين له بأغلب الأفكار الواردة في المقتطفات الخاصة بميكل انجلو، كما رجع الى رسائل ميكل انجلو وأشعاره التي ترجمها الى الانجليزية Charies Speroni ونشرها مؤلف الكتاب السابق بعنوان I, Michel angelo, sculptor عن دار Doubleday, New York 1962.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

وشاهد المؤلف بنفسه نسخة من تمثالي «داود» و«الشفقة» في متحف بوشكين للفنون التشكيلية بموسكو. أما بالنسبة لأعمال ميكل انجلو الأخرى فقد اقتصر على مراجعة الالبومات المصورة المختلفة. ورجع المؤلف أيضاً الى «الكتاب المقدس» وكتاب المصور البريطاني «وليم ماكيني» عن أبي سنبل و «النيل في الأدب العربي» للدكتورة نعمات أحمد فؤاد و «النيل» لأميل لودفيج ومذكرات مدرسية عن علم طبقات الارض.

ويسجل المؤلف أن انجاز هذا العمل كان مستحيلا تماماً لولا المساعدات المختلفة التي تلقاها من كثيرين في مراحل مختلفة منه وفي مقدمتهم الصحفي السوفياتي «قسطنطين فيشنيفسكي» مراسل الارفستيا السابق في مصر الذي انتهت حياته المأساوية القصيرة قبل شهرين من انتهاء العمل في هذا الكتاب.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

طبع على مطابع « امبريمتو » بيروت – لبنان

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

Bibliotheca Alexandrina
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA